
رواية أوكسفورد
خافيير مارياس
LIFT

خافيير مارياس

رواية أوكسفورد

ترجمة صباح خرّاط زوين

تدقيق الدكتور سهيل سليمان

مراجعة وإشراف

ندى شديد زياده

نوفل

وُلد خافيير ماریاس في مدريد عام ١٩٥١. له أكثر من اثنتي عشرة رواية وتُرجمت أعماله إلى أربعين لغة، وحصد عدداً كبيراً من الجوائز العالميّة. علّم الآداب الإسبانيّة في كبرى الجامعات في إسبانيا والولايات المتّحدة وبريطانيا، كما له ترجمات إلى الإسبانيّة من أعمال لجوزف كونراد ورُوبرت لوي ستيفنسُن وتوماس براون ولورانس ستيرن.

رواية أوكسفورد

صورة الغلاف: كريم جريج

Javier Marías:«Todas las almas». 1989

Esta obra ha sido publicada con una subvención de la Dirección General del Libro, Archivos y Bibliotecas del Ministerio de Cultura de España.

تمّ دعم ترجمة هذا الكتاب ونشره من قبل المديريّة العامة للكتاب والأرشيف والمكتبات في وزارة الثقافة الإسبانية.

الطبعة الأولى
٢٠٠٨

نوفل
٩٩ شارع الصوراتي • بيروت • لبنان • فاكس ٣٥٤٣٩٤ (٠١)
تلفون ٣٥٤٨٩٨ (٠١) ٧٤٦١٣٠ (٠١) ٤٩٩٠٧٤ (٠١)
E-mail: Naufalgroup@terra.net.lb

إلى «إريك ساوثوارث»

إلى سابِقيَّ «فيشنته» و«فيليكس»

وإلى «إيليدي»

مات اثنان من الثلاثة، منذ أن غادرتُ أوكسفورد، وهذا يجعلني أفكّر بشيء من التطيّر، فأتصوّر أنهما انتظرا وصولي إلى هناك، وإمضائي بعض الوقت معهما لاعطائي فرصة التعرف إليهما وإمكانية التكلم عنهما اليوم. بالتالي، قد أكون - ودائماً من باب التطيّر - مجبراً على التكلّم عنهما. لم يموتا سوى حين توقفتُ عن رؤيتهما. لو استمررتُ في حياتهما وفي أوكسفورد (لوبقيت كل يوم في حياتهما)، لربما كانا اليوم على قيد الحياة. ليس هذا التفكير متطيّراً فحسب، إنما أيضاً متشاوفٌ. لكن لا أستطيع الكلام عنهما من دون الكلام عن نفسي وعن إقامتي في مدينة أوكسفورد، غير أن المتكلّم الآن ليس من كان هناك، فعلى الرغم من المظاهر، قد يبدو وكأنه هو، لكنه ليس نفسه. إن كنتُ أشير إلى نفسي بـ«أنا»، أو إن كنتُ أستعمل اسماً طالما رافقني منذ ولادتي والذي من خلاله سيتذكرني البعض، أو إن قصصت أحداثاً تتطابق مع أحداث أخرى قد ينسبها اليّ البعض، أو إذا سمّيتُ «بيتي» ذلك الذي سكنه آخرون، قبلي وبعدي، وأنا سكنته مدّة سنتين، فأفعل ذلك ببساطة لأنني أفضّل السرد بصفة المتكلّم، وليس لظنيّ أن قدرة الذاكرة تكفي لكي يظلّ المرء هو نفسه في أوقات مختلفة وأماكن مختلفة. فالمتكلم هنا عمّا رآه وعمّا عاشه،لم يعد من رأى واختبر ما اختبره، وليس حتى امتداده، ولا ظلّه ولا وريثه ولا مغتصبه.

كان بيتي هرميَّ الشكل ويتألف من ثلاث طبقات، وكنتُ أمضي أغلبية وقتي فيه؛ إذ كانت واجباتي في مدينة أوكسفورد شبه معدومة أو غير موجودة. في الواقع، إن أوكسفورد إحدى مدن العالم التي تعرف أقل نسبة عمل، فيصبح واقع أن «نتواجد فيها» أكثر حسماً من أن «نفعل شيئاً». الإقامة في أكسفورد تتطلّب قدراً كبيراً من التركيز والصبر والجهد لمقاومة تلاشي الفكر والروح، فمجرد الادعاء أن سكانها يظهرون نشاطاً، بخاصة علناً، يكون تتطلب غير لائق، على الرغم من أن بعض زملائي غالباً ما كانوا يتنقّلون بخطى سريعة لإعطائنا الانطباع بأنهم دائمو الانشغال وبخاصة بين ساعات التعليم، تلك الساعات التي مرت وتمر في الهدوء وراحة البال المطلقين، وبذلك مؤكّدين واقع أن «نكون» وليس أن «نفعل» أو حتى أن «نتصرف». هكذا كان «كرومر–بلايك» Cromer-Blake وهكذا كان «المفتش» الذي كان أيضاً يُدعي«ماتاريفيه» Matarife «ديستريبادور» Destripador؛ أما اسمه الحقيقي فكان «أليك ديوار» Alec Dewar.

لكن الشخص الذي يُحبط كل مظاهر الحركة، وبالتالي يبعث الحياة الحقيقية في سكون المكان واستقراره، هو «ويل» Will، البوّاب العجوز في المبنى (المبنى الذي يحمل بأبهة اسماً «لاتينياً»: «الإنستيتوتو تايلوريانا» Instituto Tayloriana حيث طالما اشتغلتُ في هدوءٍ وراحةِ بالٍ. لم أرَ في حياتي نظرةً أكثر صفاءً (طبعاً ليس في مدينتي، مدريد، حيث لا وجود للنظرات الصافية) من نظرة ذلك التسعيني، الدقيق الجسم واللطيف، والذي كان دائماً يرتدي سروالاً

كحلياً، والذي كان يُسمح له بالبقاء صباحات كثيرة في كوخه الزجاجي للمراقبة وبإلقاء تحيته الصباحية على الأساتذة كلما دخل أحدهم. لم يكن «ويل» يعرف تحديداً تاريخ اليوم الذي هو فيه، وهكذا، من دون أن يتمكّن أحد من التنبوء بالتواريخ التي يختارها وما هو باعث هذا الخيار، كان يجعل من كل صباح سنة مختلفة، مسافراً عبر الزمن الى المستقبل أو الى الماضي كما يحلو له. كان يعتقد أنه يعيش، بل حقاً يعيش في سنة ١٩٤٧ أو في سنة ١٩١٤ أو في سنة ١٩٣٥ أو في سنة ١٩٦٠ أو في سنة ١٩٢٦ أو في أيّة سنة من سني حياته الطوال. كان يمكننا أحياناً أن نتكهّن بأن «ويل» دخل في سنةٍ سيئة، وذلك من خلال تعبيرٍ طفيفٍ عن خوفٍ ما (كان شخصاً غايةً في النقاء ليشعر بالقلق، فهو يفتقر كلياً إلى رؤيا المستقبل التي عادةً ما ترافق هذا الشعور) ذلك التعبير الذي لم يتمكّن يوماً من جعل نظرته متجهّمةً، تلك النظرة الكفيّة والواثقة بنفسها. كان باستطاعتنا أن نفترض أن ذلك الصباح من عام ١٩٤٠ قد سيطر عليه الخوف جرّاء قصف مدافع الليلة السابقة أو الليلة القادمة، وأن أحد صباحات سنة ١٩١٦ قد غلب عليه الأسى بسبب الأخبار السيئة القادمة من هجوم الـ«سومّ» Somme، وأنّ صباحاً آخر من سنة ١٩٣٠ قد استيقظ ولم يجد في جيبه فلساً واحداً، ومع شيء من الخجل في عينيه، بحث عمنّ يقترض منه المال ، من دون أن يقرر بعد ممن. وفي أيام أخرى، كان الغموض يسيطر على بسمته العريضة أو على بريق نظرته المليئة بالعاطفة – ولم يكن هذا الغموض وهماً – فكان يعود سببه بلا شك إلى حياته اليائسة والباهتة التي لم تكن تهمّ أيّ طالب أو أستاذ. في هذا

الترحال المتواصل عبر الوجود، كان كل شيء تقريباً غير قابل للولوج بالنسبة إلى الآخرين (على طريقة رسوم القرون الماضية أو صورة فوتوغرافية التُقطت أمس الأوّل). فكيف نستطيع أن نعرف في أي يوم حزين كان «ويل»، في أي يوم من أيامه العديدة، عندما نراه يسلّم علينا بنصف ابتسامةٍ فحسب، بدل تلك الحركة المتحمّسة التي يقوم بها في التواريخ الفرحة أو حتى الحيادية؟ كيف نعرف أي نسيج كئيب من نسيج مسيرته اللامتناهية، كان يجوب حين لم يكن يرفع يده بحركة طفولية عند تحيته الصباحية؟ تلك اليد المرفوعة عمودياً، والتي تجعلنا نشعر ونقتنع بأن في تلك المدينة غير المضياف ثمة من يفرح حقاً برؤيتنا، حتى لو أنه لا يعرفنا، أو بالأحرى، كأنه يرانا كل صباح كشخص مختلف عن البارحة. في مناسبة واحدة فقط علمت، وذلك بفضل «كرومر–بلايك»، في أيّة فترة من حياته كان يتواجد «ويل»، هذه الحياة الرتيبة التي أمضاها وراء بلّور كوخه. كان «كرومر–بلايك» ينتظرني عند باب المبنى، وحين وصلتُ، نبّهني:

– قل شيئاً لـ«ويل»، بعض كلمات المؤاساة. يبدو أنه يعيش اليوم سنة ١٩٦٢، يوم ماتت زوجته، وقد يؤلمه كثيراً أن يمرّ أحدنا ويتجاهل الأمر. فهو حزين جداً، إلا أن مزاجه وطبعه الجيّدين يدعانه يتمتّع بأن يكون محور الاهتمام اليوم من دون أن يفقد كامل ابتسامته. لذا يمكن القول إنه إلى حدٍّ ما، فَرِحٌ ومفتتنٌ. ومن دون أن ينظر إليّ وهو يمسّد شعره الذي شاب مبكّراً، أضاف «كرومر–بلايك»: نأمل ألاّ يروقه هذا الوضع ويستقرّ على ذلك التاريخ: فقد يلزمنا هذا الأمر أن نجتاز العتبة كل صباح وعلى شفاهنا كلمات عزاء.

كان «ويل» يضع ربطة عنق سوداء على قميص أبيض تحت السروال الكحلي، وعيناه فاتحتَي اللون إلى درجة أنهما تبدوان شفّافتين وصافيتين أكثر من العادة، ربما بسبب ليلةٍ قد أمضاها يذرف الدموع وبسبب مشاهدته للموت. اقتربتُ من باب الكوخ المفتوح ووضعتُ يدي على كتفه، تحسّستُ عظامه، لم أعرف تماماً ماذا أقول.

- صباح الخير «ويل»، وإن كان صباحك سيئاً جداً. علمتُ بالنبأ للتوّ، وأنا آسف جداً، لكن ماذا يسعني أن أقول؟

ابتسم «ويل» بهدوءٍ، ومرّة أخرى برق وجهه الزهري اللون، زهريّ إلى حدّ أنه كان يبدو أملس. وضع يدَه على يدي وربَّت عليها من دون قوّة، كأنه هو الذي يؤاسيني. كان «كرومر-بلايك» يراقبنا، وثوب الأساتذة على كتفه (كان «كرومر-بلايك» دائماً يحمل هذا الثوب على كتفه ويراقب باستمرار).

- شكراً، «سيد تريفور» Mr Trevor. صحيحٌ ما قلتَه، لا يمكن أن يزداد هذا اليوم سوءاً بالنسبة لي. ماتت ليلة أمس أتعلم بذلك؟، ماتت في الصباح الباكر. كانت مريضة منذ بعض الوقت، مريضة قليلاً. استيقظتُ هذا الصباح وكانت تحتضر. ماتت على الفور، من دون إنذار، فجأةً، ربمالم ترد أن توقظني. قلتُ لها أن تنتظر، لكنها لم تستطع. حتى أنها لم تعطني الوقت الكافي لكي أنهض. توقّف ويل لحظة وسأل: كيف أبدو بربطة العنق هذه، «سيد تريفور»؟ عادةً أنا لا أضعها. ثم ابتسم وأضاف: لكنها عاشت حياةً جميلة وغير قصيرة، أو هكذا أعتقدُ. عليك أن تعرف أنها تكبرني بخمس سنوات. تكبرني بخمسٍ، ولا يهمّ أن اعدّ هذه السنوات الآن. سوف

أصبح، ربما الآن، أكبر سناً. سوف أحظى بأعياد ميلاد أخرى وربما سأعمّر أكثر مما عمّرت. لمس ربطة عنقه بِحيرةٍ وعدم ثقة. وأضاف: حتى لو كانت أيامي سيئة، من غير المنطقي ألاّ أصبّحك بالخير عندما أراك. صباح الخير، «سيد تريفور».

تركت يده يدي التي كانت على كتفه وارتفعت خفيفة كما في مرّات أخرى، إنما ارتفعت بتحيّة عموديّة.

ذلك الصباح كنا في عام ١٩٦٢، ولذلك كنتُ أنا السيد تريفور. ولو وجد «ويل» نفسه في الثلاثينيات، لكنت أصبحتُ «الدكتور نوت» Dr.Nott ولو كان ذلك في الخمسينيات، لكان عندئذٍ رأى فيّ «السيد رينر» Mr. Rainer. خلال حرب الـ١٤ كنتُ أتحوّل إلى «الدكتور أشمور-جونز» Dr. Ashmore Jones، وفي العشرينيات كنتُ «السيد بروم» Mr. Broom، أمّا في الأربعينيات فأكون «الدكتور ماير» Dr. Meier وفي السبعينيات والثمانينيات أصبح «الدكتور ماغيل» Dr. McGill، فهذه كانت الطريقة الوحيدة لمعرفة نحو أي عقدٍ كان يميل ويتجه «ويل»، هذا المسافر عبر الزمن، كلّ صباح. كنتُ كل يومٍ بالنسبة إليه عضواً مختلفاً من أعضاء الكلية الذين عرفهم في الماضي، حتى لو كنتُ دائماً الشخص نفسه في الحقبة التي يختار أن يسكنها عقلُه كل يوم. ولم يخطئ يوماً في حساباته. من خلالي، وفي عينيه الصافيتين واللازمنيتين، كان يعود إلى الحياة، ليعيش كل من «الدكتور ماغيل» و«الدكتور ماير» و«السيد بروم» و«الدكتور أشمور-جونز» و«السيد رينر» و«الدكتور نوت» و«السيد تريفور» ماضيهم الرتيب؛ فمنهم مَن

مات، ومنهم من تقاعد، وغيرهم انتقلوا إلى مكان آخر، أو بكل بساطة اختفوا من دون أن يتركوا أيّة ذكرى سوى ذكرى أسمائهم، أو ربما طُردوا من الجامعة بسبب خرقٍ ما في القوانين لم يدرِ به «ويل» المسكين لا من بعيد ولا من قريبٍ، وهو في كوخه الأبدي.

ويا للغرابة! عاش فيّ كذلك بعض الأوقات سيّدٌ ما يُدعي «برانشو» Branshaw لا يتذكّره أحدٌ ولا يعرف عنه شيئاً، كنت كلّ صباح أسمعه يناديني: «صباح الخير، سيد برانشو» ما جعلني أفكّر ما إذا كانت قدرة «ويل» على التنقّل عبر الزمن تشمل كذلك المستقبل (ربما القريب جداً، أقلّه ما يتّسع لِما تبقّى له من حياة) وما إذا كان، حين يجد نفسه في التسعينيات، سيلقي تحيّته على أحدٍ لم يكن وصل بعد إلى أوكسفورد؛ وقد لا يزال هذا الاخير، أينما وجد، يجهل أنه سيتحتّم عليه أن يعيش في المدينة غير المضياف والمكبوسة في شراب السكّر، كما سمّاها في الماضي أحد الأساتذة الذي علّم هنا قبلي. هذا الذي لم يأتِ بعد، قد يصعب على «ويل» التعرّف إليه بعينيه الحالمتين والشفّافتين، وقد يعطيه اسمي عندما يسلّم عليه بيده الفَرِحة، عند مدخل الـ«تايلوريانا»، اسمي الذي لم يلفظ به يوماً أمامي.

كما قلتُ آنفاً، كانت واجباتي في مدينة أوكسفورد ضئيلة جداً، مما جعلني أشعر في غالب الأحيان أني شخص صالح للزينة فحسب. ولكن لأنّي أعي أن وجودي بحدّ ذاته لم يكن قادراً على تزيين أي شيء على الإطلاق، كنت أرى أنّه من الأفضل أن أرتدي من وقتٍ إلى آخر ثوب الأساتذة الأسود (الذي أصبح ضرورياً فقط في مناسبات قليلة جداً)، والهدف الرئيسي من ذلك هو إرضاء السياح الكثر الذين كنت ألتقيهم مصادفةً وأنا في طريقي من بيتي الهرميّ الشكل إلى الـ«تايلوريانا»؛ أما الهدف الثانوي، فهو الشعور بأني متنكّر، شعورٌ يبرّر صفتي التزيينيّة. كنت أصل أحياناً في تنكّري هذا إلى الصفّ حيث أعطي دروسي الشحيحة أو محاضراتي اليتيمة لمجموعات مختلفة من الطلاب، الذين كانوا يبالغون في احترامهم ولو كانوا أيضاً يبالغون في لامبالاتهم. من حيث العمر، كنت أقرب إليهم ممّا كنته إلى معظم أعضاء الأخوية (هكذا يسمّون مجموعة «الأسياد» Don أو أساتذة الجامعة، وذلك تماشياً مع التقليد الإكليريكي القوي في هذا المكان)، إلّا أنه كان يكفي أن أكون جاثماً بتوتّرٍ على المنبر أثناء الساعات القليلة التي أقيم فيها علاقتي البصرية معهم، حتى يصبح التباعد المكاني بيني وبين الطلاب نوعاً ما ملوكيّاً. كنت فوق وكانوا تحت، أمامي مكتب جميل وأمامهم طاولات مبتذلة الشكل ذات شقوقٍ، أنا كنت أرتدي ثوب الأساتذة الأسود الطويل (مع أشرطة

كامبردج وليس أوكسفورد) وهم لا يرتدونه، وهذا كان، تلقائيا، سبباً كافياً كي لا يناقشوا شرحي غير المتّزن وكي لا يطرحوا عليّ أسئلةً عندما كنت أتكلّم بإطنابٍ حول الأدب الإسباني المظلم، أدب ما بعد الحرب، وذلك مدّة ساعة كانت تبدو لي من دون نهاية كمثل فترة ما بعد الحرب عينها في نظر أدبائها (أولئك المعادين للنظام، وهم نادرون).

بل كان الطلاب يطرحون الأسئلة، إنّما خلال صفوف الترجمة التي كنت أعطيها والتي يعاونني فيها مناوبةً أحد زملائي الإنكليز. كانت النصوص التي يختارها أولئك لتلك الصفوف (ذات التسمية الغريبة جداً، لذا أوثِر، عدم البوح بها حالياً كي لا أخلق لغزاً مجانياً ورديئاً) متكلّفة جداً وتقليدية إلى درجة أنّي اضطررتُ باستمرار إلى ارتجال تفسيراتٍ هجينة لمفردات عفنة أو مبهمة لم أرَها في حياتي أو لم أسمع بها، والتي طبعاً لن يراها الطلاب مرّة أخرى على الأرجح ولن يسمعوا بها في المستقبل. مفردات مزهوّة ومأثورة (خطّطت لها من دون شكّ عقول مريضة)، وأتذكّر منها بحماسةٍ خاصةٍ praseodimio، jarampero، guadameco و engibacaire (كذلك لم أستطع أن أنسى briaga التي ترد في مقطع يتعلّق بزراعة الكرمة). حتى لو بدوتُ أحمق الآن، وقد ترجمتها إلى الإنكليزية وأعرف تماماً ماذا تعني، أعترف أني في ذلك الوقت كنتُ أجهل كلياً وجودها الذي لا يزال يدهشني حتى اليوم. كان دوري في تلك الصفوف أكثر مجازفة مما في المحاضرات، إذ يكمن في أن أتحوّل إلى صرفٍ ونحوٍ وقاموسٍ، مع ما ينتج عنه من تلف لحواسّي. كانت الاستشارات

الأكثر صعوبة تلك المتعلّقة بالإيتيمولوجيا، لكن، لشوقي ورغبتي في أن أنال الإعجاب، لم أتردّد في اختراع إيتيمولوجيات هاذية أولاً بأول للتفصيل، وكنتُ واثقاً أني لن أقع في ورطة، إذ ما من طالب على الإطلاق، ولا حتى زميلي في المناوبة، سوف يملك الفضول الكافي ليبرهن لاحقاً صحّة أجوبتي. (وفي حال كان لديهم الفضول، كنت مقتنعاً بأنهم يملكون الرأفة الكافية ألّا يرموا الإهانات في وجهي في اليوم التالي.) هكذا، وأمام أسئلة كنتُ أراها خبيثة وعبثية، أمثال ما هو أصل كلمة papirotazo، لم أمتنع عن تقديم أجوبة أكثر عبثيةً وخبثاً.

في الحقيقة، يُسمّى هذا النوع من الضرب بالسبابة هكذا نسبةً للطريقة التي كانوا يضربون فيها ورق البرديّ حين عثروا عليه في مصر أوائل القرن التاسع عشر، وذلك للتأكّد من متانته والبدء في تحديد قِدَمِه.

ولمّا لم أتلقَّ أية ردّة فعل عنيفة من أحدٍ، كما أنّه لم يخطر في بال أحدٍ الردّ بأن ضربة papirotazo واحدة كانت كافية لتحوّل أيّ ورق برديّ ملكي إلى نثارٍ، ولمّا كان الطلاب يدوّنون الملاحظات، والزميل الإنكليزي – الذي أدهشته من دون شك الرنّة الفظّة للكلمة وربما أثملته الرؤية الفجائيّة لمصريٍّ نابوليوني – يؤيّد شرحي («هل سمعتم ماذا يقول؟ papirotazo قادمة من مفردة pa-pi-ro، pa-pi-ro-ta-zo»)، رأيتُ نفسي مندفعاً لأسير في عمليّة التزوير هذه ولأكمِلها بملاحظة علميّة:

– إنها بالتالي مفردة حديثة جداً، تماهت مع المفردة الأكثر قِدَماً

capirotazo، وهكذا تُسمّى تلك النقفة المؤلمة والجارحة – وهنا آخذ استراحة قصيرة لكي أرسم المفردة بنقفةٍ في الهواء – كونها حركة تقليدية استُعمِلت مع أولئك التائبين ذوي الرؤوس المغطاة، خلال زيّاحات الجمعة العظيمة، بغية إذلالهم، إذ كانوا ينقفونهم برأس قلنسواتهم.

وكان زميلي في تأييدٍ دائمٍ لي (« هل سمعتم ماذا يقول؟ -ca-pi ro-te ca-pi-ro-ta-zo»). فاللذة التي كان بعض الأساتذة الإنكليز يلفظون بها مفردات خرقاء في الإسبانية لطالما أثّرت فيّ، أما المفردات التي تنال إعجابهم أكثر من سواها، فكانت تلك ذات الأربعة مقاطع لفظية أو أكثر. أتذكّر كيف كان الـ«ماتاريفيه» ينسى الحفاظ على وقاره لشدّة فرحه بهذه الألفاظ، وإذ يرفع ساقه – الساق الشديدة البياض والمكشوفة بسبب جواربه القصيرة وحذائه الضخم والبشع – كان يسندها باسترخاء وبكل أناقة إلى إحدى طاولات الطلاب الفارغة، ويؤرجحها على إيقاع المقاطع اللفظية التي يردّدها بمرح («ve-ri-cue-to، ve-ri-cue-to، mo-fle-tu-do، mo-fle-tu-do»).

في الحقيقة، كان عليّ أن أفترض لاحقاً، أن تصفيق زملائي لإيتيمولوجياتي الخيالية كان نتيجة تهذيبهم الفائق وحسّهم بالتضامن وبالمرح معاً. في أوكسفورد لا أحد يقول شيئاً صراحةً، على الإطلاق (فالصراحة تُعتبر غلطة لا تُغتفر، بل الغلطة الأكثر فظاعة)، لم افهم ذلك إلاّ عندما جئت لأودّع «ديوار» Dewar الـ«إنكيسيدور» Inquisidor عند إنتهاء خدمتي، بعد اقامةٍ دامت سنتين هناك، فقال لي ممّا قاله من تبجيل:

– سوف اشتاق إلى معلوماتك الإيتيمولوجية العجيبة والرائعة.
كانت دائماً تدهشني وتذهلني. لا زلت أتذكر افتتاني عندما شرَحتَ أن كلمة papirotazo قادمة من papo، وهذا للدَّلالة على ضربة نسدّدها إلى ذقن الخصم السمينة: بقيتُ فاغر الثغر. توقف لحظة ليراقب تشوّشي بتلذّذ. تنحنح بعض الشيء وأضاف: الإيتيمولوجيا علم شيّق، وهو أمر مؤسف أن ينسى الطلاب، وهم شبّان يعجزون عن التمييز والتقييم، خمساً وتسعين في المئة من الروائع التي يسمعونها منّا، وألا تبهرهم لياقتنا الثمينة سوى بضع دقائق، حتى نهاية الصف كحدّ أقصى. لكن سوف أتذكّر: pa-pa-da، pa-pi-ro-ta-zo – وطوى ساقه قليلاً – مَن كان سيتصوّر ذلك. رائع.
أعتقد أن وجنتيَّ احمرّتا كثيراً، وما إن استطعتُ، هرعتُ إلى المكتبة لأستشيرَ القاموس ولأكتشفَ بالفعل أن مفردة papirotazo الشهيرة تأتي من papo، الذقن حيث كانوا سابقاً يتلقّون الضربة المخزية. شعرتُ بأني غشّاش أكثر من أي وقتٍ مضى، لكن رأيتُ أيضاً ضميري مرتاحاً بعض الشيء، إذ اعتبرتُ أن إيتيمولوجياتي المجنونة لم تكن أكثر خرقاً وعبثيةً من الإيتيمولوجيات الحقيقية. على الأقل، هذه الأخيرة كانت تبدو لي في المستوى عينه من الغرابة تلك التي كنت أرتجلها. وفي أي حال، كما أشار الـ«دستريبادور»، هذا النوع من المعرفة التزيينية يدوم دقائق قليلة، سواءٌ كانت المعرفة مزيّفة أم أصيلة، أم نصف حقيقية. أحياناً تكون المعرفة الحقيقية غير مهمّة ، وعندئذٍ يمكننا اختراعها.

كوني مشيتُ كثيراً في مدينة أوكسفورد، أعرف تقريباً أركانها كلّها،كذلك بتُّ أعرف تُخومها ذات الأسماء التي يجب التشديد، عند لفظها، على مقطعها ما قبل-الأخير: Headington، Kidlington، Wolvercote، Abingdon) Littlemore، Cuddesdon، هذان المكانان يبعدان أكثر من غيرهما). كما أنّي توصّلتُ إلى التعرف إلى كل وجوهها تقريباً منذ سنتين أو ثلاث سنوات، مهما صَعُبَ احتمال لقائها مجدَّداً. كنت أمشي معظم الاوقات من دون هدف معيّنٍ ومن دون اتجاهٍ محدَّدٍ، مع أنّي أتذكّر جيداً أنّي مشيتُ، وذلك خلال حوالي عشرة أيام من فترتي الدراسية الثانية هناك (والتي تُسمَّى «هيلاري» وتشمل ثمانية أسابيع ما بين كانون الثاني وآذار) بهدف غير لائق كثيراً بإنسانٍ ناضج، وحينها لم أعترف حتى لنفسي بذلك. حدث هذا قبل أن أتعرّف إلى «كلير» و«إدوارد بايز» وبقليل، في الواقع أنّ الانقطاع أو التخلّي عن الهدف (بلى، كان هذا تخلّياً) حصل من دون شكٍّ بسبب هذا اللقاء بـ«كلير بايز» وزوجها، وليس لأنّه تمّ تحقيقه في مساءٍ عاصفٍ بالرياح في «برود ستريت» Broad Street وفي التاريخ عينه.

قبل تعرّفي إلى «كلير» و«إدوارد بايز» بعشرة أيامٍ تقريباً وبالتالي قبل لقاءاتي العديدة بهما، كنتُ عائداً من لندن - كان يوم جمعة - في القطار الليلي الأخير الذي يقلع من محطة «بادينغتون» حوالي

الساعة الثانية عشرة. اعتدت أن أركب هذا القطار كل يوم جمعة أو سبت لدى عودتي من العاصمة حيث لا مبيت لي إلاّ إذا قرّرت الذهاب إلى فندقٍ، ما لم يكن في وسْعي القيام به إلاّ من وقتٍ ألى آخر. في معظم الأحيان، كنت أوثِرُ العودة إلى بيتي، وإن اقتضى الأمر السفر مجدداً إلى لندن في صباح اليوم التالي – أقلّ بقليل من ساعة في القطار السريع – في حال اضطررت للذهاب إلى هناك من أجل أحدٍ ما أو بغية إتمام عملٍ ما. مع ذلك، كان القطار الأخير من لندن إلى أوكسفورد يتوقّف في أكثر من محطّة. كنت أعوض عن الإزعاج الذي يفترضه ركوبي هذا القطار بالبقاء ساعة إضافيّة برفقة «غييرمو» Guillermo و«ميريام» Miriam، وهما زوجان صديقان لي، يعيشان في «ساوث كنسينغتون»، وكنت أتمتّع بحديثهما وضيافتهما كمرحلة نهائية بعد أوقات التسكّع اللندنية. كان قطار منتصف الليل الأخير هذا يجبرنا على تغييره في منطقة ديدكوت التي لم أرَ يوماً منها سوى محطتها المغمّة، إذ كنتُ دائماً أجد نفسي فيها مساءً. في بعض المرّات، عندما لم يكن القطار الثاني موجوداً على سكّته بعد، أي القطار الذي ينقلنا من هناك إلى أوكسفورد في بطء غير منطقي، كنا نصل نحن الركّاب الستة أو السبعة الآتين من لندن لنربط بين محطّتين (كان على الـ«بريتيش رايل» British Rail أن تحسب أن ركاب هذا القطار هم من نوع محبّي السهر وأنّه باستطاعتهم التأخّر في النوم)، فكان علينا الانتظار في تلك المحطة الصامتة والفارغة التي كانت تبدو، بقدر ما استطعنا من تمييزه في شكلها وحدودها في الظلام، كأنها منفصلة عن المدينة التي تنتمي اليها، وهي وسط الحقول التي

تحاوطها من كل الجهات، وكأننا في توقّف خاطئ وعَرَضي للقطار.

في إنكلترا، الناس الذين لا يعرفون بعضهم بعضاً عادةً لا يتكلّمون بعضهم مع البعض، لا في القطارات ولا حتى أثناء الانتظارات الطويلة، وصمتُ محطّة ديدكوت الليلي هو أطول صمت عرفته. بل يبدو أكثر عمقاً وامتداداً عندما تكسره أصوات أو ضجّة منفردة، متفرقة وغير متواصلة، كصريرِ حافلةٍ تتحرّك فجأة، بضعة أمتار من مكانها، ثم تتوقف فيبدو هذا لنا غريباً، او كصرخةِ شابٍ غامضة أيقظه البرد من قيلولته الوجيزة موفراً عليه مناماً سيئاً، أو أيضاً كضربةٍ جافة وبعيدة لِعُلَبٍ قرّرت أيدٍ لامرئية، ومن دون أي هدف وجيه، أن تنقلها من مكانها عندما لا يعود هناك ضرورة لذلك وعندما يمكن إرجاء كل شيء، أو كالصوت المعدني لعلبة جعةٍ مكسورة ومرميّة في سلّة المهملات، أو كالطيران المتواضع لورقةٍ ضائعة قُطعت من جريدةٍ، أو كخطواتي التي تلهيني عن الانتظار وهي تقترب من دون جدوى من حافة الـ«بلاتفورم» Plateforme وهكذا تُسمّى أرصفة المحطات في إنكلترا. كانت بعض الأنوار القليلة التي تبعد بعضها عن البعض عشرة أمتار لتجنّب التبذير، تضيء بخجلٍ هذه الأرصفة التي لم تُكَنَّس بعد، فتشبه أرضيةً ما بعدَ حفلةٍ سوقية وفقيرة. (لن تُكنسها قَبْل الصباح نساءٌ يحلمن الآن بديدكوت المهملة.) فقلّما نميّز بعض أجزاء الحجارة والسكة التي أنارتها الأضواء بسرعة غمز الجفون، كما أنارت وجهي الظاهر من معطفٍ كحليٍّ كنت قد رفعتُ ياقته، وحذاء وكاحليّ امرأة غارقة في الظلّ. رأيتُ فقط كسمها في المعطف، وهي جالسة، وجمرةَ السجائر التي

أخذت تدخّنها على غراري، أثناء الانتظار الذي طال تلك الليلة، أكثر من العادة. كان الحذاء يترك إيقاعاً خفيفاً على البلاط، وكأن التي تنتعله تحمل في أذنيها الموسيقى ذات الرنين الذي قد تكون رقصت عليه طوال سهرتها، حذاءُ مراهقين أو حذاء راقصة ساذجة ذو بكلة وكعب منخفض جداً، ودائريّ الشكل عند الأصابع. حذاء إنكليزي، بلا شك، وبقيتُ أنظر إلى يميني بلا حراك، ما جعلني أتحمّل بليونة أكبر الوقت الجامد في هذه المحطة. كانت سجائرنا تلتقي معاً على الأرض، وقد أضحت أعقاباً؛ كنت أقذف أعقاب سجائري بنقفة عفوية باتجاه حافة الرصيف، بينما أعقابها هي لم تكن تنزلق دائماً، جرّاء نقفتها، في الاتجاه عينه، وهي تنقفها بحركة من ذراعها تشبه حركة من يرمي كرة من دون قوّة. وعند قيامها بهذه الحركة، كانت يدها تدخل في حزمةِ الضوء، فأستطيع أن أرى سواراً خلال لحظات وجيزة. رحت أنهض من وقت لآخر، من ناحية أولى لكي أتفحّص عتمة السكك عن بُعدٍ، ومن ناحية أخرى لكي أحاول أن أرى أكثر من المرأة التي كانت تدخّن وتتحرّك بحسَب إيقاعٍ غريب – ساقاها متشابكتان أو غير متشابكتين، مناوبةً – وقَدَماها تلمعان في الضوء. كنت أخطو خطوتين أو ثلاثاً أمامها ثم أعود إلى مكاني، إنما لم أكن أتمكن إلّا من رؤية حذائها الإنكليزي من الأمام وكاحلَيها اللذين صقلهما حتى الكمال ذلك النور الخفيف. إلاّ أنها في النهاية (وكنتُ في أقصى وحدتي بضع دقائق قبل أن يبين القطار المتأخر والمضجر والمتعب)، وقفت هي ومشت بهدوءٍ على الرصيف في الوقت الذي صدح في كلّ الأرجاء الصوت المضطرب لعاملٍ هندي

في سكّة الحديد وهو ذو لكنة غريبة تجعل الأجانب لا يفهمون إنما يتكهّنون ويستنتجون فقط ما يقوله؛ كان يعلن دخول القطار ديدكوت وباقي محطاته: بانبوري، ليمنغتون، وارويك، برمنغهام (أم كانت سويندون، تشيبنهام، باث، وبريستول؟ لا أريد التطلع إلى الخارطة؛ ربّما أحفظ في ذاكرتي السلسلتين ممزوجتين). ثم ظلّت واقفةً وتترقب، وفي يدها كيسٌ صغير تؤرجحه. أما أنا ففتحتُ لها باب القطار.

نسيتُ تماماً وجهها رغم أنّني لم أنسَ ألوانها (أصفر، كحلي، زهري، أبيض، أحمر)، لكنني أعرف أنّها المرأة التي أثّرت فيّ بعمق أكثر من غيرها طوال شبابي، ومن النظرة الأولى، ولو أنه لا يفوتني أن هذا التعليق لا يستطيع أن يرافق، وذلك بحسَب تقاليد الأدب والواقع، سوى أولئك النساء اللواتي يعجز الشباب عن التعرف إليهنّ. كذلك لا أتذكّر كيف وجّهتُ إليها الكلام، ولا عمّا تكلّمنا خلال نصف الساعة الضئيلة التي تستغرقها المسافة بين ديدكوت وأوكسفورد وما يتخلّلهما من محطات. حتى ربّما لم نبدأ حديثاً، إنّما تبادلنا ثلاث جملٍ أو أربعاً متفرّقة فحسب. في المقابل أتذكر أنّها كانت صغيرة السنّ، إلى درجة الاعتقاد أنها لا تزال تلميذة مدرسة، كما أنّها كانت غير أنيقة، وكانت ياقة المعطف مشقوقة كفايةً، ما سمح لي بتأمّل عقدها اللؤلؤي (لا أستطيع أن أجزم ما إذا كان مزيّفاً أم أصلياً) والذي، وبحسب الموضة الرائجة منذ بضع سنوات، كان على الشابات الأنكليزيات الأكثر اعتناء بذاتهنّ أن يتقلدْنه ولو أهملن بقية التفاصيل في ثيابهنّ، كالخروج بلباس غير مألوف، أو مبدئياً غير

متناسق (كانت مرتّبة وليس أنيقة). كما أذكر أن تلك المرأة كانت تبدو لي من خلال شعرها القصير وملامحها التي نسيتُها اليوم، وكأنها منبثقة من الثلاثينيات. ربّما كان «ويل» البوّاب يرى كل النساء على هذا الشكل في الأيام التي كان يتقمّص فيها عقد الثلاثينيات من ماضيه. ما تحدّثنا فيه، في أيّ حال، لم يكن حميماً بما يكفي لكي أتمكن من معرفة أيّ شيء عنها. قد تكون أغمضت عينيها الفاتحتين بسبب التعب وأنا لم أجرؤ على منعها من ذلك. ربما كانت رغبتي في التأمّل، في نصف الساعة تلك من السفر المتأخّر، أقوى بكثير من فضولي ومن قدرتي على الحسابات، أو قد نكون تحدّثنا فقط عن ديدكوت وعن محطّتها المظلمة والباردة التي تركناها وراءنا، والتي علينا نحن الاثنين أن نعود اليها باستمرار. نزلتْ هي في أوكسفورد، لكنّني لم أعرف كيف أحضّر الأجواء: لم أقترح عليها حتى أن آخذها معي في التاكسي الذي استأجرته.

منذ ذلك المساء، وخلال عشرة أيام، مشيتُ عبر مدينة أوكسفورد بهدف لقائها من مجدَّداً أو على أملٍ لا واعٍ في لقائها، الأمر الذي لم يكن إلى هذا الحدّ بعيد الاحتمال في حال لم تنزل هناك من أجل زيارة، إنما لأنها تسكن في المدينة. كنت أجوب الشوارع أكثر من المعتاد، وكل يوم يمضي، كان وجهها يزداد تبدّداً أو كان يتماهى مع الوجوه الأخرى، كما يحدث عادةً مع الأشياء التي نريد تذكّرها، ونتشبّث بالتذكّر، وكما يحدث أيضاً مع كل تلك الصور التي لا تبدي الذاكرة احتراماً إزاءها (أعني أنها ذاكرة هامدة). فلا عجب ألّا أرى اليوم ايّاً من ملامحها – إنّها لوحة غير مكتملة،

بأشكال مرسومة لكن غير ملوّنة، والألوان اختيرت لكنّها لا تزال بقعة غير واضحة المعالم – مع أنّي رأيتها يقيناً مرّة ثانية وأعتقد كذلك ثالثةً وربما أيضاً رابعةً. لكن تلك المرّة التي كانت المرّة الأكيدة – بعد عشرة أيام – حصل اللقاء بسرعة كبيرة في يوم عاصف بالرياح. كنتُ يومها خارجاً من مكتبة «بلاكويلز» Blackwells أبكر من المعتاد لكي أصل في الموعد المفترض إلى أحد صفوفي في الترجمة مع الصارم «ديوار». أسرعتُ خطاي وأنا أنظر أمامي وأشقّ طريقي في الرياح القويّة، وقد أفلتت الأخيرة عنانها بينما كنت أشفي غليل فضولي في «بلاكويلز». مشيت بضع خطوات، وعند مقربةٍ من «ترينيتي كولدج» Trinity College، التقيت شكلين أنثويين، امرأتين كانتا أيضاً على عجلة من أمرهما، وكانتا حانيتي الرأس لتجنّب الرياح. وبعد أن قمت بأربع خطوات أو بخمس إضافية (وبعد أن أدرت ظهري لها) انتبهتُ إليها واستدرتُ نحوها. أكثر ما فاجأني هو أنها هي أيضاً وصديقتها توقفتا واستدارتا بعد أن قامتا بأربع خطوات أو خمس إضافية منذ لحظة التقائنا. من هذه المسافة وعلى بعد ثماني خطوات أو عشر، رأينا واحدُنا الآخر بوضوح. ابتسمت وصرخت لتساعدني على التعرّف إليها أكثر ممّا لأنّها عرفتني: «في القطار! في ديدكوت!» تردّدتُ ولم أعرف، مرّة ثانية، ماذا أفعل؛ هل أقترب أم لا، وأثناء تردّدي هذا، شدّتها صديقتها بكمّها وحثّتها على متابعة طريقها. كان الهواء يتلاعب بتنّورتها، وبشعرها القصير. أتذكّر هذا جيداً لأنها وقفت في شارع «برود ستريت» خلال تلك اللحظات الوجيزة جدّاً وقد صرخت «في القطار! في ديدكوت!»، وكانت بيدٍ

ترفع شعرها عن جبينها، وباليد الأخرى تمسك التنورة كي لا يطيرها الهواء. «في القطار! في ديدكوت!»، كرّرتُ وراءها مؤكّداً لها بذلك أني عرفتها (وذيلا معطفي الكحلي الجانبيّان كانا يلامسان ساقيّ)؛ لكن ما لبثت صديقتها البغيضة واللجوجة التي لم أرَ وجهها، أن أخذتها في الاتجاه المعاكس للذي كنت أنوي اتخاذه على الفور صوب «ديوار» و«تايلوريانا». لم أرَها إطلاقاً في ما بعد خلال السنة، ولا في السنة اللاحقة التي في نهايتها غادرتُ أوكسفورد، ولو ليس للعودة النهائية – ليس بَعد – إلى مدريد كما فعلتُ الآن. جلّ ما أندم عليه هو أنّي لم أستطع الانتباه، في تلك المرّة الثانية والأكيدة، إلى حذائها الإنكليزي وإلى كاحلَيها اللذين كانا سيبدوان، من دون شك، هشَّين بسبب الرياح. كنت مفرط الانتباه لطيران تنّورتها المنقطع.

الحذاء الذي كانت تنتعله «كلير بايز» لم يكن يوماً إنكليزياً إنما هو دائماً إيطاليٌّ؛ فلم يكن يوماً لحذائها كعبٌ منخفضٌ ولا بكلةٌ، ولا استدارةٌ عند الأصابع. عندما كانت تأتي إلى بيتي (ولم يحدث هذا مراراً) أو عندما كنّا نمكث معاً في بيتها (وهذا كان أقلّ حدوثاً) أو عندما كنا نلتقي في فندقٍ في «لندن» أو «ريدينغ» أو حتى «برايتون» (مرّة واحدة فحسب في «برايتون»)، أوّل ما كانت تفعله هو التخلّص من حذائها مستخدمةً أعلى قدميها، لتقذف كل فردةٍ منه إلى الحيطان (بركلةٍ من كل قدمٍ على حدة)، وكأنها تملك أحذية متعدِّدة فلا يهمّها إطلاقاً أن تتلفها. فكنتُ أنا ألملمه على الفور وأبعده عن نظرنا: فرؤية حذاءٍ فارغٍ تجعلني أتخيّل الشخص الذي انتعله أو الذي قد ينتعله، كما أن رؤية هذا الشخص قربي – من دون الحذاء – أو ألا أراه إطلاقاً أمر يحزنني كثيراً؛ (لذلك، بالنسبة لي، أن تأمّل واجهة محلّ تقليدي للأحذية يفترض تصوّراً تلقائياً لأعدادٍ هائلة من الأقدام ذات وضعٍ مستقيمٍ وغير مرتاحٍ). اعتادت «كلير بايز» المشي حافية القدمين – ويبدو أنها اكتسبت هذه العادة في طفولتها إذ أقامت بضع سنوات في دلهي والقاهرة – على مختلف الأرضيّات (لكن في إنكلترا كل شيء تقريباً مكسوّ بالسجاد)، ولذلك فالذكرى التي استحوذت على فكري ليست ذكرى ساقين عاضلتين وقويتين، كما كانتا تبدوان في الكعبين العاليَين، إنّما ذكرى ساقين

رشيقتين وتقريباً طفوليّتين في حركتيهما، كما كانتا تبدوان وهي حافية. كانت تدخّن وتتكلّم خلال ساعات وهي مستلقية على فراشي أو فراشها أو على فراش فندقٍ، ولم تكن تنزع تنّورتها، تلك التنورة التي تبقى بطبيعة الحال مرفوعة، كاشفة بذلك عن فخذيها، وعن الجزء الأكثر قتامةً في جواربها الطويلة حتى الخصر، أو كاشفة عن فخذيها العاريين. غالباً ما كانت تحزّ جواربها إذ لم تكن متأنية في تحرّكها، وكانت أحياناً تكتشفها محروقة بسبب جمرة خاطفة من سيجاراتها التي كانت ترفعها بحركة غير مألوفة في إنكلترا (ربما تعلّمتها في البلدان الجنوبية، بلدان طفولتها)، وكذلك بسبب الأساور المختلفة التي تزيّن زنديها ولم تكن تنزعها دائماً (لذا لم يكن مستغرباً أن تفلت آلاف الشرارات). كل شيء فيها كان مسرِفاً ومفرِطاً، كانت شخصاً عصبياً، من أولئك الذين لم يُخلق الوقت لهم، إنّما يشكّل مفهومه كلحظةٍ عابرة بمثابة إهانة، وهم المتعطشون دائماً إلى جزيئاتِ خلودٍ في كل شيء أو لمضامين خالدة ليملأوا بها الوقت فيفيض. غير مرّة، لأجل تخليد ما بدأناه، خاطرْنا أن يرى «إدوارد بايز» بعينيه ما خلّفناه من آثار لأمر كان يعرفه على الأرجح وعمل على تجاهله باستمرار. وقد كنت من يضع حداً لهذيان «كلير بايز» اللانهائي، ولتخليدها مضمون اي وقت، كما لتعليقاتها أو إفراطها المتواصل في الكلام عندما تكون ممدّدة على الفراش، وهي تدخّن وتحرّك يديها وتتبجّح وتشبك ساقيها: فتفتحهما، تطويهما، وتمدح ماضيها وحاضرها أو تنتقدهما، قافزةً من مشروع إلى آخر لمستقبلها القريب، من دون أن تحقق أياً من هذه المشاريع إطلاقاً. فكان عليّ أن

أربط المنبّه أو أن أنظر إلى الساعة فوق الطاولة الصغيرة قرب السرير وأن أقرّر أنه حان وقت افتراقنا، أو أن أنتبه (في أوكسفورد) إلى أجراس أوكسفورد المتشبّثة التي تنبّه إلى الوقت كل ساعة ونصف ساعة وربعها، والتي كذلك تصلصل بسماجة عند حلول المساء؛ كذلك كان عليّ أن أحثّها على الاستعجال، وأن أفتّش عن حذائها الذي خبّأته بعد وصولها، وأن أملّس تنورتها وأعيدها مستقيمة على خصرها، وأتوسّل إليها ألاّ تنسى شمسيّتها وبكلتها المشكوكة في السجادة ومحبسها المنسيّ فوق المغسلة، والكيس المليء بما تسوّقته من أشياء غريبة والذي كانت دائماً تجلبه معها، أينما التقينا، وحتّى لو كان يوم الأحد (وفي بيتها كان عليّ أن أرمي أعقاب السجائر وأن أساعدها على تغيير شراشفها وفتح النافذة وغسل كوبي). كانت «كلير بايز» تأتي حاملة دائماً عدة أشياء، فتبعثرها حيثما حلّت وكأنها ستبقى هناك كل حياتها، علماً بأننا لم نكن نملك حتى ساعة كاملة أحياناً، إذ كنا نلتقي بين ساعة تدريس لي وساعة تدريسٍ لها. (في النهاية بقيتْ معي حلقات أذنيها التي لم تنجح يوماً في إخراجها من بيتي). لحسن الحظ – ومن باب التهذيب – كانت تعجز عن الخروج إلى الشارع من دون تبرّج، ولم تستطع ملامساتي المتواصلة ولا الوسادة أن تحدث خراباً كبيراً في شعرها الطويل الذي كانت تعطيه شكلاً فوضوياً مصطنعاً. لم يكن عليّ أن أمشّط شعرها قبل افتراقنا، إنّما كان عليّ مراقبة هذا الخلود الخاص والمستقر فيها أثناء وجودها برفقتي والتأكّد من أنّه تبدّد عن وجهها، كما التأكّد من أنّ هذا الأخير لم يعد متوهّجاً وأن عينيها لم تعودا شاردتين. أن أرى وأتأكّد

أنّ المضمون قد تبدّد (المسافات في أوكسفورد قصيرة جداً فلا تمنح الوقت الكافي لتغيير تعابير الوجه). ولذلك كان يكفي أن أمارس معها، وبسرعة، التمرين الفكري الذي تحفزه الخيانة الزوجية: مساعدتها على ابتكار قصصٍ مقنعة لـ«إدوارد بايز»، وعلى الانتباه إلى عدم الوقوع في تناقضات عند سردها، على الرغم من أنّها كانت ترى أن تمريناً كهذا غير نافع ومضجر (كان هذا تعبيرها المتجهّم والدائم عند وداعها بسبب إصراري). كانت مهمِلة وخفيفة ومرحة وكثيرة النسيان، ولو كنتُ أنا «إدوارد بايز» - هكذا كنت أفكّر حينها - لَما كلّفني جهداً كبيراً التحقيق في كل تفكير من تفكيرها وفي كل خطوة تقوم بها لفضحها. لكنّني لم أكن «إدوارد بايز»، وإلّا لبدت لي نشاطات «كلير بايز» ونيّاتها منيعة تماماً. ربما لَما كنتُ رغبتُ في التعرّف إليها، أو لَكنت اكتفيتُ بتخيُّلها. في أي حال أنا مَن كان عليه أن أعيد ترتيب كل شيء كان قد خرّبه مرورها النزق، وأن أخرجها بطريقة فظّة من بيتي الهرميّ الشكل (كل طبقة فيه أضْيق من الأخرى) أو من الفندق الذي نكون قد نزلنا فيه، أو أن أتخلّص من طريقتها اللزجة في التعبير عن عواطفها في اللحظة الأخيرة (حزن الوقت الذي ينتهي) وأن أُبطل تهوّرها ونحن في بيتها، عندما أكون تجرّأتُ ودخلته خلال غياب «إدوارد بايز». (الخيانة تتطلّب جهداً كبيراً.)

كانت «كلير بايز» بالكّد تعرف المبادئ، ومن يعرفها لم يكن يستطيع مطالبتها بها، إذ كانت فتنتها تكمن إلى حدٍ ما في قلة اعتبارها للآخرين ولذاتها. كانت «كلير بايز» تضحكني باستمرار،

وهذا ما أقدّره، لكن أعرف أني لم أشعر يوماً تجاهها – ولا هي، كما أظن، تجاهي – بالضعف الكافي لكي أخاطر بأي شيء (صحيح أني لم أكن «إدوارد بايز»، لكن أيضاً لم أجازف يوماً في الحلول مكانه). بدا لي دائماً غايةً في سذاجة التفكير بأن شخصاً ما – لأنه يحبّنا، ولأنه بمفرده قرّر أن يحبّنا بشكل عابرٍ ثم أعلنه لنا – لن يتصرّف معنا بطريقة مختلفة عن تلك التي نراه يتصرّف بها مع الآخرين. أي كأنه لا يتحتّم علينا أن نصبح الآخرين فوراً بعد أن يتّخذ قراره وبعد أن يعلنه لنا، وكأننا لم نكن في الواقع دائماً الآخرين وذاتنا في الوقت نفسه. أقلّ ما تمنّيته – بخاصة خلال الأيام الهشّة التي عشتها في سأوكسفورد» مع هويّة مغبّشة – هو أن أرى «كلير بايز» تعاملني كما عاملتْ «إدوارد بايز»، أو والدها، أو «كرومر–بلايك» بعينه، ذلك المتهكّم الذي كان في آنٍ أباً وابناً معها، بينما كان والدها أباً فحسب وزوجها زوجاً فحسب. أعتقد أني كنت أخاً للغاية إذ هكذا اعتدتُ أن أكون مع النساء اللواتي عرفتهن جيّداً، وذلك لأنه لم يكن لي أخوات، فأفتقدهنّ دائماً. من المؤكّد أن «كلير بايز» شخصاً اعتدتُ أن أراه على فترات متباعدة، لكني لاحظتُ عن قرب، ولو أني لا أرغب في اغتيابها أو – لنقل – في أن أقول أشياء قد تبدو سلبية في نظر من سيَعْلَمها منّي، أني وضعتُ نفسي مرّات غير قليلة مكان الآخرين – مكان والدها و«إدوارد بايز» و«كرومر–بلايك» المتهكّم – لكي أدرك أنها فعلاً تفتقر إلى المراعاة. كنت وبشكل خاص أضع نفسي مكان «بايز»، وأتذكر الخامس من تشرين الثاني، أي تسعة أشهر بعد أن تعارفنا؛ أتذكّر التاريخ إذ ذلك اليوم هو يوم «غي

فوكس» Guy Fawkes في إنكلترا، ومن نافذة مكتب «كلير بايز» في «أُوْل سولز» All Souls، في «كاتّي ستريت» Catte Street قبالة مكتبة «بودليانا» و«رادكليفيه كاميرا» Radcliffe Camera، كنت أرى الأطفال الإنكليز يطلبون النقود للدمية التي يصنعونها في ذلك اليوم من الأقمشة والحبال والثياب الرثّة، والتي تمثّل المتآمر المشنوق «غي فوكس»، والتي يرمونها ليلاً في المحرقة: أتذكّر هذا جيداً لفرط ما مزجت «كلير بايز» بيني وبين زوجها، لفرط ما توصّلتُ إلى وضعِ نفسي مكانه (في المكان المنسوب له، والذي ربما لم يشغله يوماً).

كنّا قد تواعدنا هناك نحن الأربعة، «بايز»، «كرومر-بلايك»، أنا وهي لنتناول الغداء، وكنتُ أوّل مَن وصل إلى «كاتّي ستريت»، عمداً، قبل عشرين دقيقة من الموعد. في الليلة التي سبقت، كنت و«كلير بايز» في فندق في «ريدينغ» حتى وقت متأخر جداً بحيث أننا، وخلافاً لعادتنا عندما ننتقل إلى مدينة مجاورة، عدنا معاً في القطار نفسه (فقط عندما كان «إدوارد بايز» غائباً كنّا نأخذ سيارة «كلير» وعندما لم يكن غائباً كنا دائماً نسافر في قطارات مختلفة، ذهاباً وإياباً، إلى لندن أو إلى ريدينغ)، بحيث وصلنا معاً إلى محطة أوكسفورد ومشينا معاً تحت قمر لبابي ومتحرّك، وكانت الرياح في وجهنا، إلى أن افترقنا عند زاويةٍ غير قريبة من منزلَينا. كما أننا خلال هذه الرحلة في القطار، جلسنا واحدُنا قرب الاخر؛ تصرّفنا هكذا كوننا أصدقاء في نظر العالم، ولكان عكسُ هذا التصرف بدا غريباً في حال رآنا أحد. ورآنا عضوٌ في القسم الروسي يُدعى «روك». كان ناعساً ومرتخياً في جلسته، وكأنه الراكب الوحيد في قاطرة الدرجة الأولى

حيث كنا دخلنا لاعتقادنا أنها فارغة، إذ هكذا بدت من على الرصيف. رآنا ورأيناه وكنّا قد تقدّمنا في الممرّ ترافقنا ضحكات مشبوهة، أو كثيرة الصراحة بالنسبة إلى عادات إنكلترا، أما هو، وبانحناءٍ من رأسه الغارق بين كتفيه، فقال أولاً «سيدة بايز» متوجهاً إلى «كلير» ثم، ولأنه من دون شك لم يكن يعرف أن يلفظ اسمي، أو لأنّه كان يصعب عليه حفظه، فقال «مساء الخير» ليس إلاّ، متوجّهاً إليّ. تابعنا تقدمنا وصولاً إلى المقعد الأكثر بُعداً عن مقعد «روك»، لكننا لم نعد نجرؤ على التحدّث في ما بيننا سوى عِبر جُملٍ قصيرة وحيادية وبصوتٍ منخفض جداً. في ما بعد، وبينما كنّا نمشي (أوّل مرّة معاً وبمفردنا) في شوارع أوكسفورد تحت القمر اللبابي والمتحرّك، والرياح في وجهنا، سمعنا وراءنا وعلى مسافةٍ قصيرة منا، وقع خطواته الشبيه بوقع خطواتنا، أو هكذا اعتقدنا – اعتقدنا أنها خطواته، بينما كان هذا صدى خطواتنا – لم نستدر إلى الوراء كما أنّنا لم نتبادل الكلام إلى أن ودّعنا واحدنا الثاني، وكل ما قلناه عندئذٍ هو «إلى اللقاء»، من دون أن نتوقّف أو أن نتبادل النظرات (حزن الأشياء السريّة). ثم لم أسمع سوى خطوات «كلير بايز» المستعجلة، خلال لحظةٍ، بينما كانت تبتعد؛ أمّا هي فعلى الأرجح لم تسمع خطواتي المنهكة.

«روك» هذا كان مشهوراً فقد عمِل اثنتي عشرة سنة على ترجمة جديدة لـ«أنّا كارينينا» Anna Karenina ولأنّه كان يعرف «نابوكوف» وعاشره خلال فصلٍ دراسي أمضاه في أميركا. كانت ترجمته – بالمناسبة لم يرَ أحدٌ سطراً واحداً منها بعد، ولا حتى الناشر

– ستكون مقدّسة وفريدة في نوعها، بدءاً بالتغيير الجذري الذي طرأ على العنوان، إذ الأصح والأنسب، بحسب «روك» وبحسب «نابوكوف» – الذي كان يذكره دائماً تحت إسم «فلاديمير فلاديميروفتش» ليُفهمنا بوضوحٍ كم هو متقرّب منه وكم هي مألوفة له التسميات أو الألقاب الروسية –، هو «كارينين» وليس «كارنينا»، لأنّ «أنا» لم تكن راقصة ولا مطربة ولا ممثلة، وهنّ النساء الوحيدات، ومهما كنّ روسيّات أصيلات، اللواتي يمكن تأنيث اسم عائلتهنّ في أي نصٍّ كان، سواء في الإنكليزية أو في أية لغة غربية أخرى. كنا قد التقينا مصادفة، غير مرّة، أنا وإياه، في الـ«سينيور كومون روم» Senior Common Room، أو ما يُعرف بصالة أساتذة الـ«تايلوريانا»، بينما كنّا نتسكّع ونتكاسل على الرغم من تظاهرنا بوضع اللمسات الأخيرة على تحضير صفوفنا حول فناجين قهوة رديئة ونحن نرمي النظرات الخاطفة والكارهة على محتوى محفظاتنا الرصين. كان «روك» رجلاً ذا رأس كبير وجسمٍ دقيق، في تعبيرٍ آخر كان رجلاً عنيداً. كان دائم التأهّب للكلام عن «نابوكوف» أو مستعداً لأن يشرح لي «ليرمونتوف» Lermontov أو «غوغول» Gogol، بينما كانت حياته الشخصية مجهولة بالنسبة لبقية أعضاء الأخوية. فلهذا السبب تحديداً كان يمكننا أن ننسب إليه أيّة عادة أو صفة، وكان معروفاً حبّه الكبير للنميمة. أن يكون للمرء هذا الصيت في أوكسفورد لا يعني في الحقيقة شيئاً، إذ الأمر الخارق هو ألّا يكون له هذا الصيت: فمَن لا يغتاب أو على الأقل من ليس سيئاً، يعيش هناك حياةً شديدة الهامشية وعديمة النفوذ والمصداقيّة، وكأنّه

قادم من جامعة أخرى غير «جامعة كامبردج»، أو ببساطة، من غير «جامعة أوكسفورد». وشخص كهذا لا يستطيع بالتالي أن يتأقلم إطلاقاً، إذ سيظلّ دائماً مرفوضاً. الشيء الوحيد الذي يثير حقاً الاهتمام في مدينة أوكسفورد هو المال، وتليه إلى حدٍّ ما المعلومات التي تستطيع أن تكون وسيلة للحصول على المال. ولا يهمّ إن كانت المعلومة مهمّة أو سطحية، مفيدة أو تافهة، سياسيّة أو اقتصاديّة، ديبلوماسيّة أو إيبيستيمولوجيّة، بسيكولوجيّة أو جينيالوجيّة، عائليّة أو ذات علاقة بالخدم، تاريخيّة أو جنسيّة، إجتماعيّة أو مهنيّة، أنطروبولوجيّة أو منهجيّة، فينومينولوجيّة، تكنولوجيّة أو بلا مواربة، قضيبيّة؛ فكل هذا لا يهمّ، ومن يودّ أن يستمرّ هناك عليه أن يمتلك معلومة صالحة للنقل والتحويل من أيّ نوعٍ كانت. إنّ نقل معلومة حول شيءٍ ما، هو إيضاً، الطريقة الوحيدة لتجنُّب نقلها عن ذاتنا، وهكذا، كلّما كان الأوكسفوردي غير محبٍّ للآخر، ومستقلاً، ومنعزلاً وغامضاً، فُرض عليه توفير المزيد من المعلومات حول الآخرين لأولئك، الآخرين ذاتهم، وكأنّه بذلك يطلب منهم أن يسامحوه على تكتّمه في ما يتعلّق بحياته الشخصيّة والحميمة وأن يكتسب حقّ عدم البوح بها. فكلّما زادت معلوماتنا حول الآخرين وتكلّمنا عنها، أُعفينا من التحدّث عن أيّ شيء يتعلّق بنا. وبالتالي، أوكسفورد كلّها تكرّس نفسها، باستمرار وبحزم، لأنْ تختبئ وتتقلّص، وفي الوقت عينه لأنْ تتقصّى أكبر عدد ممكن من المعلومات المتعلّقة بالآخرين، ومن هنا يأتي التقليد (حقيقياً) والأسطورة (حقيقيّة) عن النوعيّة الممتازة، وفاعليّة، وبراعة الأسياد، أو أساتذة

«أوكسفورد» و«كامبردج» في المهمّات التجسسيّة الأكثر دناءةً، ومن هنا أيضاً تأتي الحاجة إليهم، الدائمة والتنافسيّة، من قِبل الحكومتين البريطانيّة والسوفياتيّة كعملاء مرموقين، أكانوا عملاء عاديين أم مزدوجين أم ثلاثيّين (الأوكسفورديّون يتميّزون بالسمع المرهف، بينما يشتهر الكانتابريون بخساستهم). لكنّ هذه الحالة تجعل الامتياز المذكور آنفاً، أي امتياز السكوت عن حميميتنا، يقتصر حرفيّاً على هذا، أي على تجنّب الإهانة والخجل من واجب البوح بهذه الحميميّة أو إشاعتها شخصيّاً بسبب الحاجة لدى الجميع لإعطاء معلومات عن الآخرين كي لا يضطرّوا إلى إعطائها عن ذواتهم، هذه المعلومات التي يتجنب كل واحد إعطاءها، تصبح مشتهاة، فيتجسّسون عليها، ويطاردونها، ويحققون فيها، ويجدونها، وصولاً إلى إفشائها للآخرين (وهم كُثُرٌ) لكي يتجنّبوا بدورهم إفشاء ما لديهم عن ذواتهم. بعض العقول الضعيفة (وهي قليلة) تسلّم بخسارة المعركة منذ البداية، فيعترف أولئك بكلّ ما في داخلهم، ثمّ يُلامون على غياب الصمود ورباطة الجأش لديهم. هذا ليس مقبولاً، لِما ينطوي على تصرّفٍ صريحٍ وحرّ وعلى هرطقة في اللعبة، لكنهم يوافقون عليه، لِما يحمل من استسلام غير مشروط وخنوعٍ نذلٍ. في المقابل يتمكن بعض البارعين، على الرّغم من كلّ شيء، من الاحتفاظ سراً بعاداتهم وبعيوبهم وبأذواقهم وبممارساتهم (ربّما من خلال التخلّي الحقيقي وغير العلني عن عادة أو عيب أو لذّة أو ممارسة)، الأمر الذي لا يمنع من أن تُخترع حولهم وأن تُنسب إليهم كل هذه الانتماءات على تنوّعها؛ إنّما التنوّع والتناقض الناتجان من خليط

التقارير الفظّة، يجعلان هذه الأخيرة عديمة المصداقيّة، وأحياناً يكون البارعون (لكن يجب على المرء أن يكون كثير المهارة) هم الرابحين ولا يُعرف عنهم شيء بالتأكيد. كان «روك» بلا شكٍ بارزاً في براعته (كان معلّماً، وكأنه تدرّب تدريباً سوفياتياً): علاوة على تكرّسه المطلق للترجمة الضخمة وعلاقته الماضية مع «فلاديمير فلاديميروفتش» في المستعمرات القديمة، لم نكن نعرف عنه شيئاً (حياته الشخصية كانت ناصعة البياض)، وبالتالي كان معلوماً، في المقابل، أنّ كلّ ما سيعرفه سيكون في المجال العلمي والشعبي حين يتمكن من معرفته.

في الصباح التالي، بعد لقائنا إيّاه وكان في نصف غفوة وغارقاً في مقعده وهو في قطار لندن، وبعد أن تخيّلنا أنّنا كنّا نسمع خطواته وراءنا في شوارع مدينتنا الفارغة والمشرّعة على الرياح، كانت «كلير بايز» تقرأ الجريدة بهدوء عندما وصلتُ إلى مكتبها في «كاتّي ستريت» قبل الموعد بعشرين دقيقة. (فتحت لي الباب وأصبعها محشور بين صفحتين.لم تقبّلني). بدت وكأنّها نامت جيداً بينما أنا بالكدّ فعلت، ما لم يسمح لي إطلاقاً بالبحث عن مقدّمات قبل أن أطرح عليها السؤال الذي طرحته على نفسي مراراً وتكراراً أثناء الليلة التي لم أنمْ فيها («هل قالت لـ«تِيد»، أو لم تقل له، أنّها كانت مساء أمس في ريدينغ؟»).

– طبعاً لا، وهو من ناحيته لم يسألني.

– أنتِ جننتِ. فالوضع هكذا يزداد سوءاً. إذا لم يعلم بالأمر بعد، سوف يُعلِمُه به بعد قليل «روك».

– مباشرة عن طريق «روك»، لا. بالكدّ يعرف واحدهما الآخر.

– هنا كل الناس بالكدّ يعرفون بعضهم بعضاً، لكنّ هذا لا يمنعهم من تبادل الكلام باستمرار ومن نقل أوّل خبر يبادر إلى ذهنهم. قد يكفي أن يكون التقى «روك» مصادفة هذا الصباح «تيد» في أحد الممرّات أو في الشارع. قل لزوجتك، بالمناسبة، أنّي كنت أنوي أن أوصلها من المحطة، ليلة أمس، في التاكسي الذي استقلّيته. لقد سافرنا في القطار ذاته من ريدينغ، لكنها خرجت بسرعة كبيرة، لم تتِح لي الوقت لأعرض عليها هذا. أتصوّر في أي حال أن السيّد الإسباني كان سيرافقها. مهذّب جداً، هذا السيّد الإسباني، تبادلتُ واياه بعض الجمل. هذا يكفي لكي تنهمر عليك سلسلة من الأسئلة التي سيحضّرها لك ولستُ أعرف كيف ستجيبين.

– أية أسئلة؟ «تيد» قليل الأسئلة. ينتظر أن يأتيه الخبر. علينا ألاّ نقلق حول ذلك.

كنتُ أنا دائماً مَن يقلق عليها وعنها. كنت أمثّل دوري وأحياناً دورها أيضاً. والآن أخذتُ بتمثيل الأدوار الثلاثة، أي دوري، ودورها، ودور «إدوارد بايز»، أو الدور الذي لم يكن يقوم به «إدوارد بايز»، على حدّ قولها.

– أية أسئلة؟ ماذا كنتِ تفعلين ليلة أمس في ريدينغ مع صديقنا الإسباني؟ من أين كنت قادمة؟ لِم خرجتما بسرعة كبيرة من المحطة؟ رآكما «روك». لماذا لم تقولي لي أنك ذاهبة الى ريدينغ؟ لماذا لم تقولي لي أنك كنتِ في ريدينغ؟ لقد رآكِ روك. روك. ريدينغ.

– سوف أتدبّر أمري للتخلّص من هذه الورطة.

– تخلّصي الآن. قولي لي كيف ستجيبين عن هذه الأسئلة. إنها أسئلة ملموسة وواقعيّة، بسيطة وزوجيّة.

كالعادة، كانت «كلير بايز» حافية القدمين. جلست وراء مكتبها والجريدة في يدها (السبّابة لا زالت بين الصفحات: تساءلتُ ما الذي تقرأه حتى لا تتركها) وأنا كنت واقفاً، مِرفقَايَ متّكئان على الشبّاك قبالتها. من هناك رأيت بوضوح أصابع قدمَيْها وبانت قاتمة عند الجزء الأكثر قتامة (الطَرَف) لجواربها. ظهرت من تحت الطاولة، على السجاد. شعرتُ برغبة في أن ألمس قدميها القاتمتين، لكن كان يمكن «إدوارد بايز» أو «كرومر–بلايك» أن يصلا في أية لحظةٍ. كانت «كلير بايز» تراني في عكس الضوء، وباليد الأخرى كانت تدخّن. كانت المنفضة بعيدة عنها.

– قد يصل «تيد» في أيّة لحظة – قلتُ – وفي حال التقى «روك» صباحاً، يمكنه أن يطرح علينا نحن الاثنين هذه الأسئلة ما إن يبين عند الباب. من الأفضل أن نفكّر في شيءٍ فوراً، أنا أمضيتُ الليل أبحث عن أجوبة. هل التقيتِنِي في ريدينغ؟ في محطة ريدينغ؟ لماذا عدتِ في ساعة متأخرة جداً؟ ما سبب ذهابك؟ للتبضع، أليس كذلك؟ ماذا يمكننا أن نشتري في ريدينغ؟

– إنك أبله – قالت لي «كلير بايز» –. لحسن الحظ لستَ زوجي. إنك أبله وأشبه برجلِ تحرٍّ، وأبله كهذا لا يمكن أن يتزوّجه أحد. لذلك أنت لن تتزوّج إطلاقاً. الأبله الذي يتصرّف كالتحرّي هو أحمق ذكي، أبلهٌ منطقيٌّ، أسوأ الحمقى، لأن منطق الرجال، بدل أن يعوّض عن سذاجتهم، فهو يضاعفها ويجعلها جارحة. سذاجة «تيد» ليست

جارحة، وهذا ما يسمح لي، بل يجعلني أحب أن أعيش معه. هو اضطلع ببلهه وأنت لم تفعل بعد. أنت أبله إلى درجة أنك تؤمن حتى بإمكانية عدم إصابتك بالبله. بل تقوم بجهود من أجل ذلك. أمّا هو فلا.

– نحن الرجال كلّنا حمقى.

– كلّ الناس حمقى. أنا كذلك.

– بسبّابتها نفضت رماد سيجارتها، لكنّها أخطأت في التصويب ووقع الرماد على السجّاد، قرب قدميها الحافيتين. أنا كنت أنظر إلى القدمين المرغوبتين والقاتمتين، وأنظر إلى الرماد، منتظراً اللحظة التي ستدوسان فيها إياه وستتلطّخان باللون الرمادي. – لو كنتَ أنت «تيد» لَما طرحتَ عليّ هذه الاسئلة إذ تعرف أنه باستطاعتي ان أجيب كما ألا أجيب وأنه على المدى الطويل سوف يكون الأمر سيّان، فالإنسان يبحث عن السلام مع الشخص الذي يعيش معه ما دام شاركه الحياة اليومية. في حال أجبتك، قد أكذب (وقد تضطّر إلى قبول الكذبة كحقيقةٍ) أو قد أقول الحقيقة (وقد لا تكون واثقاً أنك تريد الحقيقة). وفي حال لم أجبك قد تواصل إصرارك وقد أغضب وأتجادل معك وأُعاتبك وأصرّ على عدم الإجابة، أو قد أنظر إليك مرتبكةً فأبقى صامتة خلال ايّامٍ مع إصراري على عدم الاجابة، وذلك حتى تتعب من نظراتي ومن عدم سماعك صوتي. نلوم دائماً بعضنا البعض بسبب ما نقوله، لا ما نفعله، بسبب ما نقوله أو ما نقول أنّنا نفعله، لا بسبب ما يقوله الآخرون وما قد فعلناه. لا نستطيع ان نجبر احداً على الإجابة، ولو كنتَ أنتَ «تيد»، أو لوكنتَ متزوّجاً،

لعرفتَ ذلك جيداً. العالم مليء باللقَطاء المتجاهلين الذين يَرِثون الثروات أو البؤس ممَن لم يأتِ بهم إلى الحياة. ما مِن رجل قد تأكّد يوماً ما إذا كان هو الوالد الحقيقي لأبنائه على الرغم من نقاط التشابه. في العلاقات الزوجية، لا أحد يجيب عمّا لا يريده، ولذلك ينتهي بهم الأمر إلى التخفيف من مساءلة بعضهم البعض. حتى إنّ البعض لا يتحادثون، وهم كثر.

وماذا إذا خطر لـ«تيد» أن يكون اليوم مثلي فيسأل على الرغم من كل شيء؟ ماذا قد تقولين له لو أخضعك للإستجواب ما إن يدخل من هذا الباب؟ ماذا كنتما تفعلان مساء أمس معاً في ريدينغ؟ من أين كنتما قادمين؟ هل تضاجعتما؟ هل أنتما عشيقان؟ هل تنامان معاً؟ منذ متى؟

- إنك أبله، وأجيبه تماماً كما أجبتك.

تركت الجريدة ووقفت، وداست الرماد الذي ظلّت تنثره من دون إنتباه حول قدميها. اقتربتْ منّي، فاستدرتُ ونظرنا معاً بصمتٍ من خلال النافذة: كنّا نرى الشمس والغيوم؛ لامس صدرها ظهري؛ كان الأطفال الإنكليز يطلبون فلوساً لدميتهم المشنوقة على أدراج «رادكليف كاميرا». فتحتُ النافذة وقذفتُ لهم قطعة نقدية معدنية جعلتهم عند رنّتها على حجر الأرضية يديرون رؤوسهم في اتجاهنا؛ لكني كنت قد أغلقتُ المصراعَ. إنّما كان باستطاعتهم، من خلال الزجاج، ان يحزروا أنّنا الفاعلون. لامست «كلير بايز» عنقي بيدها، وحذائي بإحدى قدميها الحافيتين. حسبت أنّها قد تكون تفكّر في إبنها. تلطّخ حذائي باللون الرمادي.

هذا ما كتبه «كرومر–بلايك» مرّة في يومياته، وكان ذلك في الخامس من تشرين الثاني وأنا اليوم أترجم وأنقل:

«أكثر ما يفاجئني هو أن المرض، حتى الآن، لا يمنعني من أن أهتمّ بأمور الآخرين. قرّرت أن أتصرّف كأني على احسن ما يرام وألا أقول شيئاً لأحدٍ إلاّ لـ«ب»، ولـ«ب» فقط في حال حدوث الأسوأ. هذا ليس صعباً حين يأخذ المرء قراره. لكن ما أستغربه، ليس أن أحسن التصرّف بتكتّم وبلياقة، إنّما اهتمامي الدائم بكلّ ما يحيطني. كلّ شيء يثير انتباهي ويؤثّر فيّ. في الواقع لستُ بحاجة للتكتّم، وذلك لعدم قدرتي على الاقتناع بإمكانية إصابتي بذلك. لستُ قادراً أن أعتاد فكرة أنه (وحسب كيفية سير الأمور) سوف ينتهي بي المطاف الى إلموت، وانّه لو حصل ذلك (أشبك إصبعيّ راجياً ألا يحصل) سأتوقّف عن معرفة ما سيحدث للآخرين بعد تلك اللحظة. وسيكون الأمر كما لو أنه انتُزِع فجأةً من يديّ كتابٌ أقرأه بفضولٍ جمٍّ. هذا ما لا أستطيع تصوّره، علماً أن هذا الأمر ليس خطيراً بحدّ ذاته، إنما الأكثر إزعاجاً هو عدم وجود أيّ كتاب آخر بعد ذلك.

لا تزال الحياة كما كانت في القرون الوسطى.

طبعاً، لن يحدث لي شيء بعد ذلك، إذ سيكون قد وقع موتي، وهذا أكثر من كافٍ. إنّي عاجز عن إعتياد الفكرة، ولذلك لا أريد العودة إلى الطبيب ولا أن يراني «داياناند» Dayanand، الذي بعينه

الطبّية المخيفة، يكون قد شكّ في شيء حول حالتي الصحيّة. ولذلك أهتمّ إلى هذا الحدّ الآن بما لن يثير اهتمامي بعد رحيلي؛ فأتساءل ما سيكون مصير «ب» (لا أستطيع أن أتصوّر أني لن أرافق حياته، فالموت لا ينتزع فقط منّا حياتنا، إنما أيضاً حياة الآخرين)، ومصير «ديانـاند» بـالـذات، ومصير «روجير» و«تيـد» و«كـلير» ومصير صديقنا الإسباني. رأيتهما اليوم، وكانا معاً، خارجَين للتوّ من عناقٍ، قرب النافذة، مرحَين اكثر ممّا هُما مغرمَان، لكن كئيبان ايضاً بعض الشيء ، وكأنهما يأسفان لعدم تمكّنهما من أن يتحابّا أكثر. من حسن الحظ أنّي وصلتُ أولاً، وليس «تيد». لست أعرف ما الذي يرميان إليه، أو ماذا تريد «كلير» ولماذا جعلاني صديقهما الحميم والمتواطئ معهما بطريقة أو بأخرى، وكنت أفضّل أن أبقى في الجهل عينه الذي يعيشه «تيد». قبل أيام أتت «كلير» لتراني في مكتبي في فترة ما بين صفّين، وكانت أكثر اضطراباً من العادة وكانت تتكلم بسرعة. لم أعطِها سوى ثلاث دقائق أصبحت في النهاية ستّاً (كان الشاب «بوتوملي» Bottomley قد بدأ يفقد صبره وهو ينتظر وراء الباب وفي وجهه تعابير عجرفة ونقدٍ). قالت أشياء غير واضحة وغير مترابطة لكنها لم تتوقف عن الكلام على «تيد»، وكأنّه محور اهتمامها الوحيد في الدنيا. وبعد ذلك لم تهاتفني لتتابع الحديث وتوسّعه. بل اعتمدت الصمت، ولا شيء سواه. لكن اليوم، وقتَ الغداء، ولدهشتي، شعرتُ فجأة بقَدَمٍ، قدمها، على ربلة ساقي اليمنى تحت الطاولة. قدمُ «كلير» تلامس ربلتي. لحسن الحظ كنّا في «هاليفاكس» Halifax، حيث شراشف الطاولات طويلة. وعلى الفور فهمتُ أنّ ما كانت

تبحث عنه كان الساق اليسرى لصديقنا الإسباني الذي كان جالساً إلى جانبي، فنظرتُ إليها بعينين فاغرتين وبشيء من اللوم، وفي الوقت عينه أمسكتُ قدمها خفيةً وأخذتُها إلى هدفها الحقيقي والمشتهى، الركبة الأجنبية. ثم، طبعاً، تغافلتُ عمّا يجري تحت الطاولة، وسرعان ما أتيتُ بموضوعٍ جديد للحديث عنه مع «تيد»، خوفاً من أن ينتبه لما يحصل في الأعماق. كان هذا غايةً في القسوة وغايةً في المرح معاً، ما يجعلني اشعر بالذنب. إني قلق عليهم جميعاً، على الثلاثة، وأتساءل كيف سينتهي كل هذا. لا يزال أمامنا أشهر، لا زلنا في منتصف الـ«مايكلماس» Michael Mas. لكني لا أستطيع تجنّب رؤية الجهة المضحكة للأمر، على الرغم من صداقتي الطويلة لِـ«تيد»، وعطفي على «كلير» ومن مرضي. وعلى الرغم من كل هذا، أوّل ما أخبرته لـ«ب» هذه الليلة هو سوء تفاهم الأطراف، واعتبرته الحدث الأبرز في ذلك اليوم أو الحدث الذي يستطيع أكثر من سواه أن يلهيه عن خيباته. لا زلت كما كنتُ دائماً، متأرجحاً بين الغضب والضحك اللذين تحفزني عليهما الأشياء، دونَ حلٍّ وسطٍ، وهما أسلوباي اللذان يكمّلان علاقتي بالعالم والمضي فيه. فأغضب أو أضحك، أو افعل الأمرين معاً، فالاثنان في داخلي. لا أتغيّر. كان يُفترض أن يغيّرني المرض وأنّ يجعلني أكثر تعقّلاً ؛ علماً أن المرض لا يغضبني ولا يضحكني. في حال ساء وضعي، وتأكّدتُ من المرض (اشبك اصبعيّ مجدّداً)، سوف أراقب نفسي. إنّي خائف.»

كان «كرومر–بلايك» دليلي، والغيور على مصلحتي في مدينة أوكسفورد، وهو الذي عرّفني على «كلير بايز» بعد وصولي بأربعة أشهر، وبتسعةٍ قبل الخامس من تشرين الثاني ذلك، أثناء إحدى مآدب العشاء الفخمة التي تُعرف هناك باسم «الطاولات العالية» High Tables. تُقام هذه المآدب في صالات الطعام الشاسعة للـColleges المختلفة، وكل كولدج يحتفل بسهرته مرّة في الأسبوع. وإذا كانت تدعى حرفياً «طاولات عالية»، فلأنّ الطاولة التي يجلس حولها المضيفون مع ضيوفهم، تعلو منصّةً وتشرف على سائر الطاولات (تلك التي يأكل عليها الطلاب بسرعة مزعجة ويخرجون مهرولين ما إن ينتهون، تاركين المدعوّين المرفوعين في عزلتهم، متجنّبين بذلك رؤية ما ينتهي إليه أولئك) وليس لأن نوعية المأكولات أو الأحاديث رفيعة جداً. إنّها عشاوات ذات مراسم خاصة (أوكسفورديّة)، ومن واجب أعضاء الاخوية حضورها بثيابهم الخاصة، أثواب الاساتذة. إنّها إذاً ومن حيث المبدأ رسميّة جداً، لكن استمرارها ساعات طويلة يسمح بحدوث انهيار حقيقي في الحركات، والمفردات، وطريقة اللفظ، وفي المظهر، والتعابير، والرزانة، واللباس، والمجاملة والتصرّف العام لأولئك المدعوين الذين غالباً ما لا يتجاوز عددهم العشرين. عند الافتتاح، يكون كل شيء في أبّهة ومنظّماً حتى أدنى التفاصيل. على المدعوين، ونصفهم من أعضاء الكولدج المضيف، والنصف

الآخر من أعضاء كولدجات أخرى، (إضافة أحياناً الى أجنبي يمرّ هنا في زيارة خاطفة) وقد دعا الكولدج المضيف على أمل أن يُدعى أعضاؤه لاحقاً من قِبل أولئك في سائر الكولدجات، (هذا ما يجعل كل «الطاولات العالية» قليلة التنوّع والمدعوين دائماً هم أنفسُهم، سوى أنهم أحياناً يتعشون في هذا الكولدج وأحياناً أخرى في ذلك الكولدج، وبعضهم ينتهي بهم الأمر إلى أن يتعشوا معاً عشر مرّات أو اثنتي عشرة مرّة خلال الفصل الدراسي الواحد، إلى أن يكرهوا بعضهم البعض أو ألّا يتحمّلوا بعضهم البعض)، فعلى المدعوين أن يجتمعوا أولاً في صالة أنيقة ومحاذية حيث يتذوّقون وبسرعة مشروب الـ«شيري» Sherry، ثم عندما يصل الجميع، يبدؤون بالتوافد إلى غرفة الطعام (ولم يدخلوها يوماً في تمام الساعة السابعة كما اشتُرط عليهم)، كل اثنين معاً وبالتتابع (كل مضيف مع ضيفه) وفي الترتيب الهرميّ الصارم للجامعة. وليس بالأمر السهل أن نتذكّر في لحظة وجيزة، الأقدمية والألقاب لعشَرة أشخاص أو اثني عشر شخصاً من المرموقين والمدّعين. إضافة إلى ذلك، وقبل دخولنا، تكون قد وقعت بعض النقاشات أو الخلافات، ثم لكمة من هنا وضربة أو دفشة من هناك، بسبب الأعضاء أو الـfellows الطموحين او لنقُلْ الضعيفي الذاكرة، إذ يحاولون نسف البروتوكول للتسلل عبر الصف الطويل ليكسبوا بعض الهيبة. والطلاب الذين ينتظرون (جائعين) جلوساً في صالة الطعام، يقفون باحترامٍ خبيث عندما يرون أخيراً صف «الأسياد» يمرّ أمامهم، الأسياد المدبّجين بثوب الأساتذة ومرافقيهم الأجانب المبلبَلين واللذين حضروا مصادفة؛ فيضعون

كلّهم أيديهم بخشوع على ظهر المقاعد التي عُيّنت مسبقاً لهم. يترأس الـwarden، اي المدير أو ناظر الجامعة (غالباً ما يكون عضواً – متثائباً – ومتحدراً من أسرة نبيلة) «الطاولة العالية» التي بدورها تترأس سائر الطاولات؛ فبسبب ترؤّسه المُضاعَف هذا، وحتى قبل أن نجلس، يفتتح الحدث بالمظهر الأكثر حساسيةً في رئاسته المزدوجة، أي بسلسلة لا تُغتفر من ضربات المطرقة ومن اللاتينية المائلة إلى الإنكليزية التي تستمر (الأمر الذي يذعرنا نحن ويرعب الأجانب) طوال فترة العشاء. يضع الـ«واردن» بجانبه مطرقة صغيرة (وهي كناية عن قاعدة من الخشب مسنودة إلى الطاولة لتثبيت الهراوة، كالتي لدى القضاة) يستعملها للإعلان عن افتتاح حفل العشاء، وليقرّر أو يعلن تغييراً طارئاً على أنواع النبيذ العديدة وأنواع الأطباق،كما يستعملها للّعب بها، بلامبالاة وتهوّر، عندما يضجره الجوّ (تقريباً دائماً). ما إن ينتهي من تلاوة الصلاة الأولى في لاتينية مائلة إلى الإنكليزية، والصالة جمعاء وقوفاً، وسط صمتٍ يذكّر برائحة المبخرة، يلجأ إلى الهراوة. فهذه الضربة الجافة والأولى وما تسبِّبه من ارتجاجٍ للبلّور الثمين، تفسح المجال لاستئناف ضجة «الأسياد» الشرهين، بل ومَن هم أكثر شراهةً منهم، أي الطلاب الذين يجلسون في أماكنهم، وهم يزعقون ويتنازعون على خدمة النوادل، وينقضّون، بملاعقهم المستنفرة على الحساء أو المرق، وبأيديهم المحمّرة على كؤوس النبيذ الاحمر. من المعروف أنّه على كل ضيف (رفيع الشأن) أن يتكلّم سبع دقائق مع الشخص الذي على يمينه أو على يساره، وذلك حسبما تتشكل أماكن المدعوين منذ

البداية، لكي يكرّس من ثم خمساً للذي يكون الى إلجهة الأخرى، وهكذا دواليك، وضمن تناوب مدروس بدقة، خلال الساعتين اللتين تستغرقهما المرحلة الأولى من «الطاولات العالية». في المقابل، وما هو غير جائز قطعاً، هو توجيه الكلام إلى الشخص الجالس قبالتنا، إلّا إذا كان هذا الضيف أو ذاك ضحية خطأ في التوقيت ارتكبه جيرانه فبقي مؤقتاً من دون مُحاورٍ، وهو موقف محرج جداً في أوكسفورد، لا بل مغيظ. بالتالي، فإن أساتذة أوكسفورد هم ذوو خبرة عالية في شؤون الكلام والأكل والشرب وعدّ الدقائق بطريقة فوريّة، حيث تتمّ الأمور الثلاثة الأولى بسرعة كبيرة، والأمر الرابع بدقة هائلة، إذ ما إن يعطي هذا الـ«واردن» المزاجي أمراً بشكل قرار لاتيني أو بضربةٍ من هراوته، حتى يباشر النوادل وباجتهاد، بسحب الصحون والنبيذ من أمام المدعوين دون أن ينتبهوا ما إذا كانت الكؤوس شبه فارغة، أو فارغة كلياً، أو نصف ممتلئة أو ما إذا لم يُشرب منها بعد. في «الطاولات العالية» الأولى التي حضرتها، بالكّد أكلتُ إذ كنت منشغلاً بعدّ الدقائق التي تمرّ، محاولاً يميناً ويساراً أن أفتح شبه أحاديث لم أستطع المساواة في ما بينها. كان النوادل ينتزعون منّي، الواحد تلو الآخر، صحوني التي بقيت كما هي، كذلك كؤوسي، لكن على عكس الأولى، تلك كانت تُفرغ بسرعة، إذ في يأسي التوقيتيّ والحواري ذلك، الشيء الوحيد الذي كنت أنجح فيه، بين الكلام والحساب، هو الانكباب على الشرب بشبق.

كانت «كلير بايز»، في تلك «الطاولات العالية» الثانية لي، تراقبني من طرف عينها في الجهة الأخرى للطاولة، أي تقريباً قبالتي،

بين المرح والشفقة على حركاتي المحبطة التي أقوم بها عندما أرى صحوناً غدقة تختفي من أمامي ولم يكن لديّ الوقت حتى لأن أتأمّلها، على الرغم من ثمالتي وجوعي اللذين كانا في ازدياد مستمر (أذكر هذا جيداً، الشوكة والسكّين جامدان طوال الوقت في يديّ ومتأهّبان لكل شيء، لكن كلّما كنت على وشك أن أقطع أو أن أغزّ ما أمامي من طعام، أتذكّر أنّه عليّ التطلّع إلى الساعة، أو أنّ الضيف إلى يميني يلهيني فيبدأ بتمتمةِ كلماتٍ غير مفهومة – لعنات وشتائم لا شك – أو بإحداث قرقعة كبيرة أثناء الأكل – إحدى المرّات تهيّأ لي انّي اسمع مضمضةً – لينبّهني بذلك أنه في إنتظاري بفارغ الصبر، وأن دوره مع مُحاورِه الأول قد انتهى). كان عدد الصحون الرئيسية التي تتألف منها المرحلة الاولى من العشاء ثلاثة أو أربعة أو خمسة (بحسب غنى الكولدج أو بخله)، وكان يستغرق استهلاكه، وخصوصاً بسبب الاستراحات الطويلة بين الصحن والآخر (التي خلالها نبقى ناحلين متعرّين إلاّ من كؤوس النبيذ)، حوالي الساعتين، كما سبق أن قلتُ. وهكذا، خلال تلك الساعتين الأوليين، كان محكوماً علينا بالتكلّم فقط مع شخصين، حيث أحدهما يكون دائماً الزميل الذي أرسل الدعوة – إلى اليسار – والآخر كان يقرّره القدر، أو بالأحرى، نيّة الـ«واردن»، (التي غالباً ما تكون سيئة)، وهو مسؤولٌ عن توزيع المقاعد. في ذلك العشاء كان «كرومر–بلايك» مضيفي، ونبّهني إلى أنّه سيجلس إلى يميني عالم اقتصاد شاب وواعد، سوى أنّ عيبه الوحيد (في «الطاولات العالية»)، إنّه يوافق فقط على التحدّث حول الموضوع الذي عمل للتوّ عليه في أطروحة الدكتوراه

خاصّته الصادرة حديثاً.

– وما هو الموضوع؟ – سألته بينما كنّا نبحث عن مقاعدنا في خضمّ تدافشنا، وكنا ما زلنا واقفين اثنين اثنين في الصف، قبل دخولنا صالة الطعام.

لامس «كرومر–بلايك» شعره الشائب، كعادته قبل إجابته أيّ سؤال، أو قبل إبداء رأيٍ أو سرده طُرفة، وأجابني مبتسماً:

– حسناً، لنقُلْ إنّه موضوع غير اعتيادي. لكنّي على يقين أنّك ستجد الوقت الكافي لكي تتحقّق منه.

كان عالم الاقتصاد الشابّ ذلك، ويدعى «هاليويل» **Halliwall**، بديناً وقرمزيَّ اللون، ذا شاربين خفيفين ولم يكن لديه، في الواقع، أي فضول لمعرفة شيء حول شخصي أو بلدي (عادةً ما يكون بلدي استعانة جيدة للأحاديث المرتفعة)، ما جعلني أنا أبدأ باستجوابٍ، من باب اللياقة، ولكنّه بعد أربعة أسئلة لا غير، انكبّ، كما سبق وأُخبرت، على الموضوع الشديد الفرادة لأطروحته، وهو: إحدى الضرائب، الغريبة على ما يبدو، التي كانت مفروضة بين ١٧٦٠ و١٧٦٧ على خلّ التفاح في إنكلترا.

– فقط على خلّ التفاح؟

– فقط على خلّ التفاح، يجيب الشاب «هاليويل»، عالم الاقتصاد، برضى.

– آه، هذا مثيرٌ جداً، أمرٌ لا يُصدّق – أجبته: وكيف يجوز أن تكون الضريبة على خلّ التفاح فحسب؟

– فوجئتَ، أليس كذلك؟ – قال الشاب «هاليويل»، عالم

الاقتصاد، بتلذذٍ، وأخذ يشرح لي بدقة فائقة أسباب تلك الضريبة الشاذة. التي لم تستطع ان تثير اهتمامي، و مميزاتها.

– هذا شيّق، تابعْ – قلت له.

لحسن الحظ أنه من السهل، في لغة ليست لغتنا الأم، أن نتظاهر بأنّنا نسمع أو نوافق أو نمدح أو نفتح فاهنا (بتذلّل) من وقت لآخر من باب الحدس، وهذا ما فعلته في تلك المناسبة طوال فترة السَّبع الدقائق اللانهائية التي كانت من نصيبي مع الشاب «هاليويل»، بعد كل خمسٍ مع «كرومر–بلايك». وبينما كان عالِم الاقتصاد الواعد هذا يتكلّم بإطنابٍ وبلا اعتدال حول خلّ التفاح، ومن دون أن يتفضّل ولو بطرح سؤال واحد عليّ، استطعتُ أن أكرّس وقتي، على الرغم من ثمالتي المتزايدة (لكن الحظ يحالفني دائماً فما من شيء في سلوكي أو في مظهري الخارجي يدلّ على سَكَري) لمراقبة سائر المدعوّين الذين مُنعتُ من التواصل معهم مباشرة إلى أن أتى وقت التحلية؛ وأثناء فترات الثرثرة وبفضل «كرومر–بلايك»، استطعتُ أن أسأله عنهم وأن اثأر من «هاليويل» عالم الاقتصاد الشاب بشتمه (الشتائم في الإسبانية). يجب القول أنّي على غرار «كلير بايز» التي كانت تراقبني بطرف عينها في مزيجٍ من السخرية والشفقة، كنت أراقبها بكل لطف ومجاملة، وفي ما بعد، عندما تجلّى بوضوح تردّي وضع الطاولة العام، بُحتُ لها صراحةً بإعجابي الجنسي إزاءها. كانت هي إحدى النساء الخمس الموجودات في حفل العشاء، وواحدة من الاثنتين اللتين كانتا تحت السن الخمسين. هي أيضاً الوحيدة التي كانت تكشف، من تحت ثوب الأساتذة الأسود، عن

فستان مقوّرٍ غاية في الأناقة ومبدئياً لن أقول أكثر، لأنّي كنت عشيقها خلال بعض الوقت، إذ إنّ تعداد مفاتنها الآن سيكون نوعاً من التبجّح. شَغَلَ بقية الطاولة سادة يرتدون ثوب الأساتذة باستثناء واحد، والواردن كان الـ«لورد رايمر» Lord Rymer، وهو عضو في مجلس اللوردات وشخصية بارزة معروفة بدسائسها في كلٍ من مدينة لندن وأوكسفورد وبروكسيل وستراسبورغ وجنيف. جلس بيني وبينه مدعوّان، أما «كلير بايز»، فكان يفصلها عن رأس الطاولة، في الجهة الثانية، شخص واحد فحسب.

في إنكلترا، كما هو معروف، بالكدّ ينظر المرء إلى الآخر في وجهه، أو لفرط ما يكون النظر كامداً، يجعلنا نشك دائماً في ما إذا كان ينظر حقاً إلى الشيء الذي يبدو أنه ينظر إليه. لذلك فإن النظرة القاريّة (مثل نظرتي) قد تثير بعض الارتباك لدى الشخص الذي ننظر إليه، حتى لو كانت هذه النظرة (وهي ضمن النظرات المعقولة، أي الإسبانية أو القاريّة) موسومة بالحيادية أو بالفتور أو حتى بعلامات الاحترام. لذلك أيضاً، عندما تنزع النظرة الجزيرية أو الأنكليزية عن ذاتها، وموقّتاً، الحجاب الذي عادةً ما يغطّيها، تكون النتيجة فاضحة، وقد تصبح سبباً للخناقة والنزاع، لو لم تكن نظراتنا هي أيضاً تحتفظ بغشائها الموقت. لو لم تكن نظرة من يراها تحتفظ بغشائها الذي يمنعها من رؤية ما هو جليّ وربما مهينٌ لعيون أخرى بدون غبشٍ (مثلاً القارية منها). وصحيح أنّي على مدى سنتين تعلّمت أن أنظر بعض الشيء بكمدة – حسبما شئت – لكن لم تكن نظرتي حينها عاجزة عن فرض رقابة ذاتية، بل أيضاً، وكما سبق أن اوضحتُ، وفي تلك

العشاوات التي لا تُنتسى، كان خلاصي الوحيد ضدّ الجوع والضجر - ما عدا النبيذ الأحمر والزهري والأبيض منه - في أن أجعل نظري مرهفاً ومسَنَّناً وأن أنشغل بالمراقبة. فإن كانت نظرتي (أنا كنت ألاحظ هذا بذاتي) انطلاقاً من لحظة معيّنة، مفعمة بإعجاب جنسي إزاء «كلير بايز»، فنظرة الواردن «لورد رايمر» كانت، منذ ضربة الهراوة الأولى وقراره اللاتيني الاول، تقطر شهوانية شرسة وغير مواربة تجاه «كلير بايز» أيضاً. لكن كما كانت حشمة نظرة الآخرين، عندما ينظرون إليّ، تلغي وقاحة نظرتي (إضافة إلى نظرة الـ«لورد رايمر»، الذي كان يضع الوشاح الجزيري التقليدي ما إن يشيح بعينيه عن تقويرة فستان «كلير بايز» أو عن وجهها)، كان شبق الـ«واردن» الوقح واضحاً بالنسبة لنظرتي أنا، التي، في المقابل، ما إن تبتعد بدورها عن تقويرة فستان «كلير بايز» أو عن وجهها، كانت تتّخذ جلياً تعابير الاحتضار والأسى (بسبب ما تلقيّته من «هاليويل» الطفيلي) وتصبح جامحة (بسبب الشهوانيّة الحيوانيّة التي تسنّى لي أن أتأمّلها في نظرة الـ«لورد رايمر»). مع ذلك، فإنّ المشكلة الأساسيّة كانت تكمن في أنّ نظرة «كلير بايز» لم تكن تماماً انكليزية، بسبب (كما علمتُ في ما بعد) سنوات طفولتها التي أمضتها في دلهي والقاهرة، حيث لا يتبادل الناس النظرات كما في الجزر ولا حتى كما في قارتنا الأوروبية؛ وهكذا، فهي ما كانت مؤهّلة لالتقاط نظرات الـ«واردن» الشبقة والحيوانية فحسب، إنما أيضاً نظراتي المفتتنة جنسياً. المشكلة الثانية (وهي أقل اهمية) تكمن في أنّه على الجهة الاخرى للطاولة، ناحيتي أنا وقرب طرف الطاولة الثاني (حيث

تربّعت شخصية أدبية شهيرة على وشك التقاعد، وكنت قد أحببتها كثيراً وسأتكلّم عنها لاحقاً)، كان جالساً «إدوارد بايز»، وهو عضو في الكولدج المضيف على غرار «كرومر–بلايك»؛ وعلى الرغم من انّ نظرته كانت دائماً جزيريّة صرفة، كان من الممكن (بسبب النظرتين الوحيدتين غير المحجّبتين على الطاولة والمصوّبتين نحو زوجته) أن يُجبَر بدوره على نزع غشائه الاعتيادي لكي يتمكّن من معرفة رغبات الآخرين ومراقبتها، أكانت شهوانية أم لا. لكن كلامي ليس صحيحاً تماماً، إذ من جهة، وبسبب موقعه على الطاولة، أي ناحيتي أنا، لم يكن «إدوارد بايز» يستطيع رؤية نظرتي على الإطلاق، بينما كان بالتأكيد قادراً على رؤية نظرة «كلير بايز» وكذلك نظرة الـ«لورد رايمر». ويقيني انّه رأى وجه زوجته، في لحظةٍ من اللحظات، وقد احمرّ بعض الشيء، لكنه وبلا شكّ عزا ذلك إلى كميّة النبيذ الذي شربتْه أو إلى تصرّف الـ«واردن» غير اللائق، هذا الرجل الضخم وذو البشرة الملساء – أعتقدُ أنه كان أمرد – الذي ثمل كما لم يثمل أحد. وإذا رأى «إدوارد بايز» نظرة زوجته تتجه من وقت إلى آخر نحوي، قد يكون فكّر أنّ مَن كانت في الواقع تنظر اليه، بحثاً عن حماية أو أقلّه عن تواطؤ، هو صديقها «كرومر–بلايك» الجالس مباشرة إلى يساري، كما سبق وأشرتُ. لكن إضافة إلى ذلك ثمة نظرة رابعة (ربما نظرة خامسة، إذا اعتبرنا أن نظرة «إدوارد بايز» تخلّت عن وشاحها الإنكليزي) لم تكن في رأيي مضطّرة لأن تكتسي الحجاب، وهذه كانت نظرة «داياناند»، الطبيب الهندي الأصل وصديق «كرومر–بلايك»، الذي وجد نفسه إلى يسار «كلير بايز»

وبالتالي قبالتي تماماً. على الرغم من أنه أمضى عقوداً في أوكسفورد، حافظت عيناه على إشراقة الأرض التي قدِم منها وشفافيتها، وفي أجواء ذلك العشاء بدتا حادّتين. كل خمس دقائق أو ست، وبينما كان يتنقّل بهدوء من حديثٍ مسهب مع «كلير بايز» إلى كلام مقتضب مع المدعوّ الوحيد الذي لم يكن يرتدي ثوب الأساتذة (وهو غايةٌ في القبح، أستاذٌ في علم المعادن في جامعة «لايدن» ذو النظرة - على الرغم من كونه أجنبياً - المحجّبة بعدسات مكبِّرة، مستطيلة وضخمة جداً، كان يضعها بمثابة نظارات)، كان يجمّد لحظةً عينيه السوداوين والرطبتين، ويتفحّصني صعوداً ونزولاً وكأنه صيدليٌّ، وكأن طريقتي الصريحة في النظر يميناً ويساراً، وخصوصاً في اتّجاه «كلير بايز»، كانت تشير إلى مرض معروف وبسيط العلاج، ولكن مستأصلٌ من تلك الأصقاع. نظرة «داياناند» لا تُقاوَم، وكلّما تقاطعت نظرتي معها لم يكن يبقى امامي من حلٍّ سوى أن أُعيدها نحو «هاليويل» وأتظاهر بأني أغوص أكثر فأكثر في ثرثرته التسلطّية. لكن عينيّ «داياناند» هذه كانتا تصبحان ناريّتين عندما يعيدهما باتجاه «كلير بايز» ونحو رأس الطاولة، وكان يدخل حقل نظره الـ«لورد رايمر»، الذي مع ذلك لم يلقَ صعوبة في مقاومة نظرته، إذ على الأرجح - كان يشعر أنه خارج دائرة العقاب - حتى لم يكن ليلتقطها: فالـ«واردن»، المجبَر على التحدّث مع جيرانه القريبين منه الذين كانوا جلياً يرهقونه (إلى يمينه امرأة قبيحة، وهي «واردن» إحدى الجامعات النسائية؛ وإلى يساره عالِمٌ بغيض ومغرور في العلوم الأنسانية يدعى «أَتواتر» Atwater)، بدأ يغضّ النظر شيئاً فشيئاً عن

البروتوكول، وأخذ يتدخّل ويعطي إيضاحاتٍ في غير محلّها في كلٍ من حوارات «كلير بايز» و«كرومر–بلايك» اللذين كانا جارَيه التاليَين على جانبَي الطاولة. لكن لأنْ لا هذه ولا ذاك لديهما الاستعداد أن يدعاه يدخل كلياً في نقاشاتهما، تظاهر بالاستماع إلى المرأة القبيحة، أو إلى العالِم، وباللعب بالهراوة وبقاعدتها، كما هو شائع لدى اللذين يترأسون «الطاولات العالية»، المرهقين أو الثملين. وهكذا، وهو في سَكَره وقرفه، لم ينتبه إلى أن ضربة المطرقة الأولى والبليدة على قاعدتها (كان يجعل الهراوة تطرق برخاوة) أخذَت تتحوّل إلى سلسلة طَرقات تزداد في كلّ مرّة عنفاً (وهو يمسك بها الآن جيداً)، لكنّها طرقات متباعدةٌ، ما كان كافياً ليسبّب – إضافةً إلى الغرابة – تشويشاً هائلاً جعل بعض النوادل، عند سماع هذه الطرقات، يباشرون نزع الصحون التي كانوا قد وضعوها للتوّ، بينما البعض الآخر الأكثر خبرة، وهو يعلم أنّ تلك القرقعات ليست جزءاً من الحفلة، حاول إعادة الأطباق إلى أصحابها اللذين لم يتسنَّ لهم في بعض الحالات حتّى أن يشمّوها. بعد سقوط الصحون التي هوت على الأرض بدويّ كبير، نتيجة المشاحنات بين الخدم، كان على النوادل الخمسة اللذين يخدمون الطاولة أن يتوقفوا عن الخدمة ويتجمّعوا في مشاورات سرّية في إحدى زوايا الصالة ليتّهموا بعضهم بعضاً بالبلاهة، في حين أخذت الاحتجاجات تعلو (ولو تمتمة) من قِبل المدعوين اللذين وجدوا أنفسهم أمام الشُوَك والسكاكين المخصّصة للسمك لينقضّوا بها على فتيلة لحمٍ، وأمام أطباقٍ (فيها بقايا أكلٍ باردٍ) منسية على الطاولة وقد أصبحت مزعجة (الشيء الذي لم

يحصل من قَبل في «الطاولات العالية»)، كذلك أمام صحون أُكِلَ منها قليلاً، من هنا ومن هناك، وكانت لا تزال موضوعة قبالتهم، (والأخطر من ذلك) أمام كؤوس فارغة أو امتلأت نبيذاً مخلوطاً.لم يكن الـ«لورد رايمر» يلاحظ شيئاً، وعند كل طَرْقٍ لا مبالٍ على اللاصقة أو على الطاولة (إذ لم يكن يصيب الهدف دائماً)، مع ما ينتج من دوي وقصفٍ للخشب النبيل، ومن قفزٍ لحبّات الحمّص والفطر، ودحرجةِ بعض الأكواب، لم أكن قادراً أنْ أحسب، إلاّ من خلال وضعية الـ«واردن» وانحناءه (إذ أخذ يهبط ببطء على طاولة الخشب)، الاتجاه المحتمل الذي قد تتخذه الهراوة في حال فلتت من بين أصابعه وطارت. تراجعتُ قليلاً إلى الوراء، لا آملاً فقط أن أتجنّب الهراوة إنّما أيضاً أن تزداد الاحتمالات في أن تصطدم بجبين عالم الاقتصاد الشاب «هاليويل» فتؤذيه، إذ إنّ عالم الاقتصاد الشاب «هاليويل»، اللامبالي بأي شيء، كان لا يزال يغمرني بخلٍّ التفاح العتيق أو التالف، بعد كل مونولوجٍ أو استراحة مع «كرومر-بلايك»، وما من شيء كان قادراً على مؤاساتي أكثر من أن أراه غائباً عن الوعي.

مدهِشٌ موضوعك هذا حول خلّ التفاح - كنت أقول له - وتلك الضريبة الغريبة، هل هي مفروضة فقط في إنكلترا؟

- فقط في إنكلترا - يجيب «هاليويل» متحمساً.

انتبهتُ إلى إن «كلير بايز» لاحظت حركتي (ثم أخذت تعيرني بعض الانتباه، في تلك الظروف) وتراجعت في جلستها نحو الخلف، ولو أنّي لست اعرف إنْ فعلت هذا، أيضاً، بغية تسهيل ضربةٍ على

أحد جيرانها، أو في هدف إخفاء تقويرتها ووجهها عن نظر الـ«لورد رايمر» وكي ترى إن كان سيتوصّل الـ«واردن» بهذه الطريقة إلى الخروج من دهشته واستعادة وعيه. لكن صاحب الدسائس هذا، أي الـ«لورد رايمر»، أخذ بدوره يتقدّم بصدره العريض جداً (كان مِرفقه الأيسر يكسح الطاولة، والجزء الأمامي لثوبه يزحف على فتيلة اللحم التي لم يمسّها، وينثر حبّات الحمّص) ويرفض أن يغيب عن نظره ما أفرحه كثيراً وما تشبّث برؤيته. أتى وقتٌ لم يعد الـ«لورد رايمر» موجوداً هناك على الإطلاق، وكان نظره أبداً تائهاً في تقويرة «كلير بايز» وفي وجهها؛ وما كان يشكّل حتى الآن - كما قلتُ - ضربات متباعدة، استثنائية وغير متناسقة، تحوّل إلى ضربات متتالية وآلية، ولم يكن لديه أدنى فكرة عما يحصل. وأصبح مفعول الطرطقات جليّاً على الطاولة، حيث تراكمت بقايا المأكولات المتنوّعة وحيث تطايرت بقايا الخبز وحبّات الحمّص والفطر، وقطع البطاطا المسلوقة، وحسكات سمك الموسى، وبقع صلصات دسمة، ونظّارات أستاذ جامعة «لايدن» القبيح (بل هو اقبحُ من دونها) والنبيذ بألوانه المختلفة. لحسن الحظ أنّ ثياب الأساتذة لا تقتصر مهمّاتها على الواجبات العابرة والتجميلية فحسب، بل أيضاً على حماية البدلات الأنيقة (التي يأتون بها إلى «الطاولات العالية») من الوسخ اللانهائي واللامنطقي الناتج من تلك الطاولات. اتّفق النوادل الخمسة، وتفاهموا، وكانت لا تزال أيديهم العشرة منشغلة في مسك الطاولة وضبطها عند رأسها في الجهة المقابلة - مشعّثين شَعر الشخصيّة الأدبيّة الجالسة هناك - كي لا تسبّب ارتجاجاتها إضافة إلى وزن

جسم الـ«لورد رايمر» الضخم المنحني أكثر فأكثر على مقعده، باضرارٍ كبيرة. شيئاً فشيئاً (لكن كانت مسألة بضع ثوانٍ) اخذ الصمت ولو غير التام يسود في صالة الطعام، إذ كان المتحمّس «هاليويل»، كذلك الكريه «أتواتر»، عاجزين عن إبقاء فموَيهما مغلقين ولو لحظةً، وبينما استمرّ الأول في خنقي («كان حتى على الـ«فيكونت بتّ» Pitt أن يشارك في موضوع خلّ التفاح! «ذكر ستيرن الضريبة في إحدى عظاته!»)، كان يهتف مبتهجاً)، كان الثاني، وإبهاماه غائران في ثنايا ثوبه عند مستوى الصدر، ما يزال يوجّه خطاباً متحمّساً إلى الـ«واردن» وهو مقتنع بأن الأخير كان ينظر إليه (بعينيه الجامدتين والحيوانيتين) وليس إلى تقويرة «كلير بايز» ووجهها المشتهين كل الاشتهاء. ومع أن القرقعة لم تدم أكثر من دقيقة في طورها الأكثر وحشية، لم تعد الحالة تُحتمل (خلال تلك الدقيقة). لكن لانّنا، نحن المدعوّين، الوحيدون الذين افتقرت نظراتهم إلى الوشاح، لم نستطع اتخاذ أيّ إجراء نظراً إلى مركزنا المنخفض في هرمية المراكز، ولانّ سائر النظرات الأكثر سلطةً كان في حوزتها الشاش المذكور الذي منعها من رؤية أن الـ«لورد رايمر» فاقد الاعتدال واللياقة، كما منعهم من ملاحظة أن عليهم تنبيهه وإعادته إلى الصواب او إعفاءه بكل بساطة من الرئاسة (لكن الـ«لورد رايمر»، عدا كونه «واردناً»، كان سياسياً متنفِّذاً ومعروفاً بانتقاماته التي تستمرّ العمر بأكمله)، راح السكوت يتكثف أكثر فأكثر، ولم يكسره – عدا طرطقة الهراوة – سوى همسات «هاليويل» والعالِم «أتواتر» المتواصلة، وصراخ المرأة القبيحة الجالسة إلى يمين الـ«واردن»، والتي – على الرغم من كونها

متملّقة (وكان هذا جلياً)، وبالتالي عاجزة عن تنشيط الـ«لورد رايمر» خوفاً من ازعاجه – لم تستطع تجنّب الارتعاش عند كل طرقة، لشدة كبر نهديها المنتفخين على الأرجح والقريبين من القاعدة التي أتلفتها كل تلك الضربات بالهراوة.

خلال تلك الدقيقة الطويلة تسنّى لي مراقبة جميع المدعوّين اللذين في متناول نظري: الشخصيّة الأدبيّة الجالسة عند طرف الطاولة في الجهة المقابلة، والتي كانت تصفع النوادل اللذين (وهم في اندفاعهم للحفاظ على توازن الطاولة كانوا يرهقونها) استمرّوا في تشعيث شعرها وفي تجاذب أذنيها بسواعدهم العشرة المشدودة؛ أما إلى يمينها، فكانت الدكتورة «ويتنهول» Wetenhall تلاحظ أنها بحاجة إلى أكثر من يدٍ في محاولاتها العديدة لسدّ أذنيها، وللإمساك بقنّينتين بدأتا تتدحرجان (وهما نصف مليئتين) في اتجاه الـ«واردن»، ولضبط شعرها المستعار وغير الثابت (قد يكون جديداً) الذي بدأ ينهار، بينما كان يبدو جارها الآخر متسليّاً (وهو رئيس قسْمي، الـ«بروفسور كافاناخ»، الأيرلندي الذكي وأكثر المهتمّين بروايات الرعب الشهيرة التي كان يكتبها تحت اسم مستعار، لكن غير المحبوب لدى الزملاء وأعوانهم، تحديداً لأنّه أيرلندي، ولأنه يكتب روايات، ولأنه ذكي) وفي الواقع كان يساهم بتهكّمٍ في ضجة الـ«واردن» من خلال ملعقةٍ صغيرة أخذ يطرق بها كأسه على الايقاع نفسه، تماماً كما هو التقليد عند وقت التحلية (لا يزال يعمل بهذا التقليد حتى اليوم) للإعلان عن بدء خطابٍ ما؛ وإلى يمينها جلس عضوان في الكولدج (اسمهما «براونجون» Brownjohn و«ويليس» Willis،

وهما رجلا عِلمٍ في منتصف العمر وبالتالي بطيئان في ردود الفعل) كانا فقط يتجرآن على التطلّع من طرف العين إلى الـ«لورد رايمر» ويحاولان التقاط نظّارات ضيفه الهولندي المربوطة بلفافة، وهو الذي، على رغم جلوسه بطمأنينة، كان قد مدَّ ذراعيه لاتّقاء الأضرار (هادماً بهما القليل مما لم يلحق به الخراب في دائرته بعد)، وكأنّه يخشى أن يتعثّر في أية لحظةٍ، على طريقة العميان عندما يسيرون من دون عصاهم؛ أما «دايananد»، وهو عضو في الكولدج وذو شخصيّة قويّة، فقد يكون من بين القلائل الذين قاطعوا ضجيج الـ«واردن»، لكنّ الصحيح هو أنّه، ومن خلال سلوكه الصارخ والواضح، اكتفى بتوجيه نظراته القاتلة إليه وبفتح قبضتيه وإغلاقها فوق الطاولة («هذا الطبيب الهندي سوف ينتقم منه ويجعله يدفع غالياً حتى لو انتظر عشر سنوات»، فكّرتُ: «هذا الطبيب الهندي خطرٌ»)؛ كان النابغة «أتواتر» وعالم الاقتصاد «هاليويل» قد انتهيا أخيراً من إسهابهما وإطنابهما، وبدا أنّ مجرّد صمتهما شوّشهما أكثر من قرع عصا الـ«واردن» الذي لم يلاحظاه على الارجح سوى خلال دقيقة الضجيج والسكوت تلك؛ سبق أن تكلّمتُ عن المرأة القبيحة والخاشية، أما بالنسبة إلى «كرومر–بلايك»، فوجهه كان لغزاً حقيقياً: بينما كان يشدّ بيده على ذقنه الشاحبة، بدا أنّه ينتظر، وعلى شفتيه مشروع ابتسامة (ابتسامة رجل على وشك أن ينفجر ضحكاً أو ربّما ابتسامة إنسان يكدّس غضباً) وكأنّه، وهو العارف بتقاليد «واردنه»، يعلم مسبقاً أن الدقيقة ستدوم دقيقةً. المدعوّون الأربعة الآخرون، ولا أستثني «إدوارد بايز» على رأس الطاولة في الجهة

المقابلة إلى اليسار، كانوا غائبين عن حقل رؤيتي، لكن لدى اجتياز نظري هذه المسافة في ستّين ثانية، وهذا ما يفعله نظري كذلك الآن في مدينة مدريد التي عدتُ إليها، عاد واتّجه نحو «كلير بايز»، لكن هذه المرّة عمداً.

في الواقع يمكن القول إنه خلال تلك الدقيقة ما من أحدٍ لاحظ حقاً بواسطة النظر – الـ«لورد رايمر»: قسمٌ من الطاولة كان ينظر إليه خفيةً وبخوف، لكن من دون التمكّن من رؤيته، كما سبق أن شرحتُ؛ وقسم آخر كان منشغلاً بالحفاظ على سلوكه وبمحاولة تفادي وقوع القناني والنظارات أرضاً والأكواب المتدحرجة التي زعزعتها ضربات الهراوة؛ وقسم ثالث إغتنم الفرصة ليتبادل النظرات، وجهاً لوجه ومن دون وشاحٍ من أي نوعٍ كان. كان يضم الأوّلون المرأة القبيحة، وكاتب روايات الرعب «كافاناخ»، ونابغة العلوم الاجتماعية «أتواتر»، وعالم الاقتصاد في خلّ التفاح «هاليويل»، حيث إن الأخيرَين، كونهما عضوين في الكولدج، كانا حائرَين (ولو قليلاً) في ما إذا كان عليهما التدخّل وانتزاع الآلة من الـ«لورد رايمر»، أو البقاء مكتوفَي الأيدي وانتظار أن يخاطر أناس سواهما ويتلقّوا الضربات، وهم في محاولتهم الجريئة هذه، أو لأن يتعرّضوا لاحقاً للتوبيخ بسبب هذه المحاولة. أما القسم الثاني فيضمّ الشخصيّة الأدبيّة أي البروفيسور «توبي رايلندز» وهو على وشك التقاعد، والعلماء «براونجون» و«ويليس»، والدكتورة «ويتنهول» ذات الشعر المستعار، وعالم المعادن المهول وكأنه قادم من الظلمات؛ وفي القسم الثالث كنّا، وحسبما استطعت أن أرى خلال الثواني

الأخيرة لتلك الدقيقة، «دايananد» و«كرومر-بلايك»، «كلير بايز» وأنا، وربما زوجها: بل على الأرجح كان هو أيضاً. انتقلت النظرة المخفّفة نفسها (الحذرة أو القاسية) التي كان قد وجّهها إليّ «ديanaند» من وقت لآخر طوال العشاء والتي راح الآن يكرّسها بكل حدّتها لـ«لورد رايمر»، فجأةً، من دون تغيير، إلى صديقه «كرومر-بلايك»: في تعبيرٍ آخر، أرسل له «داياناند» ما أسميته آنفاً نظرةً قاتلة بينما استمرّ في فتح يديه او مقبضيه وإغلاقها فوق الطاولة في حركة عادة ما يلجأ إليها الانسان القلق والمضطرب والذي يتمالك نفسه بصعوبة فائقة؛ ورفع بدوره «كرومر-بلايك» نظره، إذ شعر بعينَي الطبيب الهندي مسلّطتين عليه كالبرق، ولاحظتُ على الرغم من أنّي لم أستطع ان أرى جيداً عينيه اللتين بانَتا لي جانبياً أي، في الواقع، اليُمنى منهما فحسب أن ابتسامته التي استهلها برقّة أخذت تتحوّل إلى نوع من الصرامة القصوى التي إعتادت رسمه شفتاه اللتان بدتا وكأنّ لا حياة فيهما لفرط رقتهما.

عندئذٍ نظرتُ بصراحةٍ إلى وجه «كلير بايز»، ودون أن اعرفها، بدت لي وكأنّها شخص بات جزءاً من ماضيَّ، أعني كأنها شخص لم يعد جزءاً من حاضري، بل كمَن اثار كثيراً اهتمامنا ولم يعد يثيره الآن، او كأنه مات، اي كأنها شخص لم يعد موجوداً، أو شخص حكَمْنا عليه مسبقاً بأنه ينتمي إلى ماضٍ سحيق، ربّما لأن هذا الشخص كان قد ألزمنا بدوره أن ننتمي نحن أيضاً إلى ماضٍ، إنّما ماضٍ أبعد من ماضيه. ذلك الفستان المقوّر الذي كان يبين من تحت ثوب الأساتذة والذي سبّب بطريقة غير مباشرة كل تلك الأضرار، لم

يكن على الموضة، لكن هذه هي الحال، أحياناً كثيرة، في ما يتعلق بلباس الحفلات الرسمية في إنكلترا. ووجه «كلير بايز» كان بدوره كأنه قديم الطراز، بشفتيها السميكتين ووجنتيها العاليتين جداً. لكن هي أيضاً كانت تنظر، وتنظر إليّ كأنها تعرفني منذ زمن، بل كما لو كانت إحدى تلك الصور المتفانية والثانوية التي تسكن طفولتنا، وتعجز في ما بعد عن النظر إلينا كالراشدين البغيضين الذين أصبحنا عليه، إنّما، ولحسن حظّنا،كأننا أبداً أطفال في عينها الهامدة التي شوّهتها الذاكرة. ونجد ذلك العجز المبارك لدى النساء أكثر ممّا لدى الرجال، ما دام الرجال يرون في الاطفال مشاريع أسياد مزعجين، بينما ترى النساء في الأطفال كائنات كاملة إنّما يتحتم عليها أن تتلف وتصبح بلهاء؛ ولذا تجتهد عدستهنّ في الاحتفاظ بصورة هذه الألوهية العابرة والمحكوم عليها بألّا تدوم، وخصوصاً عندما لم يتسنّ لهنّ التعرف إلى الرجل عندما كان طفلاً؛ لذا تصب النساء كل المجهود التخييلي عندئذٍ في العمل على تصوّر ذلك الطفل الذي رأينه فقط في صور فوتوغرافية أو ما تبقّى من آثار الطفل الذي أصبح رجلاً الآن، أو الذي شاخ ربّما، أو عرفنه في الحكايات التي قد يكون الـ«دون جوان» المستثمر جازَفَ وأخبرهنّ إياها على الفراش، وهو المكان الوحيد الذي يبدي فيه الرجال استعدادهم لتذكّر الماضي عالياً. هكذا كانت «كلير بايز» تنظر إليّ، كأنّها تعرف طفولتي في مدريد أو حضرت، في لغتي، أوقات لعبي مع إخوتي وأوقات خوفي الليلي وخلافاتي المشترطة عند الخروج من المدرسة. طريقتها هذه بالنّظر إليّ جعلتني أنظر إليها بالمثل. علمتُ في ما بعد - عندما علمتُ أكثر عنها

- أن في تلك الثواني الأخيرة لدقيقةٍ لم اشعر بوجودها سوى الآن، رأيت مقتطفات من طفولتها في الهند، من أوقات التأمل لطفلة لم يكن لديها الكثير لأن تفعله في تلك المدن الجنوبية، تلك الطفلة التي كانت ترى نهراً يجري، وتحرسها أصوات الخدم السمراء والمبتسمة. أنا لم أكن أعلم أنّي ارى النهر (وبالتالي قد أكون على خطأ أو قد أكذب ولم أكن أراه ويجب ألاّ أقوله)، لكنّي لا أستطيع إلاّ القول أنّه من خلال تلك العيون الزرقاء القاتمة كان يعبر ليلاً ذلك النهر البرّاق والصافي، نهر «يامونا»، أو «خومنا»، الذي يعبر دلهي، مبقّعاً بزوارق بدائية تنقل عبره حبوباً وقطناً وخشباً وحجارةً، تهدهده عند ضفتيه أغنيات بلا معنى، ويرشّه الحصى المتدحرج من صخوره عندما يترك المدينة وراءه، بالطريقة عينها التي كانت ربما ترتسم في عينيّ صور مدريدية من شوارع «خينوفا» و«كوباروبياس» و«ميغيل أنخيل»، تلك الشوارع التي لم تطأها هي يوماً ولم ترَها: صورة أربعة اطفال يسيرون في تلك الشوارع مع خادمة عجوز. وعلى الأرجح هناك جسر حديدي ضخم يعبر نهرَ «يامونا» عند مدخل المدينة، والذي يمكن مراقبته عن بُعدٍ (وعلى حدٍّ ما كانت المربّية تخبرها بصوتها الغامض عندما تكونان وحدهما) من حيث رمى أنفسهم عشاق تعساء كثر: هذا النهر العريض ذو المياه الزرقاء الذي يقطعه الجسر الطويل المصنوع من قضبان حديدية مائلة ومتقاطعة، وفي معظم الأحيان يكون فارغاً، وغارقاً في الظلمات، وعاطلاً عن العمل ومتلاشياً، تماماً كإحدى صور الطفولة تلك المتفانية والثانوية التي سرعان ما تنسحب وتبتعد لكي تظهر مجدّداً وتلمع عند أقاصي الزمن

لحظةً فحسب، عندما نناديها، ولكي تضيع مجدّداً وفَوْراً في ظلمة وجودها الذي نجهله والذي تخفّ وطأته علينا بعد أن تكون قد أتمّت واجبها الوجيز، أو بعد أن تفشي السر الذي نطالبها به فجأةً. وهكذا فهي تحيا فقط كي يمرّ الطفل من خلالها، كلّما كانت المناسبة مؤاتية. تنظر الطفلة الأنكليزية الآن إلى جسر الحديد الأسود هي تترقّب مرور القطار، لكي تراه مضاءً ومعكوساً في الماء، وهو أحد تلك القطارات ذات الألوان الحيّة والمليئة نوراً وضجة غير مسموعة، التي تعبر نهر «يامونا» كل مساء، نهر «خومنا» الذي تنظر إليه بهدوء من علّو بيتها بينما تهمس المربّية في أذنيها أو يتأمّلها والدها الديبلوماسي من الخلف، من عند تخوم الحديقة، عندما يكون قد حلّ المساء، وهو في لباس الحفلات الرسمية، مستعداً للعشاء، والكأس في يده. يقترب موعد نوم الطفلة، لكن من المفترض أولاً أن يمرّ قطار آخر اضافي، إذ صورته مع النهر الذي يضيئه نور نوافذ القطار (رجال الزوارق يفقدون التوازن، وهم ينظرون إلى الأعلى) هي التي تساعدها على النوم وعلى مواصلة حياتها في اليوم التالي في مدينة لا تنتمي إليها، والتي ستراها كمدينتها فقط عندما تكون قد غادرتها وعندما لن يبقى لديها اية مناسبة لتتذكرها جهاراً إلاّ مع ابنها أو مع عشيقٍ لها. الثلاثة ينتظرون (الطفلة والمربّية والوالد الكئيب) إلى أن يبين قطار البريد القادم من «مورادا باد» والذي يصل دائماً متأخراً، ليعبر الجسر الحديد بسرعةٍ فيمتدّ على طوله، من أوّله إلى آخره، بعرباته غير الثابتة وذات الألوان العديدة التي يميّزها المرء تحت القمر بريقاً متألّقاً؛ و«كلير بايز»، من ثَمَّ، بعد أن يغيب عنها القنديل المترجّح للعربة الأخيرة التي

تكون قد ودعتها بيدها (الوداع الذي لم تقله يوماً لكي تلقى جواباً)، تنهض وتنتعل حذاءها، وتقف على رؤوس قدميها لتقبّل والدها الصامت والفائحة منه رائحة التبغ والكحول والنعناع، وتختفي أخيراً داخل البيت وقد أخذتها بيدها المربيّة التي ستُسمعها، قبل أن تنام، إحدى التهويدات. هكذا نظرت إليّ «كلير بايز» وكنت أنا أنظر إليها،كما لو كنّا عيون واحدنا الآخر، العيون الساهرة والرئيفة، الآتية من الماضي والتي لم تعد تهمّنا لأنها باتت تعرف، منذ وقت طويل، كم هي مضطرّة لأن ترانا: كنّا ربّما نتبادل النظرات كما لو كنّا شقيقين راشدين. وحتى لو لم أكن اعرفها بعد، لكن أحسست أنّني كنت سأتعرّف إليها وسأتوصّل يوماً إلى أن أحكي لها، على فراشٍ، كل التفاصيل التي أخذتُ أبوح بها لها - حول شارع «خينوفا»، و«كوبارّوبياس»، و«ميغل أنخيل» - طوال الأشهر العديدة للقاءاتنا غير المنتظمة والمتناوبة في بيتي الهرميّ في أوكسفورد وكذلك في بيتها، وفي الفنادق الرتيبة في كل من لندن وريدنغ، وفي فندق واحد في برايتون.

أشاحت النظر. وكأنّ الواردن الـ«لورد رايمر» استيقظ فجأةً من تأمّله الشبِق، فرفع الهراوة بنشاطٍ، وعندما رأى حجم الصمت الكبير الذي حلّ من حوله (حتى الهمسات لم تعد تُسمع، وكان كل الطلاب قد انتهوا من عشائهم الرديء وهربوا منذ بعض الوقت من طاولاتهم المنخفضة آخذين معهم، سكّيناً أو ما شابه، وذلك للتعويض)، قام بحركةٍ مبهمة تنطوي على شيء من الاحتقار، مشيراً إلينا بالمِقبض وقال:

– ماذا دهاكم أنتم؟ أليس لديكم شيءٌ يقوله بعضكم لبعض، ام ملاكٌ مرَّ من هنا؟ – وحين حاول الوقوف، أزاحَ بورِكه (بقرفٍ) صحنه الذي يحتوي على فتيلة اللحم التي لم يمسّها والتي كستها حبّات الحمّص، ثم رمانا بجملة لاتينيّة فظّة من دون أن يقوم بأدنى مجهود للفظها كما يجب، وضَرَب ضربة أخيرة وغاضبة على القاعدة المتلفة، وصرخ مبتهجاً: – التحلية!

في مثل لحظة كهذه، لحظة الأبهة والجمال (البلاستيكي) العظيمة في العشاوات المرفوعة، يُعتبر هذا إشارةً للمدعوّين كي ينهضوا، فيقفون مجدّداً في الصف، وبالتتابع (ولو أن هذا الصف فقَدَ الآن رصانته وأصبح مترنّحاً وفوضوياً) يدخلون الصالون، وهو أقل رسمية وأكثر ترحيباً وحرارةً من صالة الطعام، حيث يتناولون خلال ساعة ونصف الساعة ببطء واعتدال فاكهة الموسم، وفاكهة استوائية، وفاكهة مجفّفة، والبوظة، والحلوى، والتارت، والشراب، والشوكولا الطبيعي، والكعك، ومعجّنات وحبّات الشوكولا المحشوّة مشروبات روحية ونعناعاً، بينما يتناقلون (في اتجاه عقارب الساعة وبسرعة كبيرة) قناني مختلفة أو بالأحرى أباريق من البورتو المتنوّع، النادر والممتاز، والذي لا وجود لمثله في السوق. في هذه المرحلة الثانية من العشاء، وهي أكثر رفاهية، وكأنها تنتمي إلى القرون الوسطى أكثر مما تنتمي إلى القرن الثامن عشر، وهي معروفة محلياً «بأكل الموز على ضوء القمر»، يتبدّل أخيراً المحاورِون، وقد أصبحوا الآن غير مقيّدين بمدة معيّنة للتحدثّ؛ وكلّما كثّف البورتو رغبتهم في التعويض عمّا فاتهم في صالة الطعام وأكمل عملية الإتلاف الكلامي الذي سبق أن

سبّبه النبيذ في المرحلة الاولى، كلّما تحوّل الحوار إلى أحاديث عامة، غير منضبطة، ومتسرعّة، وفوضوية، وحتى فاحشة أحياناً. هذا بالأضافة إلى الاحتمال الضعيف أن يقرر الـ«واردن» (هذا يتعلق، كما كل شيء، بإرادته) أن يشرب نخب الملكة قبل أن يشرب كأسه (والتوقيت هو يعيّنه)، ما يعني أنّه يمكننا أخيراً التدخين. لكن لحظة الأبّهة والجمال (البلاستيكي) العظيمة تحدث لدى الخروج من صالة الطعام، إذ عندما يفعلون هذا، على المدعوّين أن يأخذوا معهم، في أيديهم، المنديل الذي كانوا قد استعملوه، مهما كان مبقّعاً ومدعوكاً؛ أمّا الحركة المستمرّة للقماشة البيضاء الصغيرة (حركة عسكرية بعض الشيء، إذ هم يمشون بالصف) فتتباين وتتمايز بشكل بديع مع الطيران البطيء والفضفاض للثياب السوداء اللامتناهية. وهنا خطرَ لـ«كلير بايز» فكرة هازئة، فاستعملت المنديل بمثابة مَرْيَلة، كاسيةً بذلك تقويرتها أثناء المسيرة. راحت تضحك وأعتقد أنّها ضحكت في اتجاهي. في ما بعد، وإذ كانت جالسة بعيداً، أثناء وقت التحلية، برفقة الشخصية الادبية «توبي رايلندز» وبالقرب من زوجها، كفّتْ عن النظر إليّ. أمّا أنا فأخذتُ أدخّن من دون توقّف، بفضل تسامح الـ«واردن»، الـ«لورد رايمر» غير المتوقّع أو بفضل إخلاصه الملكي.

وفي تلك الليلة بالذات أدركتُ أن إقامتي في مدينة أوكسفورد قد تشكّل بالنسبة إليّ، عند انتهائها، مادة لقصة تحمل الكثير من الاضطراب؛ وكل ما قد حصل هناك، سيحمل على الأرجح وَشْم ذلك الاضطراب العام، لكنه لن يمثّل شيئاً في حياتي ككل إذ هي غير مضطربة: أيّ أنّه سيتحتّم عليه أن يتلاشى وأن يبقى منسيّاً على غرار الروايات أو معظم الأحلام. لذلك أقوم الآن بكل ما في وسعي لأتذكر كلّ شيء فأكتبه، إذ أعرف أنّي إن لم أفعل، قد ينتهي بي الأمر إلى مَحوِه بأسره. كذلك إلى محوِ الموتى، وهؤلاء يشكّلون نصف حياتنا، ذلك النصف الذي سواءً مع الأحياء يكمل معنى الحياة، من دون أن يكون في الواقع من السهل معرفة ما الذي يفصل بينهما ويميّزهما بعضهما عن البعض؛ أعني بذلك ما يميّز الأحياء من الموتى الذين عرفناهم أحياءً. وقد ينتهي بي الأمر إلى محوِ موتى أوكسفورد. موتاي. مَثَلي.

أن تكون قد اتّسمت إقامتي في تلك المدينة بنوع من الاضطراب، لم يكن ينطوي على أية ميزة أو فرادة ما دام كلّ الذين يعيشون هناك هم في حالة اضطراب، أو أساساً مضطربون. وذلك لأنهم غائبون عن العالم، وهذا يكفي عندما يعودون إليه (إلى لندن مثلاً)، لكي يشعروا بالاختناق، فتطنّ آذانهم، ويفقدون الإحساس بالتوازن، وتزلّ أقدامهم ويضطّرون لأن يعودوا بسرعة إلى المدينة

التي تجعل وجودهم ممكناً وتحميهم: فهناك ليسوا حتى داخل الوقت. أما أنا فاعتدتُ أن أكون داخل الوقت، كذلك داخل العالم (في مدريد مثلاً)، وبالتالي كما اكتشفتُ تلك الليلة، كان اضطرابي من طبيعة أخرى، ربّما خلافاً للنموذج العام. فلأنّي كنتُ دائماً موجوداً داخل العالَم (كوني أمضيتُ حياتي في العالم)، رأيتُ فجأةً نفسي خارجه، كما لو أنّي تحوّلتُ إلى مادةٍ أخرى، الماء. قد يكون وعيي الكامل لحالتي المضطربة هذه أتى من فعل تجلّي طفولتي غير المنتظر في نظرة «كلير بايز»، إذ أكثر فترات حياتنا رسوخاً وإقامةً في هذا العالَم إنّما هي فترة الطفولة، أو إذا شئنا، وتحديداً على الطريقة الطفولية، عندما يكون العالم أكثر عالميَّةً، وعندما يكون للوقت الماهيّة الكبرى، وعندما لا يكون الموتى قد تحوّلوا بعد إلى نصف الحياة.

بعد العشاء صعدتُ لبعض الوقت إلى غُرف «كرومر–بلايك» في الكولدج، لأشربَ كأساً أخيرةً قبل الذهاب إلى النوم. وبينما كان يحضّر الأكواب ويفتح قنّينةً بحركةٍ منهجية وواثقةٍ، والثوب الأسود لا يزال عليه، فكّرتُ: «هنا لستُ فقط غريباً لا يعلم أحدٌ عنه شيئاً، ولا يهتم به أحد، ومن سيرته الذاتيّة لا يُعرف الشيء المهمّ والذي بالتأكيد لن يبقى كل حياته في هذا المكان، إنّما أيضاً، وهو الأمر الأكثر أهميّة وحسماً، أن ما من شخص هنا عرفني لا في شبابي ولا في طفولتي. وهذا ما يشوّشني: أن أتخلّى عن العالَم وألّا أكون من قَبل قد عشتُ فيه. ألاّ يكون ثمة شاهد على استمراريّتي، وألاّ أكون سبحت دائماً في هذا الماء. كان «كرومر–بلايك» يعرف أشياءَ عني من قبل مجيئي، وذلك عبر مواطنيَّ من مدريد وبرشلونة الذين علّموا

قبلي في أوكسفورد. أمّا المعلومات فأُعطِيَتْ عندما لم يكن لي وجه بَعْد، إنما اسمٌ فقط. مع ذلك كان هذا كافياً – أيّ الصداقة بالوكالة – كي يتحتَّم عليه مسبقاً أن يصبح هو ارتباطي الأقوى بهذه المدينة، والشخص الذي سأطرح عليه الأسئلة والذي سألجأ إليه دائماً كلّما واجهتُ مشكلةً، أو مرضاً، أو فضيحةً، أو خرقاً خطيراً ما. هو الشخص الذي سأسأله حالاً عن امرأةِ العشاء، «كلير بايز»: وما إن يكون قد ملأ الكأسين وجلس، سأسأله عنها وعن زوجها. «كرومر–بلايك»، بشعره الشائب، وبوجهه الشاحب، بشاربيه اللذين يدعهما ينموان في ريبةٍ مستمرّة واللذين يحلقهما كلّ بضعة أسابيع، وبلفظه الإنكليزي الفريد الذي بحسب معجبيه من الطلاّب يشبه لفظ الـBBC «سابقاً» بلذاعته وتأويلاته البديعة لـ«فايه–إنكلان» Valle Inclán[1]، وبمظهره الأقرب إلى رجل كنيسة مُبعَد، وبانعدام حسّه العائلي، تحتَّمَ عليه أن يكون لي الوجه الأبوي وأيضاً الوجه الأمومي في هذه المدينة، حتى لو أنّه لم يتعرّف إليّ – بطريقة أو بأخرى – لا في طفولتي ولا في شبابي (صرتُ فوق الثلاثين، فلم يعرفني في شبابي). كذلك امرأة العشاء لم تعرف طفولتي ولا شبابي، ولكن، لستُ أعرف كيف، رأت طفولتي وسمحت لي بأن أرى طفولتها، أن أراها طفلةً. مع ذلك أعلم أنّي لن أستطيع الاتكال عليها لتجسيد الوجه الأبوي في هذه المدينة ولا الوجه الأمومي الذي من المفترض أن يكون دائماً متوافراً للجميع وفي كلّ الأزمنة والأمكنة، أيّاً كانت

١– كتاب اسباني

أعمارنا ودرجة استقلالنا. الرجال الأكثر تقدّماً في السن والأكثر مكانةً وسلطةً هم بحاجةٍ، حتى أيامهم الأخيرة، إلى تلك الوجوه. ولكن صعوبة إمكانية تجسيدها أو عدمها في شخصٍ ما، لا ينفي حاجتهم إليها كما لا يجعلهم يتخلّون عن أوهامهم في البحث عنها ولا يدعهم يظنّون أنّها غير موجودة؛ فهم يعون ما ينقصهم: حاجتهم إليها وتوقّعاتهم منها وتخيّلهم إياها.

معتذراً، قدّم لي «كرومر–بلايك» كأساً من شراب البورتو الذي كان أقل جودة من الذي تناولناه أثناء التحلية، ثم جلس في مقعده. أنا كنت سبقته إلى الجلوس، قبالته على الكنبة، وكنت لا أزال أرتدي ثوب المناسبات الاحتفالية. كنّا ثملين، لكنّ هذا لم يشكّل يوماً عائقاً بالنسبة له لمتابعة حديثٍ. فتكلّمنا أحياناً بالإنكليزية وأحياناً أخرى بالإسبانيّة؛ ومرّات أخرى تكلّم كلّ منّا بلغته.

– نخبك قال، وبالكدّ شرب قطرة واحدة من النبيذ. «لم يكن الأمر شاقّاً إلى هذا الحدّ، أليس كذلك؟ ما عدا معمودية خلّ التفاح التي، وأواسيك، لم ينجُ منها أحدٌ في هذا الكولدج منذ بداية العام الدراسي. لا ترَ في ذلك سوء نيةٍ؛ كنتَ أنتَ تقريباً الوحيد على الطاولة الذي لم يكن تعمَّدَ بعد، فلذلك أجلسناك بقربه. «هاليويل» جديد هنا، وهذه بمثابة بطاقته التعريفية، لكنّها للأسف بطاقة طويلة جداً. المشكلة أنه لا يستطيع التخلي عنها، والمسكين ما من أحدٍ يمنحه فرصة ثانيةً.

– لكن على الرغم من كلّ شيء، لم يكن هو الأكثر سوءاً – بادرتُ بالقول؛ لكنّ «كرومر–بلايك»، الذي يرى جليّاً أن جاذبية

تلك العشاوات العالية كانت تكمن إلى حدّ بعيد في التعليقات التي تليها، لم يدعني حتى أقول له ما هو الشيء الذي اعتقدتُ أنه الأسوأ.

- الأسوأ كان «داياناند» - قال بحزمٍ.

كنتُ سأتكلّم عن سلوك الـ«واردن» غير اللائق والطائش وكنتُ سأغتنم المناسبة لأسأل «كرومر-بلايك» عن «كلير» و«إدوارد بايز»، لكن لا شكّ أن كل هذا كان يفتقر بالنسبة إليه إلى الجدّية والأهمية. نظرتُ إليه بينما كان يشرب قطرات من البورتو، وساقاه الطويلتان مشبكتان، يلفّهما ذَيل الثوب طيات طيّات، فبدا لي صورة سوداء متوّجة بالأبيض وضعتها الرفوف التي امتلأت كتباً إسبانية وإنكليزية، في إطار خاص، وكأن تصرّفه هذا، وشكله، وهيئته ومحيطه، تجسّد كلّها تنكّراً جمالياً. لم يكن مظهره يدعو إلى السخرية، وفكرتُ: «ليس للنساءِ (وكل ما يثرنه) أية أهمية في نظر «كرومر-بلايك»، حتى إذا ما مثّلن الأمومة أو حتى مشاعر أبوية أو بنوية. لكن على الرغم من أن هذه الأشكال ضرورية ولا نستغني عنها طوال حياتنا، فهي من جهة أخرى غير قادرة أو مؤهلة لخلق نزاعات أو قلقٍ حادٍ وبالتالي لا تستحق تعليقاتنا بعد العشاوات. من الممكن أن تكون «كلير بايز» وجهاً من هذه الوجوه بالنسبة إلى «كرومر-بلايك»، لكن لا يمكنها أن تكونه بالنسبة إلي، في جميع الأحوال، سوى مصادفةٍ، أو فقط في حال رأت يوماً ما أن أحد هذه الوجوه الأخرى قد سُلب منها نهائياً، أياً كان هذا الوجه - وجه النزاع والقلق - الذي سأنسبه إليها. لكن من يستحقون في نظره التعليقات الشاملة والاستحواذية، بعد العشاوات، هم من الأعداء، وألدّ الأعداء عادة

هم من كانوا أيضاً أصدقاء. قدّم دائماً لي «كرومر-بلايك» «دايانالد»، الطبيب الهندي، كأفضل الأصدقاء، الأمر الذي يخوّله - بجعله الأنسب - أن يكون عدوّاً لدوداً. في ما يتعلّق بالـ«واردن»، فكان «كرومر-بلايك» اعتاد الأمر».

- لم يتسنّ لي أن أتحدث إليه.

- هذا أفضل لك. ألم ترَ كيف كان ينظر إلينا طوال العشاء؟

- بلى، انتبهتُ. تلقّيتُ بعضاً من غضبه، وأعتقد انّه لم يتقبّل أن أتأمّل، أنا أيضاً ومن دون مواربة، صديقتك «كلير».

- لا أظنّ ذلك. فقد نظر إلينا بغضبٍ نحن الثلاثة، الـ«واردن»، وأنت، وأنا. لكن، هل تعتقد أنّه يهتمّ كثيراً بما قد يفعل «رايمر» خلال العشاوات؟ في مناسبات أخرى كان أكثر سوءاً: ففي إحدى المرّات، أثناء التحلية، أصرَّ على صنع قلادة من حصص الليمون الأفندي، وفعل هذا على صدر زوجة عميد كلية «يورك». حصل كل هذا أمام أنظار الجميع، وشعرنا بخجل وارتباك كبيرين، لكن ما من أحد فينا فعل أو قال شيئاً، متظاهرين بأننا لم ننتبه لميل الـ«واردن» المبدع إلى المجوهرات المصنوعة من الفاكهة. بل يجب القول إن العميد تباهى ببرودة دمه، وبقوّته وبهدوئه، وهو يراقب المشهد من عند الطرف الآخر للطاولة وبانتباهٍ وحياديّة، وكأنه يرى فقط الجهة الإيجابيّة للأمر أو كأنّهم يسهّلون عليه مهمّةً حتميّة أو كأنّهم ايضاً يعطونه فكرة جيّدة. أخذ «دياناند» ينفجر ضحكاً في اليوم التالي وهو يتذكّر جسارة عميد «يورك» الخارقة لا بل حتى الجسارة الأكثر كفاءة للعميدة، هذه المرأة الفيّاضة التي دعته يزيّنها بمجوهراته وكلّها

ابتسامة (تلوّنت بالاحمرار) واحتجاجات (تميّزت بالاحتشام)، ليس إلاّ. وهل تعتقد أن «كلير بايز» لم تعرف ماذا كانت تفعل عندما لبست هذا الفستان؟ إنّ اثارة «رايمر» هي إحدى أقدم تسلياتنا. لا، فـ«دايا ناند» رماك بتلك النظرات الغاضبة لأنّك كنتَ ضيفي أنا تلك الليلة، ورمى الـ«لورد رايمر» بالنظرات عينها لأنه يعلم أنّني أُسْدي للأخير في هذه الآونة بعض الخدمات (أو، بالأحرى، أننا نتبادل الخدمات في ما بيننا، نحن الاثنين). أصبحنا مؤخّراً متقاربين ومتفاهمين جداً. فنظرات «دياناند» جميعها كانت موجّهة إليّ، أنا واثق من ذلك. أولاً من خلال وسطاء، ثم من خلال صلبي بمساميره الغاضبة والشائطة. كيف يتجرأ؟

سؤال «كرومر–بلايك» الأخير إنّما طرحه على نفسه.

– ظننتُ أنكما صديقان حميمان.

– أوه، بل نحن كذلك. إضافة إلى أنّه طبيبي، طبيب رائع لا أودّ أن أخسره. ما إن أشعر بألمٍ ولو طفيف في حنجرتي حتى أراني فوراً في مسكنه لكي يضع الملعقة في فمي ويعطيني بعض الحبّات. إنّني مدين له باستمرار لكن ليس إلى درجة أن أضطّر لأن أدفع هذا الدَين من خلال تحمّلي نظرات مجنونة على الطاولة، مع عشرين شاهداً من حولي.

في مناسبات اخرى كنتُ سألتُ على الفور عن سبب تلك النظرات التي أغاظت «كرومر–بلايك» وأهانته إلى هذا الحدّ والتي مع ذلك كان يفهمها جيّداً على ما يبدو، لكنّي كنت على عجلة من أمري لمعرفة شيء عن «كلير بايز» وكنت فقط في انتظار وميضٍ ما،

أثناء الحديث، قد يساعدني على العودة إليها. عندما لم أجده، سكتُّ، اتخذ «كرومر–بلايك»، كما كان يفعل أحياناً، مظهراً جديّاً لم يكن له علاقة بما كان يحيط به أو بما يقوله له مُحدِّثه: كانت هذه الجدّية النابعة منه أشبه بالتصنّع الذي يسبق مشهد مناجاة النفس في المسرح؛ وكلّما تكلّم غرق رأسه في صدره وبدا كأنه يتكلّم لذاته:

– أنا لا أستطيع أن أكيّف ذوقي ورغباتي مع ذوقه ورغباته؛ أعني بذلك تجنّب المطابقة في ما بينهم، لو فعلت لأمضيتُ حياتي مكبَّلاً ومكبوتاً، ومستأذِناً منه كلما أردتُ تسليةً خفيفة أو وقعتُ في هوىً، أي كلما أردتُ اتخاذ أيّة مبادرةٍ في هذه المدينة؛ هذا يعني أنّه عليّ أن أرفض العروضات المثيرة، وأن أترك أفضل الإغراءات معلّقة كي أقترب من مسكنه وأسأله (قبل أن أنجزها) إن كان لديه مانع في أن أحقّق أمنياتي الوشيكة، وإن كان لديه أي اعتراض، وإن كانت أفعالي الجنسية أو حتى عواطفي البسيطة تصطدم بحياته الماضية أو بمشاريعه المستقبلية، وإن كنتُ اجرحه بطريقة استعادية مع مفعول رجعي أو بطريقة استباقية، أو إذا لاحظ، أو فكّر في أن يلاحظ، هذا الوجه الجميل أو ذاك، هذا الجسم الرياضي أو ذاك، الذي هو حالياً في غرفتي وتحت تصرّفي. هذا يدعو للسخرية: هل لديك من مانع، «دياناند» أن أضاجع شخصاً هو الآن عارٍ في غرفتي؟ انظرْ إليه جيداً وتأكّدْ، كي لا تغيّر رأيك في ما بعد. هذا يدعو للسخرية. لكن يجب أن افعل شيئاً، فهو استاء جدّاً. لكن من يظنّ نفسه لكي يتصرّف بهذا الشكل؟ من يظنّ نفسه لكي يطرح عليّ أسئلة مباشرة حول أموري الحميمة؟ من يظنّ نفسة لكي يتكلّم معي بهذه النبرة اليائسة؟ أنا لا

أستطيع أن أكون سبب يأسه، فلستُ السبب. من يظنّ نفسه كي يحاسبني في الشاردة والواردة في نهاية المأدبة؟ هذا أمرٌ لا يصدّق. فليتكلّم مع «جاك». – توقف «كرومر–بلايك» لحظةً للاستراحة، كما لو أن الاسم الذي لفظه هو الإشارةُ الداخلية التي تنذر بنهاية مناجاة نفسه والتخفيف من حدّة هذا الحوار الداخلي وجدّيته؛ مرّر يده في شعره الناعم كالقطن، وأفرغ كأسه بجرعة واحدة، وبينما كان يملأ كأساً اخرى بيَدٍ مرتجفة، أضاف: – إنّه يُجنّ من الغيرة، فهو شخص متعصّب.

الشرب يجعلني مقتضباً في الكلام، لكنّي أستمع جيداً. أما «كرومر–بلايك» فالشرب لم يكن يمنعه من المحاورة، وكان يفعل من دون أدنى تعثّر، لكن من جهة أخرى كان يجعله ينسى موقتاً مع مَن هو يتحاور، فيذكر أموراً لم يكن أصلاً يخفيها عليّ (طبعاً لأنّي لم أكن أنوي البقاء هناك مدى الحياة) لكنّه لَما كانَ ربما فاتحني بها بكل هذه الصراحة لو كان في صحوته. ولو كنت إنساناً سيّيءَ النية (لستُ كذلك)، لكنت قمتُ بالتعليقات المناسبة لكي يحتفظ بمزاجه العكر ويخبرني بالتالي حتى أصغر تفاصيل ذلك الخلاف الذي سبّبه تنافسٌ عاطفي أو جنسي. لكن الصحيح هو أن تلك التفاصيل لم تكن تثير اهتمامي تلك الليلة، على الرغم من أني تساءلتُ حولها مراراً في ما بعد، ليس بدافع الفضول بل لشغف حقيقي بالمعرفة. أردتُ أن أعرف من هو الشخص («جاك») الذي كان يتوق إليه كل من «داياناند» و«كرومر–بلايك» في تلك الفترة، أو بالأحرى، يتوقان إلى الاحتفاظ به؛ أردتُ ان أعرف من كان يمثّل هذا الرابط المهم الذي

جمعهما، إذ من الممكن أن يكون ذلك الشخص الذي بالكدّ أثار فضولي في تلك الليلة من ليالي الشتاء هو من ربطهما مدى الحياة أو حتى بعدها في الممات، وإن كان لا يزال أحدهما من بين الأحياء والآخر قد أصبح في عداد الأموات.

– وماذا عن «إدوارد بايز»؟ هل هو أيضاً شخص متعصّب؟ أو هو بالأحرى مثل عميد «يورك»؟

ضحك «كرومر–بلايك» ضحكة وديعة وموجزة وفجأةً عادَ إليه مرحُ بداية الحديث.

– يمكننا جميعنا أن نكون أحياناً مثل عميد «يورك». إنك تفكّر جدّياً في «كلير».

– في الحقيقة لا. أعتقد أني لا أزال أفكّر في فتاة شابة رأيتها قبل بضعة ايام في قطار لندن ورأيتها مجدّداً البارحة في «برود ستريت». لكن كوني لا أعرف مَن هي، وكوني قد لا أعود أراها إطلاقاً، فمن الجائز أن أستطيع المباشرة في التفكير في صديقتك «كلير». «ما أحمقني»، فكّرتُ، «لماذا لا يمكنني التفكير في أشياء أكثر نفعاً وأهميةً؟ العلاقات غير علاقات القرابة غالباً ما تكون غير مثمرة ومن دون أهميّة، حيث التنوّع المعقول في السلوك تكون نسبته ضئيلة جداً، والمفاجآت مصطنعة، والخطوات هي بمثابة إجراءات رسميّة؛ فكلّ هذا طفوليّ: التقرّب وتحقيقه، والابتعاد؛ كلّية الاشياء والنضال والشكوك؛ اليقين، الغيرة، التخلّي، الضحك؛ كل شيء يُتعب قبل أن يبدأ. إنّني مضطرب بسبب غيابي عن العالَم ولم أعد قادراً على التمييز بين ما يجب أن نكرّس أفكارنا له، وما يجعل تكريسنا هذا مضيعة

مؤسفة للوقت وللذات. إنّني مضطرب، ويجب ألاّ افكّر في تلك الفتاة الشابة كذلك في «كلير بايز». يجب أن أفعل أي شيء في ما يتعلّق بهما ما عدا التفكير فيهما. إني ثمل ومشوَّشٌ؛ ولديّ ما شئتُ من الوقت؛ إنّني أتحوّل إلى أبلهَ في هذه المدينة الجامدة حيث رأيتُني أقيم». اختصرتُ لـ«كرومر–بلايك»، وبصوت عالٍ، أفكاري: – يجب ألا أفكّر فيها، يجب أن أفكّر في أشياء أكثر أهمية. وبشكل خاص التكلم على أشياء أكثر أهمية. اعذُرْني.

– أنت تعتقد أنّ هذه الأشياء موجودة؟ – كان «كرومر–بلايك» قد عاد إلى اتخاذ هيئة رصينة، ولو أقلّ رصانة من قبل، من دون الابتعاد عن الكياسة وعن المزاج الجيّد. تلك كانت تعليقات ما بعد العشاء. كان قد أخرج سيجارة من علبتي التي كنت قد وضعتها على الطاولة فأشعلَها، متعثّراً بقدّاحتي. لم يكن يحمل يوماً تبغاً ولا ناراً. كان يمسك السيجارة وكأنّها قلمٌ. لم يكن يبلع الدخان. لم يكن ماهراً في التدخين.

– حسناً، قلتُ، وأفرغتُ كأس النبيذ باحثاً عن أجوبة؛ أما «كرومر–بلايك» فملأ كأسي مرّةً أخرى. عادت قبضته طبيعيّة. وأنا عدتُ وأشعلتُ له السيجارة جيداً.

– شكراً. لاحِظْني، لاحِظْ «داياناند»، لاحِظْ «رايمر»؛ لاحِظْ «كافاناخ»، لاحِظْ أيضاً «توبي» و«الجزّار»، اللذين نظراً لسنّهم ولطبعهم يعيشون ولا شك عيشة محتشمة. وكذلك «تيد». فأنت لا تعرفهم جلّ المعرفة، أماّ أنا فبلى. إنّني أعرفهم. ما من أحد يفكّر في شيء آخر سوى في النساء وفي الرجال، والنهار بأكمله هو بمثابة

إجراءات ومعاملات نقوم بها لنتمكّن من التوقّف في وقت من الأوقات لتكريس تفكيرنا فيهم؛ وانتهاء العمل او الدرس ليس غرضه سوى التوصّل الى التفكير فيهم، وحتى ونحن معهم نفكّر فيهم، أقلّه أنا. عادة ما نفتح في حياتنا هلالين ولكن مضمونهما، ويا لها من مفارقة، ليس هؤلاء الرجال والنساء إنّما الحصص الدراسيّة والتحقيقات، القراءات والكتابات، المحاضرات والاحتفالات، العشاوات والاجتماعات، والأمور المالية وسياسة الدسائس، أي مجموع ما نعتبره هنا نشاطاً. ما يسمّى بالنشاط المنتج الذي يجلب المال والثقة والتقدير ويؤمّن لنا العيش، والذي يجعل مدينةً أو بلداً ناجحاً ومنظّماً. وتسمح لنا حينئذٍ هذه الحيوية المنتجة بأن نكرّس تفكيرنا لأولئك بكل ما لدينا من قوّة. وحتى في هذا البلد تجري الأمور على هذا النحو، خلافاً لادّعاءاتنا، وخلافاً لِما نحن نحبّ أن نصدّق. فكما ترى، كل هذه الأشياء التي عددتها للتوّ هي ثانوية، أمّا العكس فليس صحيحاً. كل ما نفعله وما نفكّر فيه، وكل ما نحبكه هو فقط وسيلة للتفكير فيهم. حتى أنّنا نشنّ الحروب لنتمكّن من العودة إلى التفكير، لكي نجدّد تفكيرنا الراسخ فيهم (في رجالنا ونسائنا)، أي في أولئك الذين سبق لهم أن كانوا لنا أو يمكن أن يكونوا لنا، ممن نعرفهم أو لن نعرفهم إطلاقاً، أكانوا شباباً أم سيكونون يوماً، من شاركنا فراشنا أو من لن يفعل ذلك أبداً.

– إنّها مبالغة ممتعة.

– ربّما؛ لكنّ هذا هو تحديداً ما أراه في ذاتي ومن حولي. هذا ما أراه في هذه المدينة حيث من المفترض ألاّ يترك الدرس مجالاً ووقتاً

لأيّ شيء آخر. وهكذا سيكون الأمر دائماً. أعرف أنّني حتى عندما سأشيخ، أو أتقاعد ولن استطيع سوى تكريس وقتي لحيازة أمجاد وتشريفات غير صادقة، وللاهتمام بحديقتي، سوف أظلّ أفكّر فيهم وسأقف في الشارع لأتأمّل أولئك اللذين، اليوم، لم يولدوا بعد ولكنّهم يكونون قد كبروا حينها. أنا متأكّد أنّه الشيء الوحيد الذي لن يتغيّر. لذلك، سأفكّر الآن في كل هذه الحدّة. فأصنّع وأخزّن الذكريات للمستقبل مُعِداً لنفسي بعض التنوّع في شيخوختي. ستكون شيخوختي منعزلة، كشيخوخة «توبي». بالمناسبة، من المستحسن أن تتقرّب منه وتصبح صديقه.

– هل عليّ أن أهتم أيضاً بـ«كلير بايز»؟ في من هي تفكّر؟

– أوه، لستُ ادري، تكلّمت على تفكير الرجال، وهم الوحيدون الذين أعرفهم جيداً، وأعرف كيف هم، ولو أنّهم يتميّزون بعضهم عن البعض بفروقات طفيفة من دون اهمية. أفترضُ أن «كلير» سوف تفكّر في زوجها، كذلك في ابنها، ومن دون شك في والدها الذي تربطها به علاقة قويّة وملتبسة، بحسب معلوماتي: فهي علاقة تنطوي على مزيج من الضغينة والعاطفة المطلقة غيرِ المشروطة، والرجاء والسخط، أو ما شابه. أعتقد أنّه بالنسبة لها تكمن الحياة فقط في الرجال، كما هي الحال بالنسبة لي. أمضت طفولتها محاطة بالنساء، كما في مصر كذلك في الهند، ومع ذلك ظلّت تفتقد المرأة الأساسية، والدتها. لكنّها لا تتكلم عن هذا إطلاقاً؛ أقلّه لم تتكلّم يوماً عن أمّها؛ أتصوّر أنها ماتت وكانت «كلير» لا تزال صغيرة جداً، واتساءل ما إذا كانت قد ماتت أثناء الولادة؛ لست ادري، إذ لم

تذكرها يوماً أمامي. أمّا والدها، وهو ديبلوماسي، فكانت تراه قليلاً جداً. وحسبما تخبرنا، كان دائماً إلى جانبها، أثناء طفولتها، مربّية سمراء في فستان طويل: لذلك لا تزال نظرتها تلين وتحنّ كلّما رأت في الشارع إحدى المهاجرات التي لم تتخلَّ بعد عن ثيابها اللافتة للأنظار والقادمة من تلك الأرض التي تركتها وراءها. كانت حياتها غريبة على غرار العديد من الأنكليز الذين لم يكن بلدهم بالنسبة لهم أكثر من إسم، إلى أن عادوا إليه راشدين، أو حين عادوا إليه لأوّل مرّة. أما اليوم فأصبحوا نادرين، وهم صنفٌ على وشك الانقراض. هي قدِمت إلى إنكلترا للتحصيل العلمي وانتهى بها المطاف إلى التعليم هنا. لكنّ هذا ما لا يحدث عادةً. فيحصل معظم طلاّبنا على الوظائف فقط حيث يتوافر فعلاً المال، أي في المراكز الماليّة أو في الإدارة، علماً بأن اكثر ما يتقنونه هو «غوغورا» Góngora أو «سرفانتس» Cervantes. هذا هو امتياز الدراسة هنا: فبعد مرورهم بعذاب أساليبنا واضطهادنا، ولو أقلّ حدّة في كل سنة، يصبحون قادرين على كلّ مهمّة، على الرغم من اقتصار معرفتهم على أوزان الشعر وتقطيعه وعلى تمتمة آراء هشّة في الامتحانات الشفهيّة حول «كالديرون» Calderón أو «مونتان» Montaigne. أولئك فقط، عديمو المهارة في الحياة العمليّة، أمثالي، ينتهي بهم الامر عائدين إلى الكلّية وثوب الاساتذة على أكتافهم. – خلع «كرومر–بلايك» أخيراً ثوبه وهو يقول هذا، وهي لحظة اغتنمت فيها الفرصة لأتخلّص بدوري من ثوبي لأنّني لم أكن أتحمّله في الجلسات غير الرسمية وكنت أحياناً، عندما أرتديه، أرى فيه شبهاً بغيضاً بمشلح بلدي التقليدي،

والذي أُلغي لحسن الحظ. علّق «كرومر–بلايك» وبأناةٍ الأقمشة السوداء وراء الباب وعاد إلى مقعده. لم يتوقّف عن شرب البورتو وإنتقل من سيجارته الأولى التي أخذها من عندي، إلى أخرى كاد أن يشعلها في وسطها. كان يملأ الجوَّ دخاناً لم تكرّره رئتاه، وهو أكثر بهرجة وكثافة من الذي كنت أنا أنفثه (مكرَّراً) من وقت لآخر. كان «كرومر–بلايك» سكرانَ، على الأرجح أكثر مني بكثير، بَيْد أنه ظلّ يتكلّم بكلّ حزمٍ ويُسرٍ كما كان يفعل عندما يريد القضاء على أحد زملائه في جامعة أخرى بدعوته إلى المؤتمرات التي كانوا يقيمونها كل أسبوع في مكتبة الـ«تايلوريانا» (كان قاسياً جداً مع مؤرخي «غارسيا لوركا» Garcia Lorca المكرّسين إذ كان يعتبر هذا الشاعر ابلهَ وغشاّشاً. وقال هذا بكلمات إسبانيّة غير متداولة إذ غالباً ما كان يحب أن يستعمل كلمات عامية قديمة في لغتي – مسألة «كلير» مختلفة، فهي تعرف كيف تتدبّر أمرها جيداً في الحياة وكان يمكنها أن تعمل في المجال الديبلوماسي بكل سهولة مثل والدها الذي كان ساعدها. فلستُ اعلم لماذا انتهى بها المطاف هنا، ربّما من أجل «تيد»)، إذ لا أراها شغوفة حقاً بالتعليم. على الرغم من صداقتنا التي تعود إلى عدّة سنوات، وعلى الرغم من تفاهمنا الرائع، ومن القواسم المشتركة الكثيرة التي بيننا، أظنّ أنّني لا اعرفها جيّداً. ثمة شيء غريب فيها، شيء أكمد أو عَكِرٌ، وكأنّ ماضيها في بلاد الغربة يمنعها من أن يكون لها رؤية مكتملة ويجعلها في النهاية غير واضحة. غالباً ما نستطيع أن نعرف أو أن نحدس عن معظم الاشخاص، وبدءاً من سنٍّ معيّنة، ماذا يريدون أو يقترحون على أنفسهم، ماذا يثير حقاً

اهتمامهم أو على الأقل كيف يحبّون أن يمضوا وقتهم. أمّا في ما يتعلق بها، فلست متأكداً أنّي أعرف عنها هذه الأمور تمام المعرفة. أعترف أنّي فقط أفكّر في الشباب الذين عرفتهم في الماضي والذين أعرفهم الآن أو سوف أتعرّف إليهم مستقبلاً. في الحقيقة أفكّر فقط في ذلك، ولو إنّني أبدو، من خلال نشاطاتي ومهنتي، مهتماً ايضاً بالأدب الإسباني (الذي لا يعني لي شيئاً على الإطلاق، بالأحرى لا يعني لي أكثر من أدبِ أي بلدٍ آخر، بل أقلّ من أدب بعض البلدان) وبالترقية الأكاديمية (لكن ليس من باب الطموح فلا تهمّني في الحقيقة كثيراً، إذ أفضّل الابتعاد عن المخاطر بغية القيام بعملي بشكلٍ مريحٍ أكثر) وبالدسائس التي تحاك باستمرار في هذه المدينة. هذه الأخيرة تثيرني أكثر، وأعترف بذلك، لكنّني لا أكرّس لها وقتي وتفكيري، كما يفعل الكثيرون. في النهاية، الغاية الحقيقية من كل هذه الدسائس هي غاية مادية، قائمة فقط على المال، لكن المبالغ الكبيرة التي تحرّكها الكلّيات هي دائماً مؤسّساتية، وما من أحد يستطيع أن يستولي عليها أو يستفيد منها: أنا مثلاً أتصرّف بمالٍ كثيرٍ، معظمه على شكلِ منحٍ دراسية وأبحاثٍ وأسفارٍ، وذلك بصفتي مستثمراً فحسب، على غرار أمين الصندوق والـ«واردن». فوقعت بين أيدي بعض امناء الصندوق وقراراتهم الملايين من الليرات، بل إضافة إلى ذلك تكرّموا وأكثروها من خلال إدارتهم؛ لكن في ما بعد، كان علينا أن نجمع لهم التبرّعات لنسدّد تكاليف دفنهم. ما إن يتقاعد أحدهم أو يموت، حتى يختفي المال الذي كان يديره ويوزّعه ويرسله ويراه ويلمسه ويزيده، من دون أن يترك ربحاً شخصياً ولا اثراً، وينتقل إلى مستثمر جديد.

ما يهمّ هنا في المطلق، هو المؤسسات، ويمكن المرءَ أن يصبح ذا سلطة كبيرة، كأن يصبح مثلاً عضواً في مؤسسة أو ممّثلاً لها، لكن لا يمكنه الوصول إلى شيء من دونها أو خارجها. من هنا أهمية البقاء على علاقة جيّدة بالـ«واردن»، كي لا نقول بأمين الصندوق. كلّ ما نملكه، وما ننعم به، بما فيه النفوذ اللندني من سياسي ومالي، يدوم دوام مسؤولياتنا أو نشاطاتنا أو حياتنا، ليس الاّ. فأحد الأشياء التي يفتقدها «توبي» أكثر من سواها هي أنّهم باتوا بالكدّ يستشيرونه من لندن. غاية القول أن الإقالة ممكنة، لكن ليس الإرث. ولهذا السبب أعتقد أن العُزْب كثرٌ هنا. فلا يجروّون على تأسيس عائلة إذ يعلمون أنّهم، بعد حياة أمضوها في النظام الصارم والتفاني (ولو أيضاً في النفوذ والثروة)، لا يستطيعون أن يتركوا لهذه العائلة أكثر من معاش أستاذٍ متقاعدٍ، أستاذ جامعي مجهول. أنا أتوق، على الرغم من كل شيء، لأن أصبح يوماً ما أمين صندوق هذه الكلّية. أعرف أنّني لن أتحسّر كثيراً إذا تنازلتُ عن المال عندما سيتعيّن عليّ ذلك. وأعرف خصوصاً انّه لن يكون لي إبنٌ قليل التهذيب أو مدلَّلٌ لكي يلومني على ذلك، أعني على الفقر المدقع الذي سيكون لنا في المرصاد بعد سنوات العزّ. فليس وارداً أن أؤسس يوماً ما عائلة.

«بورسار» Bursar؛ هذه كلمة أوكسفوردية كان يستعملها «كرومر–بلايك» ليسمّي ما كان يحلم أن يكونه. فكّرتُ، «لا يريد «كرومر–بلايك» أن يكلّمني وأن يخبرني أي شيء عن «كلير بايز».
قد يثرثر خلال ساعات حول أي موضوع بطريقة يبدو فيها أنه يكلّمني عن «كلير بايز»، وهذا ما فعل، لكنّه في الحقيقة لم يقل لي شيئاً

بعد مما أودّ أن أعرفه؛ قد يتوصل إلى البوح برغباته الأكثر حميمية وبطموحاته الأكثر صدقاً، قد يتوصّل إلى أن يبوح لي بكل ما لديه من أسرار لا اطلبها منه، شرط ألا يقول لي شيئاً جازماً عن صديقته «كلير بايز». فإذا كان ما يريده هو إلهائي وثنائي عنها، وحمايتها من أية محاولةِ اغراءٍ من قِبلي، فهو مخطئ جداً. فكلّما تجنّب أو تأخّر في إخباري أشياء تهمّني، زاد اهتمامي، وصار أكثر إلحاحاً وتشبّثاً وشموليةً. هذا إلى درجة أنّي أخذت أنسى فتاة القطار، السهلة المنال، الشابة جداً، الشديدة الاستقلالية، وغير المدركة لقوة حضورها. «كلير بايز» ليست هكذا. «كلير بايز» تعلم أكثر عن ذاتها، والمعرفة هي التي تجعل الأشخاص جذّابين، كما تجعلهم قادرين على تدبير أمرهم، وعلى توجيه أفعالهم وإدارتها. ما يثير المشاعر هو أن نفعل ونحن عالمون أن ما نفعله أو ما نتوقّف عن فعله لديه وزن ومعنى. المصادفة لا تثير المشاعر، وما هو بريء لا ينطوي على ايّ وعدٍ سوى الطريقة التي بها سوف يكفّ عن أن يكون بريئاً. قد يكون لـ«كلير بايز» عشّاق، ولو أن «كرومر–بلايك» لا يريد أن يقوله لي، وذلك على الأرجح لمصادقته زوجها واحترامه له أكثر من ميله إلى الكتمان (فـ«كرومر–بلايك»)، وبحسب ما قاله، وأيضاً بحسب ما يحتاجه وما يقدّره، سوف يظل دائماً رهن عدم الكتمان). وهل أبالي أنا بزوجها الذي لا أعرفه – وإذا تمكّنتُ من تجنّبه – الذي لا أنوي التعرف إليه بتاتاً؟ هل أبالي بالروابط القائمة في هذه المدينة التي لا أنتمي إليها والتي لن أبقى فيها؟ ما تأثير، أو ما وزن كل ما حدث قبل وصولي؟ هنا لا أكابد اية مسؤولية، فلم أحضر الأحداث، لم أحضر

شيئاً. هذا المكان الثابت أخذ يتحرّك في اليوم الذي وطئتُ فيه أرضه أوّل مرّة، إلاّ أنّي لم أعلم بذلك سوى ليلة الاضطراب هذه. وبعد أن أغادرَ، هل يبقى لِما يحدث اليوم أية اهمية؟ فلن أترك أي أثر! وهذا الموقع بالنسبة لي هو موقع مرور، لكنه مرور ممغوط وموسّع بما فيه الكفاية لكي يستطيع أن يؤمّن لي ما يُسمّى حُبّاً ما دمتُ أقيم هنا. لا أسمح لنفسي بأن أملك ما شئتُ من وقتي وألا يكون لي مَن أفكّر فيه، إذ لو فعلتُ ذلك، إذا لم أفكّر في أحدٍ إنّما فقط في الاشياء، إذا لم أعش إقامتي وحياتي في نزاع مع أحدٍ أو في ترقّب هذا النزاع أو استباقه، فسوف ينتهي بي الأمر دون أن أفكّر في أي شيء، ودون أن أهتّم بكل ما يحيط بي وما قد يصدر عني. قد يكون «كرومر- بلايك» على حقّ، أقلّه جزئياً: ربّما الشيء الأكثر أذيةً، وأيضاً الأكثر استحالة، هو ألّا نفكّر في النساء (أو في حالته هو في الرجال)، في امرأة، كما لو كان ثمة جزءٌ من دماغنا يستطيع أن يهتم فقط بهذا النوع من الأفكار التي تتهرّب منها بقية الأجزاء وربما تحتقرها ولكن التي من دونها لا تستطيع هذه الأجزاء أن تعمل بخصب وكما يجب. وكأن عدم التفكير في أحدٍ (حتى لو كان هذا «الأحد» أشخاصاً كثراً) يمنع من التفكير في أي شيء، الأمر الذي يحصل على الأقل مع الأشخاص غير الجدّيين. أنا لستُ جديّاً، وفي الحقيقة لا يمكن أن أوخذ على محمل الجد، فأنا شارد التفكير، ضعيف الطبع، لكن قلّة هُم الذين يعرفون ذلك، وبخاصة، لا أحد يعرفه هنا، وعلى الأرجح لا أحد يتساءل حول ذلك. لذا سوف أسأل «كرومر- بلايك» مباشرة، مستفيداً من سَكَرنا ومن أن أسئلة السكارى تحظى

دائماً بالأجوبة، سأسأله فوراً إن كان لـ«كلير بايز» عشاق حالياً؟ أو إن سبق أن كان لديها عشاق؟ إن كانت مغرمة بزوجها؟ إن كان يظن أنه من الممكن أن أنجح في تحويلها إلى الشخص الذي سأفكّر فيه خلال السنتين اللتين سأمضيهما هنا، هاتين السنتين اللتين ستكونان الاضطراب بعينه. ولأنّه قُدِّر له أن يكون الوجه الأبوي والوجه الأمومي فسوف أطلب النصيحة من «كرومر-بلايك» وسأسأله إن كان بإمكاني أن أصبح مستثمر «كلير بايز» خلال هذه الفترة، مستثمراً فحسب، من دون أرباحٍ شخصية ومن دون أن أترك أثراً. سوف أسأله فوراً، وذلك دون العودة إلى جمع أطراف الحديث، بل سأباغته (وهذه ليست طريقة تُطرح فيها الأسئلة في إنكلترا لكن بالتأكيد في مدريد)، حتى لو لفظ «كرومر-بلايك» لتوّه، عدّة مرّات، كلمة «بورسار» وبدا بعيداً ومنحرِفاً عمّا يهمّني أن أعرف. سوف أفاجئه بالسؤال ولن يبقى لديه سوى أن يجيب، نعم أو لا. لا شك في أنه يعرف، ولو أنّي أتوقّع منه أن يقول أنّه لا يعرف».

– هل لـ«كلير بايز» عشّاق؟ – قلتُ، والحقيقة أنّي عندما قلت ذلك لم أكن بعد مستعداً كفاية للكلام، وفلتَ مني السؤال رغماً عني.

– ماذا؟ – قال «كرومر-بلايك»، بلى. لا. لستُ أدري.

عندما يكون المرء وحيداً، ويعيش بمفرده وبخاصّة في الغربة، يعير سلّة المهملات انتباهاً خاصا لأنّها قد تصبح الشئ الوحيد الذي لدينا علاقة ثابتة به، بل أكثر من ذلك، علاقة تواصل واستمراريّة. فكل كيس جديد مصنوع من البلاستيك الأسود، الجاهز للاستعمال، برّاق، وأملس يدلي بشعور النظافة المطلقة وبإمكانيّاتها اللامتناهية. عندما نضعه في مكانه، مساءً، يكون هذا بمثابة تكريس أو وعدٍ ينذر بأنّ «كلّ شيء ممكن». ذلك الكيس، وتلك السلّة، هما أحياناً الشاهدان الوحيدان على ما يحدث أثناء يوم إنسان بمفرده، وحيث تأخذ الفضلات بالتراكم، وهي آثار ذلك الشخص على امتداد النهار، هي نُصْفه المنبوذ، النصف الذي قرّر إزالته واعتمد ألّا يكون له وجود وألّا يحتفظ به لذاته، فهو السلبيّ ممّا أكله وشربه ودخّنه واستعمله أو اشتراه أو أنتجه أو تسلّمه. في نهاية ذلك النهار يكون الكيس في سلة المهملات قد امتلأ واختلط، إلا أنّ ذلك الشخص يكون قد رأى الكيس والسلة يكبران ويتحوّلان ويتشكّلان في مزيجٍ يستحيل عليه تمييزه. لكنّه على الرّغم من ذلك، لا يخفى على صاحب هذه النفايات معناها ونظام تراكمها بل إنّه يدرك أنّ ذاك المزيج العشوائي يشير بالتحديد إلى نظامه هو وتفسيره له. فالكيس والسلة هما البرهان أنّ هذا النهار وقع حقاً (وليس من صنع الخيال)، وأنّه يوم إضافي تراكم على الأيام التي مرّت، وأنّه تميّز بعض الشيء

من النهار الفائت ومن الذي سيلحق به، (مع أنّه في الواقع يشبه الاثنين وهو رابط واضح بينهما). فباتت النفايات إذاً الإشارة الوحيدة، الإفادة الوحيدة أو الشاهد الوحيد على مسيرة هذا المرء، والعمل الفريد الذي يكون قد أنجزه بكلّ تفاصيله. هي خيط الحياة وساعتها. في كل مرّة نقترب من السلة ونرمي فيها شيئاً، نعود ونرى الأشياء التي رميناها في ساعات سابقة فنستعيد الاتصال بها، وهذا ما يمنحنا شعوراً بالاستمرارية: نهارنا مقطع بزياراتنا إلى سلة المهملات، حيث نرى وعاء اللبن المطعَّم بالفاكهة والذي أكلناه عند الفطور، وعلبة الدخان التي عند بداية الصباح لم يكن قد بقي فيها سوى سيجارتين، ومغلفات المكاتيب التي كانت قد اتت عبر البريد، وهي الآن فارغة وممزقة، وزجاجات الكوكا-كولا، وبرش قلمٍ كنّا قد بريناه قبل البدء بالعمل (حتى لو كنا سنكتب بقلم الحبر)، والأوراق المجعلكة التي اقْرَرْنا أنها غير صالحة أو مغلوطة، وحزمُ ورق السيلوفان الذي لُفَّت به ثلاثة سندويشات، وأعقاب السجائر التي أُفرِغتْ عدّة مرّات من المنافض، والقطن المبلّل بالكولونيا الذي رطّبنا به جبيننا، ودهن اللحوم المجفّفة التي أكلناها شاردي الذهن كي لا نتوقّف عمّا نقوم به، والتقارير غير الضرورية التي جمّعناها في الكلّية، وورقةُ بقدونس، وورقةُ حَبَقٍ، وورقةٌ فضّية، ونثارٌ من كل نوع، والأظفار التي قُصَّت، وقشرة إجاصة وقد قَتِم لونها، وكرتونة الحليب، وأنبوب الدواء الذي انتهى، والأكياس الأنكليزية المصنوعة من الورق الخام والخشن الذي يلفّ به بائعو الكتب كتبهم العتيقة. كل غرض يتراصّ ويتكثّف شيئاً فشيئاً، وشيئاً فشيئاً يختفي تحت الرّكام

ويتماهى به ويذوب فيه، وهكذا يتحوّل إلى الخط المرسوم والمرئي – المادي والصلب – لحياة الرجل اليوميّة. أن نغلق الكيس ونربطه ونضعه خارجاً يعني أننا اختتمنا يومنا الذي قد يكون عُلِّم فقط بهذه الأفعال، فعل رمي النفايات وكلّ ما خضع للتشذيب، فعل التخلّي والاختيار وتمييز ما هو غير نافع. نتيجة هذا التمييز هي ذلك العمل الذي يفرض نهايته بذاته: عندما تفيض السلة يكون قد أُنجِز، وعندئذ، فقط عند ذلك الحين، يصبح محتواها حثالةً.

أنا أخذتُ أنتبه يومياً إلى سلة النفايات وإلى عملية تحوُّلها على مدار السنة بعد تلك الليلة التي ذكرتها للتوّ، عندما (ولعدّة أسباب سأتكلّم عنها في وقت لاحقٍ) أصبحت أرى «كلير بايز» أقلّ ممّا كنت أتمنّى (ولم أكن قد استبدلتُها)، وكان عملي في مدينة أوكسفورد قد ضئل إذا جاز القول. كنت أكثر عزلة وأقلّ انشغالاً، وطور الاكتشاف كان قد انتهى منذ وقت طويل. لكن حتى قبل ذلك، أي منذ البداية، كنت أيضاً أنتبه كثيراً إلى السلّة خلال نهايات الاسبوع وذلك لأن الآحاد في إنكلترا ليست في الواقع آحاداً عادية وباهتة كالتي، كما في كل مكان، يجب أن نمضيها على رؤوس أقدامنا ومن دون أن نزعجها أو نعيرها أي اهتمام، إنّما هي آحاد نُبِشَتْ من الأزل، كما قال «بودلير» Baudelaire على ما أظنّ. خلال بقية ايام الأسبوع، وعلى الرغم من واجباتي القليلة، كان لديّ تسليات اكثر، وإحداها، والتي لا تغيب بتاتاً عن هذه المدينة (وقد تتحوّل إلى التسلية الرئيسية لِمن يُدمِنها)، تكمن في البحث عن كتبٍ نافدة وقديمة ونادرة، لهاوٍ يحب جَمع الكتب بشغف مَرَضيّ وشاذ. فمكتبات الكتب القديمة،

شرط أن تستهوينا، هي بمثابة الجنّة المنعزلة والمغبّرة في إنكلترا، ومن روّادها، أولئك «الجنتلمانات» الأكثر شأناً في المملكة: التنوّع والوفرة اللذان نجدهما فيها، والغنى اللامحدود لِما تحتويه، السرعة التي يتجدّد فيها كيانها، واستحالة استكشافها بدقّة، والسوق الضيّق الآفاق لكن القوي والنشيط الذي تمثّله، كلّ هذا يحوّلها باستمرار إلى ميدانٍ مفاجئ ومكسِب. خلال السنتين اللتين أمضيتهما بين التجوّل والصيد ويداي مكسوّتان بالقفاز كي لا تتغبّرا، وجدتُ روائع من الصعب العثور عليها، بأسعار زهيدة، أمثال الأجزاء السبعة عشر للطبعة الأولى، الفريدة والكاملة، لترجمة «ألف ليلة وليلة» للـ«سِير ريتشارد فرانسس برتن» Richard Francis Burton (المعروف أكثر مِن قِبل أصحاب المكتبات بالـ«كابتن برتن»)، التي راحت تُنشر في ما بعد، ومنذ أكثر من قرنٍ، في طبعة محدودة الكمية ذات الألف نسخة المرقّمة، كلّ جزء على حدة، فقط لمنتسبي نادي «برتن كلوب» ومع الالتزام (لم يُخرق يوماً) بألا يُعمل على توسيع هذه الطبعة ولا على تكرارها: في الواقع، لم يُعَد طبع هذا النص الفيكتورياني الغزير كأعمال كاملة إطلاقاً، إنما طُبع منه فقط مختارات أو طبعات هجينة، وفي ادّعائها كاملة، لم تكن في الواقع سوى طبعات منقّحة، أي حُذف منها كلّ ما اعتُبر آنذاك (او ما اعتبرته زوجة «برتن») فاحشاً. لذا يتحتّم على صياد الكتب انّ يكرّس نفسه للتخصّص في ما يتعلّق بطرائده الرئيسية، فيحقّق فيها ويبحث عنها بتشبّث كبير؛ ولكنّه يرى نفسه في الوقت عينه متساهلاً أكثر فأكثر في ما يتعلّق بمصالحه واهتماماته، بل وكأنه يزداد انفتاحاً شيئاً فشيئاً كلّما تفشّت فيه، أول

بأوّل، جرثومة هواية جمع الأشياء القديمة. هكذا كان الأمر في ما يخصّني، وبينما أخذ فضولي يكبر ويتسع،كان ثمة خمسة كتّاب أو ستة قرّرتُ تحويلهم إلى الهدف المنهجي والأساسي لأبحاثي، لكن دون أن تطغى، في عملية اختياري هذه، رغبةُ قراءة كتبهم واقتنائها على الشعور بصعوبة العثور عليها. هم مؤلّفون ثانويّون، غريبون، مغبونون، منسيون، أولم يحظوا اطلاقاً بالتقدير، أو قلّة هم الذين يعرفونهم، لا بل أيضاً لا يُعاد طبعهم في بلدهم الأمّ؛ وأحدهم ذلك الآتي من بلاد الغال، «آرثر ماشن» Arthur Machen، وهو أكثرهم شهرة وأقلّهم ثانوية (لكن يجدر القول أنه حظي في بلدي بشهرة أكبر بكثير ممّا في بلده)، هذا الكاتب الغريب ذو الأسلوب المرهف والفظاعات الحاذقة والذي، وفي تحقيق أُجري على خمسين أديباً بريطانيّاً خلال حربنا الأهليّة، تبيّن أنه كان الوحيد - ربما كي لا يتراجع عن تصريحاته حول تناغمه مع الهول الأكثر نقاءً - مَن أعلن تفضيله لخندق «فرانكو». وعلى الرغم من شهرته، ليس من السهل إيجاد كتبه في نسختها الإنكليزية الأصلية، لا بل الأصعب من ذلك هو إيجادها في طبعاتها القديمة التي تحظى بتقدير كبير لدى هواة جمع الكتب العتيقة، بحيث إنه بدءاً من لحظة معيّنة، ولأنّه كان يصعب عليّ ايجاد عدد كبير من العناوين التي لا تزال تنقصني، طلبتُ من بعض أصحاب المكتبات أن يحجزوها لي في حال وقعوا عليها في طريقهم، لا بل أن يفعلوا ما في وسعهم لتأمينها لي.

لا يزال بائعو الكتب القديمة الإنكليز يسافرون عبر بلدهم، فيزورون المكتبات البالية في مدن نائية وقرى بعيدة، متوجّهين إلى

البيوت الريفيّة (قد يجدون كتباً مات صاحبها وتركها وراءه لحفنة أولاد وأحفاد لا يقرؤون)، أو ساعين جهدهم للإفادة من مزادات علنيّة محليّة زهيدة، دون أن يفوتهم كذلك أي معرض ريفيّ للكتب، مرتجل وعفويّ (هذه المعارض غالباً ما تقام في أمكنة أمثال ثكنة رجال الإطفاء، أو في مدخل فندق لا يحتشد فيه الزبائن، أو في رواق كنيسة). فيسافرون ويحقّقون ويبحثون بلا توقّف، ولهذا السبب كان من المنطقي أن نخبرهم عمّا نريد الحصول عليه، إذ من الجائز جداً ان يَجِدوه. بين بائعي الكتب اولئك الذين تعاملتُ معهم كثيراً، كان ثمة رجل وزوجته من عائلة «ألاباستر» Alabaster قد ساهما بشكل ملحوظ في إضافة الغرابة إلى مكتبتي. كان محلّهما صغيراً، مريحاً ومعتماً، ساذجاً وغير صحّي، أي أنه كان مزيجاً من إلفة المكان وهوله، فيه رفوف جميلة من الخشب النبيل، مقوّسة كلّياً وبالكدّ مرئية بسبب وطأة الوزن والفوضى المجنونة لآلاف الكتب التي كانت تخنقها وتدفنها أكثر مّما كانت تملأها. كانا يربحان مالاً وافراً كما أظن. داخل ذلك المحلّ العفن، المعفَّر والمعتم، والذي ينيره حتى في ساعات الصباح الأكثر وضوحاً مصباحان تحميهما شاشة زجاجية، كانت تلمع من تلقاء ذاتها آلة تلفيزيونية، تسمح لهما وضمن حلقة محكمة الإغلاق، بأن يريا الطابق السفلي تحت أرضيّة الدكّان وما يجري فيه تحت لمبته الوامضة والوحيدة من دون أن يحتاجا إلى نزول الدرج أو صعوده كلّما تجرّأ شارٍ على استكشافه. يبدو أن ذلك الرجل وزوجته – وكأنهما يريدان الاشتراك في الحداثة على الرغم من بضاعتهما المناقضة لها – يمضيان يومهما في التطلع

عبر التلفزيون (بالأبيض والأسود) إلى ما كان جاثماً على بعد أمتار قليلة تحت أقدامهما (بالألوان). كانت السيدة «ألاباستر» بشوشة ومتسلّطة، إنما ذات ابتسامة إنكليزيّة لطالما رأيناها تفيض في السينما على وجوه أولئك القتلة المشهورين، ذوي هذه الجنسية بالذات، لحظة اختيارهم ضحية جديدة. كانت في منتصف العمر، شعرها شائب، نظرتها حادّة وأسنانها متراصّة، وكانت تضع دائماً شالاً من الصوف الزهري اللون؛ وعند جلوسها أمام الطاولة، كانت تكتب باستمرار في دفترِ محاسبةٍ ضخمٍ. ويمكننا الاستنتاج من خلال نشاطهما المتواصل، الذي كان ينقطع (باستمرار) ليُراقبا، بانتباهٍ واهتمام، من خلال آلتهما، الطابق السفلي للمكتبة (وهو تقريباً دائماً فارغ، ويفتقر دائماً لأي حدثٍ يذكر)، إن كمية المال التي كان يديرها الزوجان «ألاباستر» كانت على الأرجح هائلة، وكانت إشارات وشروحات هوامش الدفتر معقّدة. السيد «ألاباستر»، أي زوجها والصاحب الأصلي لهذا الاسم، كان أيضاً بشوشاً، لكن ابتسامته تتجاوب بالأحرى مع ابتسامة ضحية القاتل المجهولة قبيل أن تعلم أنها ستكون الضحية. كان رجلاً انيقاً (ولو لم يكن لباسه رسمياً) ومرحاً، شعره شائب ومصفّف بتأنٍّ وترتيب، وهيئته هيئة «دون جوان» يقول ولا يفعل (هو من أولئك الذين وبسبب أصولهم الاجتماعية أو بسبب زواج مبكّر وصارم، لم يتسنّ لهم أن يتحققوا من سحرهم وجاذبيتهم) والذي لم يتخلَّ عن التأنّق في المظهر ولا عن رائحة الكولونيا القادمَين معاً من سنواته الأقل افتراضيةً. لكنّ على الرّغم من وجوده هناك بشكل دائم، لا أذكر أنّه ردّ ولو مرّة واحدة

على أجوبتي وعلى استشاراتي. كان يبتسم ويلقي تحيّة الصباح كرجلٍ نشيطٍ وروحاني (كان كل تصرّفه مِقداماً)، لكنه كان يحيل كل موضوع أو إجابة، مهما صَغُر شأنهما، إلى معرفة زوجته وسُلطتها المطلقَتين. كان يستدير نحوها ويكرّر بحيوية – متبنّياً إياه، كما لو كان هو المهتمّ بأن يعرف – السؤال الذي طُرح للتوّ عليه، وبحذافيره («هل وصلنا شيء من «فرنون لي» Vernon Lee، حبيبتي؟»)، مكتفياً بإضافة «دارلينغ» Darling في النهاية. وإذ كانت هي تستفيد من الطاولة ومن المقعد المريح، كان عليه أن يرضى بالجلوس على إحدى درجات السلم المتنقّل الذي كنت، وعلى الرغم من شعوري بالذنب، أطرده منه باستمرار بحجّة أنّي أريد التفتيش والتنقيب في الرفوف المنسية والتي يصعب بلوغها. كان يظلّ واقفاً إلى أن أنتهي من مهمّتي في الأعالي: عندئذٍ، وبعد أن يمرّر قماشةً، فقط على الدرجة التي يستعملها مقعداً له، كان يجلس عليها بكل هدوء. كلّ مرّة كنت أدخل عليهما كنت أجدهما في الموضع والأهبة عينهما، حيث هي تدقّق في حساباتها في دفترها الكبير أو تراقب الشاشة بعينيها الحادّتين، وهو يتكّئ نصف اتكاءٍ على السّلم المتنقّل، مكتوف الذراعين (لم أرَه يوماً يقرأ أحد كتبه أو يتصفّح جريدة، ولا يتحدث حتى مع السيدة «ألاباستر») وفي موضع الانتظار، ملقياً نظره كذلك على الطابق السفلي (بطريقة غير مباشرة) عند ازدحامه. كانت الفرحة والترحاب اللذان يستقبل السيد «ألاباستر» بهما، من موقعه الخامل والتبعي هذا، أي شخص يدخل، تدُلاّنِ على أن مجرّد ظهور هذا الشخص عند باب الدكّان، هو بمثابة الحدث الأهم بالنسبة

له. وكان دفق سلامه الحار بدوره يدلّ على أن هذه اللحظة هي الأكثر إجلالاً خلال نهاره. إذ الصحيح هو أنه سرعان ما يرى نفسه، كما سبق وقلت، عاجزاً عن الأجابة عن أبسط الأسئلة أو حتى عن أن يدلّ بأصبعه («هل لدينا فرع لدليل المسافر، حبيبتي؟») إلى الرف المناسب لِما يبحث عنه الشاري. وبينما كان مأخوذاً بالمراقبة التلفزيونية للسرداب، تساءلتُ عمّا إذا كان في وسع الزوجين «ألاباستر» رؤية ما هو غير مرئيّ. فغيرَ من مرّة، وأنا أفتّش في السرداب، تفحّصتُ الزوايا والأرضية أكثر مما تفحّصتُ الكتب، آملاً أن أكتشف حيواناً صغيراً جداً قد يكونان خبّآه هناك أو أن أسمع التنفّس الضعيف لشبحٍ ما. لكنّني لم أرَ ولم اسمع يوماً شيئاً، بحيث إنّي عندما كنت أنزل إلى ذلك الطابق المليء بخيوط العنكبوت للتنقيب وسط الغبش، كنتُ أتصوّر الزوجين «ألاباستر» متحمّسين وحابسين أنفاسهما عند ظهور وجهي - الذي رأياه للتوّ في الطابق العلوي - على شاشتهما المضجرة، وفي أكثر من مناسبة استهوتني فكرة القيام بحماقات أو بسرقةِ مجلّدٍ بغية تسليتهم بعض الشيء أو تخويفهم. لم أفعل شيئاً من هذا، لكنّي في المقابل سعيتُ للّهْوِ هناك جاعلاً تحرّكي ممتعاً، متنقلاً في السرداب بسرعة وبطريقة لا منطقية، خالعاً ولابساً قفّازي بصورة متكررة، فاتحاً وغالقاً معطفي، مملّساً شعري، مفتعلاً ضجة كبيرة عند نفضي الغبار عن الكتب، ومتصفّحاً إياها بشكل استعراضي أو بانتباهٍ، ومسجّلاً بعض الملاحظات في دفتري، ومطقطقاً الأرض بحذائي متظاهراً بفراغ الصبر أو بالريبة، فأسعل، وأتنهّد، وأتمتم، وأهتف بعبارات تعجّبٍ بالإسبانية مقدّماً لهما بذلك أكبر تنوّع ممكن

ضمن هذا المشهد الضيق الذي من دون شك اقتبسته من أجل تلك العيون الأربعة (اثنتان منها بريئتان والأخريان منحرفتان) التي كانت تتفحصني بينما أصطاد الكتب.

بُعَيد إعلاني لهما عن اهتمامي بأيّ عنوان لـ«ماشن» قد يقعان عليه (على الرغم من أنّهما في الحقيقة، وكما يبدو، لم يبتعدا ميلاً واحداً عن مدينة أوكسفورد)، لاحظتُ، خلال عدّة أيام وأنا في بحثي عن هذه الكتب، شخصاً كان يقوم على ما يبدو، مع تأخيرٍ بسيط، بمسيرتي نفسها. رأيته ينقّب في المكتبة الضخمة لتاجر الاشياء العتيقة «واترفيلد» Waterfield، وفي الطابق العلوي والغامض في دكّان «ساندرز» Sanders للحفر والنقش، وعند «سويفت» Swift و«تايتلز» Titles القريبين من «تورل ستريت» Turl Street، وفي فرع الأشياء المستعملة في متجر «بلاكويلز» Blackwell's الهائل والمليء بكل أنواع الكتب، وفي الطبقات الثلاثة عند «ثورنتون» Thornton's، وفي مكتبة «أرتيميس» Artemis البعيدة، كذلك في مكتبة «كلاسيك بوكشوب» Classic Bookshop الصغيرة جداً والمتخصّصة بالنصوص الإغريقية واللاتينية. لا أعتبر نفسي مراقباً سيئاً، لكن تمييزي ذلك الرجل لم يكن ناتجاً من ايّة جدارةٍ من قِبلي: كان هو بحدّ ذاته فريداً بما فيه الكفاية، لكن أكثر ما كان يلفت الأنظار هو الكلب الذي دائماً يرافقه والذي كان يبقى في الخارج منتظراً عند باب المكتبات. كان كلباً جميلاً، من فصيلة الـ«تيرييه» Terrier لونه بين الاسمرار والاحمرار، في وجهه يقظة وحيوية، وكانت إحدى قوائمه – القائمة اليسرى جهة الخلف – مبتورة إنّما

بمهارة. لهذا السبب كان ينتظر دائماً وهو ممدَّد، ولكن سرعان ما كان يقف عندما يحدس بخروج أحدٍ من المؤسسة التي كان قد بقي مربوطاً عند بابها، ظاناً، كما أعتقد، أنّ مَن يخرج هو صاحبه هاوي الكتب. وكَوني اعتدت أن أصل قبله إلى المكتبات، اعتدتُ كذلك الخروج قبله منها، وكل مرّة كنت أفعل ذلك كان الـ«تيرييه» ينهض، كاشفاً عن جَدَعته الصغيرة والملساء كزِعنفةٍ توقّفت عن النمو. كنت ألامس رأسه فيعود ويجلس. لم اسمعه يوماً يعوي او يئنّ حتى لو أمطرت او عصف الهواء؛ لم أرَه يوماً يقوم بحركة سيئة. أما الرجل الذي يرافقه، وهو تقريباً في سنّي، فلم تكن تنقصه أيّة قدم، لكنه كان يحترم المبدأ القائل بأن على أصحاب الحيوانات أن يتشابهوا نوعاً ما مع حيواناتهم، فكان عنده عَرَجٌ بائن، وفي الساق اليسرى أيضاً. حتّى لو لم أستطع أن أراهما معاً خلال اليومين أو الثلاثة الايام تلك (الرجل دائماً في الداخل والكلب في الخارج)، كان الربط بينهما سهلاً، وتكرار حضورهما كان يُبعد أي شكّ حول هذا الربط. كان لباس الرجل جيداً ولو فقيراً بعض الشيء، وكان يعتمر قبّعة غير متكلّفة، وكانت ألوان بشرته وشعره تدلّ على انتمائه الإيرلندي. كنت قد لاحظته – ليس كثيراً، لكن حتماً – داخل المكتبات، إذ حتى في أكبرها حجماً وأكثرها متاهةً تصادفنا معاً في لحظة معيّنة ونحن نتفحّص الرفوف عينها. كنّا فقط قد تبادلنا نظرات خاطفة ومجرّدة، أي محجّبة. لم يخطر لي، ولو لحظةً واحدة، أن أفكّر في أنه سيكون لهذا الشخص علاقةٌ ما بخطواتي غير المتوقّعة، بل لم أفكّر على الإطلاق أنه كان يتبعها، ولو بدا غريباً، على الرغم من أنه يسهل

تمييزه، ألاّ أكون رأيته على الإطلاق قبل تلك الايام، أو حتّى في نزهاته عبر المدينة؛ وها إنّي ألتقيتهِ الآن بما يكفي لكي يقلقني بشكل طفيف وموقّت كلٌ من جسده وجسد كلبه المطعونين، على الرغم من أنّهما لا يلفتان حقاً الأنظار. ربّما كانا غريبين وعابرَي سبيل؛ ربّما كان صاحب مكتبة يتجوّل في أوكسفورد.

في إحدى تلك الآحاد المنبوشة من الأزل كنتُ أعمل صباحاً في بيتي الهرميّ الشكل وغير الحفيّ، ومن وقتٍ لآخر كنت أرفع عينيّ عن أوراقي لأنظر عبر النافذة، كما اعتدتُ أن أفعل في ذلك اليوم من الأسبوع، إلى بائعة زهور غجرية، شابة وظريفة، واعتادت، وهي في جزمتها العالية وسروالها الجينز وسترتها المصنوعة من الجلد، أن تجلس أيام العطلة على الرصيف المقابل - حتى لو فاضت مياه الأمطار أو أثلجت - وأحياناً كنت اشتري منها باقةً كي أتبادل معها كلمات قليلة في غمرة منفاي. عندما رفعتُ نظري المرَّةَ الألف خلال استراحة وجيزة، رأيت الرجل والكلب، صاحبَي العَرَج، يتقدّمان من جهة الشارع الذي يسمّونه «سانت جيلز» Saint Giles، حيث كان الأول يظهر عيبه بوضوح، والثاني يخفيه بشكل بارز. كانا يسيران على الرصيف الآخر، واستطعتُ أن أرى مطوَّلاً كيف كانا يقتربان، وهما يعرجان، من دكّان الزهور حيث توقّفا. «يخرج الرجل يوم الأحد»، فكّرتُ، «عندما تكون كل المكتبات مقفلة». رأيته يخلع قبّعته لكي يشتري أو لكيّ يتحدّث إلى الفتاة وعدتُ وركّزتُ عينيّ على مهمّتي الجامعية المضجرة. بعد ذلك ببضع ثوانٍ رنّ جرس بيتي، واعتقدتُ أنها ربما بائعة الزهور طالبةً منّي كوبَ ماءٍ، كما كانت

تفعل أحياناً لتحصل، بدلاً من الماء، على الكوكا-كولا أو البيرة، لكنّني عندما رفعتُ نظري قبل أن أنزل تحقّقتُ أنّها كانت لا تزال جهة الطريق. فنزلتُ وفتحتُ، وإذا بالرجل ذي الكلب بلا القائمة اليسرى الخلفية يبتسم لي بخجلٍ عند أسفل درج المدخل وقبّعته البنّية في يده، لاصقة على صدره.

– صباح الخير، قال – اسمي «ألان ماريوت» Alan Marriott. كان عليّ أن أتصل بك. لكن ليس لديّ رقمك بل عنوانك فحسب. كما أنّه ليس لديّ هاتف. أودّ أن أتكلّم معك لحظةً. إن لم تكن مشغولاً كثيراً. انتظرتُ الأحد. فهو اليوم الذي يكون فيه الناس اقلّ انشغالاً مما هم عليه في سائر الأيام. إجمالاً. – هل يمكننا أن ندخل؟ كان يتكلّم، واضعاً علامات الوقف لكل جملة، ومُقّلِلاً من استعمال روابط النسق فيها، وكأن لغته أيضاً تعاني من العَرَج. لم يكن يضع ربطة عنقٍ إنما بدا وكأنه يضعها، ربما بسبب تأثير القبّعة، أو لأنّ قميصه كحليّ قاتم اللون ومزرّر حتى العنق. لم يكن يبدو جامعياً على الإطلاق، ولا فقيراً ولا عاطلاً عن العمل. كان ثمة خاتمان (كان قليل الذوق) يلمعان في اليد الممسكة بالقبعة. وكان فيه شيء بائس وغير مكتمل، وقد يكون هذا الانطباع نتيجة العرج.

– هل تمانع في أن تقول لي ما هو الموضوع؟ إذا كان شيئاً دينياً فليس لديّ الوقت.

– أوه، لا. ليس دينياً على الإطلاق. إلّا إذا كان الأدب يُعتبر هكذا. ولا أعتقد ذلك. إنه يتعلّق بالأدب.

– ماذا حدث للكلب؟

– شجارٌ.

– حسناً. اصعد وأخبرني.

جعلتهما يدخلان وأخذتهما نحو الدرج اللولبي، لكن قبل أن يبدأ بالصعود، وكأنه يعرف البيت أو يتخيّله، خطا الرجل الأعرج خطوة نحو المطبخ وسألني بتهذيب:

– هل أترك الكلب في المطبخ؟

نظرتُ إلى هذا الثلاثي القوائم المسكين، المطيع جداً والمسالِم.

– بل دعه يصعد، فهو يستحق التقدير. سيكون مرتاحاً أكثر معنا.

في الطابق العلوي، أي الثاني، حيث كانت غرفتي التي استعملها كصالة استقبال ومكتب في آنٍ، لم يستطع الرجل سوى أن ينظر فوراً نحو الكتب القليلة التي كنت اقتنيتها في أوكسفورد والتي كانت بالكدّ تملأ رفّين (بين فترة وأخرى كنت أبعَث إلى بيتي في مدريد طروداً ضخمة من الكتب التي كنت قد أشتريتها). سألته، بلياقتي اللاتينية التي لم أنجح حتى الآن في التخلّي عنها، إن كان يحب أن يشرب شيئاً، وكان جوابه بالنفي، وذلك لتفاجؤه بعرضي وليس لعدم رغبته في تناول شيء. كان يشعر بأنه دخيل، وهذا بان عليه بوضوح. جلستُ على الكرسي حيث كنت أشتغل وتركتُ له الأريكة. لم يخلع معطفه عند جلوسه، وكان أصلاً مجعلكاً. تمدّد الكلب عند قدميه.

– ما الذي حدث له؟

– اعتدى عليّ بعض الزقاقيين في محطة «ديدكوت». راح الكلب

يدافع عني. عضَّ واحداً منهم. ألحق به الأذى لكنه لم يفلح في تدبّر أمره. فتعاونوا في ما بينهم وأخذوه ليضعوه على سكة القطار الذي كنا ننتظره. بعيداً عن أرصفة المحطة. وكانوا قد أمسكوا بي كذلك. وسدّوا فمي. حدث ذلك ليلاً في ساعة متأخّرة. وكان هدفهم أن يقسمه القطار إلى نصفين. نصفان مقصوصان في الطول. لكن عندما وصل القطار لم يتجرّأوا على البقاء حتى النهاية وأيديهم قريبة جداً من السكّة. لم يكن ذلك القطار ينوي تخفيف سرعته. ولم يتوقّف. فلم يكن قطارنا. أما الكلب فانقلب لكنه لم يفقد سوى قائمته. لا تستطيع أن تتصوّر كم نزف. هم أخذوا يركضون مذعورين في أرجاء الحقل. أنا تلقّيتُ فقط بضع ضرباتٍ بالعصا. أماّ عَرَجُ ساقي فبسبب شلل الأطفال. أُصبتُ به وأنا طفل.

– لم أكن أعلم أن محطة «ديدكوت» خطرة إلى هذه الدرجة.

– فقط أيام مباراة كرم القدم. وكان ذلك عندما بلغ فريق «الأكسفورد يونايتد» المرتبة الأولى، لكن أطمئنك، لن يربحوا دائماً.

لم أستطع سوى أن أربّت على ظهر الكلب الذي ظلَّ مع ذلك في لامبالاة تامة.

– هل كان صيّاداً؟

– أجل. لكنه لم يعد يصطاد.

– صياد كتبٌ، ربما – قلتُ دون أن أعرف ما إذا كان يجب أن أقوله.

ابتسم الرجل ابتسامة خفيفة. كان انيس الوجه، وعيناه الزرقاوان شديدتي الشحوب وكبيرتين؛ وكان أحوَل بعض الشيء.

كان من الصعب النظر إليهما لمعرفة في أي اتجاه تنظران، وذلك بسبب شفافية قزحيتهما أكثر ممّا بسبب حَوَلهما.

– صحيح. عفواً. فالسيدة «ألاباستر» هي التي كلّمتني عنك. هي أعطتني عنوانك.

– السيدة «ألاباستر»؟ آه، حقاً، كنت قد أعطيتها إياه حتى تُعلِمني في حال وجَدَتْ بعض الكتب. لستُ أعرف ما إذا كان عليها أن تعطيك اياه.

– صحيح. أعرف ذلك. لا تنزعج. عليك أن تعذرها. هي تعرفني جيداً. كلّمتني عنك وأحببتُ كثيراً أن اتعرّف إليك. والحَحْتُ عليها كثيراً. مؤخراً رحتُ أتبعك عبر المكتبات. لم أُرِدْ ان أتوجّه إليك في الشارع. قد تكون لاحظتَ ذلك.

– تتبعني؟ لماذا؟

– لأرى ماذا تشتري وكيف تشتري. كم من الوقت تكرّس لتنقيب الرفوف؟ وكم تنفق من المال؟ وعلام تنفقه؟ أنت اسباني، أليس كذلك؟

– صحيح، من مدريد.

– هل «آرثر ماشن» معروف هناك؟

– تُرجمت له بعض الأشياء. كتب عنه «بورخس» Borges ومدحه كثيراً.

– لستُ أعرف من هو «بورخس». ليتك تعطيني المرجع. إنّما من أجل «ماشن». من أجله جئت لأراك. قالت لي السيدة «ألاباستر» إنك تبحث عن كتبٍ له.

– هذا صحيح. هل تستطيع أن تؤمّن لي كتاباً على الأقل؟ لم أجد كثيراً حتى الآن. أنت بائع كتب.

– لا. لكنّني كنت كذلك بعض السنوات. ليس من السهل اليوم العثور على كتبٍ لـ«مَاشن». أنا عندي معظم كتبه لكن طبعاً ليس كلّها، وأتمنى أن أقتنيها كلّها. فإذا وجدتَ عنواناً لا يهمّك أو كان في حوزتك، اشترهِ لي من دون تردد. إن لم يكن ثميناً. وفي أي حال دائماً أجد زبائن لهذه الكتب. كذلك لم أعثر يوماً على Bridles and Spurs. إنها أبحاث. نُشرت في أميركا. – سكتَ «ألان ماريوت»، ولأنّي لم أقل شيئاً، خاب واضطرب بغتةً. أخذ يقلّب قبّعته البنّية بيديه الاثنتين. وراح ينظر إلى الارض، ثم نحو النافذة. تساءلتُ إن كان يرى بائعة الزهور من مكانه. لكنّه لم يكن قادراً على رؤيتها. عاد وسوّى معطفه. تثاءب الكلب. وأخيراً قال ماريوت: – هل سمعتَ أنتَ عن «ماشن كومباني» Machen Company ؟

– لا. ما هذا؟

– لا أستطيع أن أقوله لك بعد. أردتُ أن أعرف إن كنتَ سمعتَ عنها. وكّي أتكلّم عنها عليّ أن أعرف أولاً ما إذا يهمّك أن تشارك فيها. ليس عندنا أحد في إسبانيا. ولا في أميركا الجنوبية. أنت سوف تعود إلى إسبانيا، أليس كذلك؟

– نعم، بعد سنة ويزيد، ليس عند نهاية هذا الفصل الدراسي، إنّما الفصل القادم.

– لسنا على عجلة من أمرنا.

– في أي حال أنا في صدد إجازات من وقتٍ لآخر. أعلّم في

الجامعة هنا. إسمع، يصعب عليّ أن أجزم في شأن مشاركتي في أمر أجهل قوامه ومضمونه.

– طبعاً، أفهمك. لكن الامر كذلك. ما يهمّ هو الإسم. ردّة الفعل أمام الاسم. يتفاعل الإنسان دائماً إزاء الاسماء. فهي تعني الكثير.

– هل يمكنك أن تقول لي على الاقل ما يجب عليّ أن أفعله؟

– أوه، مبدئياً تدفع فقط اشتراكاً زهيداً، عشر ليرات كل ثلاثة أشهر. عندئذ تصبح ضمن اللائحة. نحن تقريباً خمسمئة في إنكلترا. والعدد أكبر في بلاد الغال. ثمة أشخاص بيننا بارزون.

– خمسمئة من أتباع «ماشن»؟ وما مكسبكم في المقابل؟

– حسب. حسب السنين. الآن سوف تبدأ باستلام المعلومات. كذلك بعض المطبوعات. ليس بشكل دوريّ. بعضها يُسَدَّد ثمنها على حدة. لكنّها رخيصة، ثمة حسمٌ عليها ويمكن الاحتفاظ بها والعكس صحيح. أنا معهم منذ اثنتي عشرة سنة.

– تهانيَّ. ولم يحصل لك شيء منذ ذلك الوقت، ما عدا حادثة الكلب في «ديدكوت». بضع ضرباتٍ بالعصا فحسب، أليس كذلك؟

– ما الذي تريد قوله؟

– ما أريد قوله، ألم يحصل لك شيءٌ سيءٌ؟

– أوه، لا، على الإطلاق. لن تواجه أنت أيَّ خطرٍ، إن كان هذا ما عنيتَه. هذا لا يؤثّر على الحياة. وتأكيداً لذلك، فثمة اشخاص بارزون في هذه الشركة.

– أليس ثمة هولٌ؟ أليس ثمة رعبٌ؟ الـ«ماشن كومباني» هذه؟

قهقه «ماريوت» من الضحك.

– قد أشرب الآن الجعة، إن لم يكن من إزعاجٍ في ذلك – كانت اسنانه منفصلة جداً؛ ورأيتُ أن فمه كان بحاجة ملحّة إلى تلك الجسورِ الحديدية التي تُستعمل للأطفال. أخرج من جيب سترته محرمة ومسح الدموع (واستغربتُ الأمر) التي كانت قد سالت من عينيه الشاحبتين إثر قهقهة واحدة فحسب. أتيت له بالجعة إلى الطابق العلوي، كاد أن يشربها دفعة واحدة، وكانت لا تزال رغوة صرفاً. وأخذ من ثمّ يتكلّم بسلاسة أكثر –: فظائع «ماشن» حاذقة جداً. إنّها تتعلّق إلى حدّ بعيد بترابط الأفكار. بتفاعل الأفكار. بالقدرة على جمعها. قد لا تجمع ابداً فكرتين بطريقة تظهر فظاعتهما، فظاعة كلّ فكرة منهما، وهكذا تستمّر على جهلك إياها دائماً. مثلاً، تلك الفتاة التي تبيع الزهور قبالة منزلك. ليس من شيء مخيف فيها، إذ هي من تلقاء ذاتها لا تستطيع أن توحي بالخوف؛ بل العكس تماماً. وتبيَّن أنّها جذابة جداً. إنّها طريفة ولطيفة. لامسَ الكلب. اشتريتُ منها هذه القرنفلات. – قال هذا وأخرج قرنفلتين من جيب معطفه، وكانتا قد التَوَتا وتهشّمتا قليلاً، وكأنه اشتراهما بحجّة التكلّم فقط مع بائعة الزهور –. لكنّ هذه الفتاة تستطيع في الواقع أن توحي بالذعر. فكرة هذه الفتاة، إذا جمعناها مع فكرة اخرى، يمكنها أن توحي بالذعر. ألا تعتقد ذلك؟ لا نزال نجهل ما هي الفكرة الناقصة، أي الفكرة الملائمة التي توحي لنا بالذعر، لكنّها ولا شكّ مرعبة مثلها. إنّما هي موجودة بالتأكيد. انّها موجودة. المسألة تكمن في أن تتجلّى

فحسب. كذلك يمكن ألا تتجلّى على الإطلاق. وقد تكون، وليس هذا مستحيلاً، كلبي. الفتاة وكلبي. الفتاة بشعرها الكستنائي الطويل وجزمتها العالية وساقيها الطويلتين والمكتنزتين وكلبي الفاقد قائمته اليسرى. - نظر «ألان ماريوت» إلى كلبه الذي كان قد غفا؛ نظر في اتجاهِ جَدَعةِ الكلب. لَمَسَه لحظةً. أن يرافقني الكلب دائماً، فهذا أمرٌ طبيعي وضروري. إنّه أمر غريبٌ إذا أردتَ. أعني الاثنين معاً. لكن ليس ثمة ذعر في ذلك. إنّما لو كان الكلب معها لأضحى الأمر أكثر إشكالية. لكان ربما مهولاً. فالكلب يفتقد إحدى قوائمه. لو كانت هي صاحبته، لَما كان فقدها، على الأرجح، في شجارٍ أحمق بعد المباراة، فما حصل هو حادث. إنّها مخاطر مهنةِ كلبِ رجلٍ أعرج. لكن معها، لكان فقدها ربما لسببٍ آخر (الكلب يفتقد إحدى قوائمه). لسبب أهمّ. لسبب أكثر خطورة، وليس بسبب حادث. من الصعب أن نتخيّل هذه الفتاة في شجارٍ. ولكان ربما فقدها بسببها هي. ربّما، التفسير الوحيد لفقدانه قائمته في ما لو كانت هي صاحبته، هو أن تكون هي قد بترتها بنفسها. وإلّا كيف يجوز لهذا أن يحدث، عندما تكون مَن تحميه وتعتني به جيداً، وتحبه، فتاةٌ جذّابة إلى هذا الحدّ وطريفة وتبيع زهوراً؟ هذه الفكرة فظيعة. فظيعة صورة تلك الفتاة وهي تقطع قائمة كلبي بيديها؛ وتراه بعينيها؛ أتت جُمل «ألان ماريوت» الإخيرة ساخطة بعض الشيء؛ ساخطة إزاء بائعة الزهور. توقّف عن الكلام. وكأنّه خاف من ذاته -. فلنقلع عن الموضوع.

- لا، تابعْ، فأنت على وشك أن تخترع قصة.

– لا. فلنقلع عنه. ليس مثلاً جيداً.

– كما تريد.

أدخل «ألان ماريوت» يديه في جَيبَي معطفه، كأنه يعلن أنّه سيتّكئ عليهما للنهوض.

– إذاً؟

– إذاً ماذا؟

– قد يهمّك أن تشارك؟

لامستُ بأصبعي الفسحة التي بين الأنف والشفة، وهذا ما أفعله كلّما خالجتني الحيرة. قلت:

– قد يهمّني. اسمَعْ، فلنفعل ما يلي إن لم يكن من مانع لديك. أعطيك الآن عشر ليرات عن الأشهر الثلاثة الأولى وأكون بالتالي في اللائحة مع الأشخاص البارزين. ولاحقاً أقول لك إن كان هذا يهمّني.

– متى لاحقاً؟ ثم لا تعتقد أنّهم كلهم أشخاص بارزون.

– قريباً. لنقل خلال الثلاثة اشهر التي سأغطّيها حالاً بمساهمتي.

حدّق «ألان ماريوت» بورقتَي الخمس ليرات التي كنتُ قد أخرجتهما من أحد الجوارير، ووضعتهما على الطاولة المنخفضة الصغيرة، ما إن قلتُ هذا. أعتقدُ أنه حدّق بهما؛ فكانت عيناه الشديدتا الشفافية تغشّان كثيراً.

– شروط الانتساب غير ذلك. لكنّك أجنبي. ليس لدينا أحد في إسبانيا. ولا في اميركا الجنوبية. سوف أعطيك عنواني. في حال وجدتَ شيئاً لـ«ماشن» أنت بغنى عنه. أو Bridles and Spurs. أو

أيضاً مقدّمته حول Above the River لـ«جون غاوزوورث» John Gawsworth. صعبٌ جداً أن نجد كل «غاوزوورث». سأدوّن لك كل شيء. سأدفع لك ثمنها. إن لم تكن غالية. حتى مبلغ خمس وعشرين ليرة هو ثمن معقول. أريد الطبعات الأولى. لا أسكن بعيداً. – كتبَ بسرعة على ورقة مجعلكة، أعطاني إياها، أخذ الورقتين النقديتين ووضعهما في المعطف.–. هل تريد إيصالاً يؤكّد انخراطك؟

إغتنم الفرصة مجدّداً إذ عادت يداه إلى جيبيه ليتّكئ كلياً عليهما وينهض.

– لا، لا أعتقد هذا ضرورياً. أنا في اللائحة، أليس كذلك؟

– أنت في اللائحة. شكراً. أتمنى أن تستمر فيها. لن ألهيك أكثر من ذلك. واعذُرني لأنّني لم أتصل. ليس لديّ رقمك. ولا هاتف في البيت. سوف أقتني واحداً على الأرجح قريباً. هيّا بنا – قال للكلب الذي عاد ونهض على قوائمه الثلاث ونفض عن ذاته النعاس. أخذ «ماريوت» القبّعة.

لم اعطِه رقمي. نزل الاثنان ورافقتهما حتى الباب. أنا الذي لم أكن يوماً عضواً في أي شيء في مدريد، كنت قد صرتُ، خلال أشهر قليلة، عضواً في الأخوية الأوكسفوردية بموجب وظيفتي، وعضواً في «سانت أنتونيز كولدج» Saint Anthony's College الذي نسبوني إليه منذ أيام الـ«تايلوريانا» بصفتي أجنبياً، وعضواً في «وادهام كولدج» Wadham College الذي كان قد سجّلني فيه، (فقط لأنه أراد ذلك)، «آيدان كَفاناخ» Aidan Kavanagh، رئيس قُسمي؛

وعضواً في الـ«ماشن كومباني» التي تسجّلتُ فيها من دون أن أعرف لماذا، جاهلاً كل ما يتعلّق بها. رأيتهما يبتعدان على الرصيف ناحيتي، ثم مجدّداً عبر شارع «سانت جيلز»، متعثّرَين في سيرهما، كالسكارى، عبر ذلك الشارع الشاسع والواسع والمنبوش أيضاً من الأزل. كان وقت الطعام قد حان. قبل أن أغلق الباب، لوّحتُ بيدي لبائعة الزهور الغجرية التي كانت تلتهم ساندويشاً. لم تكن جذّابة إلى هذا الحدّ كما قال «ماريوت». كانت أسنانها كبيرة وابتسامتها ضخمة، عن بُعدٍ يراها المرءُ ممزوجةً بالخس. فبالنسبة لي كان من السهل أن أتخيّلها في مشاجرةٍ في محطة «ديدكوت» أو في أي مكان آخر، بسترتها الجلد السوداء وشعرها الأشعث، وهي تخبط الأرض بجزمتها العالية، وتعضّ – كما الكلب – بأسنانها الكبيرة. اسمها «جاين» Jane. كانت فظّة وظريفة في آنٍ وكنتُ أعلم أنها متزوّجة، منذ التاسعة عشرة من عمرها، بالّرجُل – بالنسبة إلي اللامرئي: لم يكن ينزل إطلاقاً ليساعدها – وكان يوصلها كل أيام الآحاد والأعياد إلى دكّانها ويعيدها إلى البيت مع بضاعتها، وهو داخل شاحنته الصغيرة، النظيفة والحديثة. قد يكون زوجها هو الذي قطع قائمة الكلب.

لدى عودتي إلى الطابق العلوي، لمحتُ زجاجة البيرة التي كان «ماريوت» قد شربها والتي بقيت على الأريكة حيث كان جالساً، كما لمحت المحرمة المبلّلة بالدموع والقرنفلتين الملويّتين اللتين كانتا لا تزالان مغلّفتين بورقة فضية واللتين كان قد أخرجهما من جيبه لينساهما. انتبهتُ إلى هذه الاشياء الثلاثَة وهي تسقط في سلّة المهملات، يوم الأحد من شهر آذار، في الفصل الدراسي الأول لي في أوكسفورد.

لم أعد أنتبه الآن إلى سلّة النفايات كما كنتُ أفعل في السابق؛ فتمضي أسابيع، وحتى أشهر، وأنا أستعملها دون أن أعيرها أية اهمية؛ ويمكن ألّا أنتبه إليها على الاطلاق، أو فقط من وقتٍ لآخر، كما يحصل عندما نتذكّر شيئاً لم نعد نريده أو لم يعد يعنينا، فنهرب منه على الفور كي لا نفسح له المجال بأن يعود إلى الوجود وبالتماهي مع ما لم يكن موجوداً يوماً، مع ما لم يحصل يوماً. خلال المسافة الزمنية الوجيزة التي مرّت منذ أن غادرتُ مدينة أوكسفورد، تغيّرت أشياء كثيرة ، أو بدأت تتكوّن، أو لم تعد موجودة.

لم أعد اعيش الآن وحدي، ولا في بلاد الغربة، بل تزوّجتُ وأقيم في مدريد مجدداً. عندي ابنٌ. لا يزال هذا الابن صغيراً جداً، لا يتكلم ولا يمشي وبالطبع لا يملك ذاكرة، ولا أزال لا أفهمه، ولستُ ادري كيف أتى؛ أشعر أنّني غير أهل له، وأنه غريب وبعيد، على الرغم من أنّه يعيش معنا ليلاً ونهاراً، ولم يتغيّب دقيقةً واحدة منذ ولادته، فبالنسبة إليه لا نهاية لـ«صلاحية الاستعمال»، في حين قد لا يكون الأمر كذلك بالنسبة إلى أمّه أو بالنسبة إليّ أو كما كان الأمر بالنسبة إلى «كلير بايز» أو ايضاً بالنسبة إليّ (ربّما) عندما كنتُ معها، وحصل هذا منذ سنتين ونصف السنة، أي منذ نهاية إقامتي في أوكسفورد. فبالنسبة له لا حدود زمنية. فقبل وقت قصير لم يكن. أمّا الآن فهو طفل أبدي. أنظر احياناً إلى هذا الطفل الذي لم يتعدَّ ما له من عمر

الأشهر القليلة وأتذكّر كلمات «ألان ماريوت»، وأتساءل ما الذي قد يحتاجه هذا الطفل لكي يتسبّب بالذعر، أو بالأحرى من هو الشخص الذي إن وضعناه معه، سيتسبب بهذا الذعر؛ تقلقني فانتازية التفكير في أنّني قد أكون أنا – والده – تلك الفكرة المحدّدة الدقيقة والمناسِبة التي توحي بالذعر. إذاً قد يكون هو الفكرة الدقيقة والمناسِبة لكي أوحي أنا بالذعر. أنظر اليه نائماً. إنّه طفل طبيعي جداً حتى الآن. فهو لا يستطيع من تلقاء ذاته أن يوحي بالذعر، بل بالعكس؛ فأنا ووالدته وكل الأشخاص المحيطين بنا واللذين يزورووننا هنا في مدريد، نشعر برغبة عارمة في حمايته، هذه الرغبة التي غالباً ما يثيرها الأطفال الحديثو العهد في هذه الدنيا. يبدون هشّين. وعادةً ما لا نحمي ما يوحي بالذعر، مع أنّني أتساءل من جهة أخرى إن لم يكن ذلك ما سمّاه «ألان ماريوت» بالمثيل المرعب، هو الذي ربما يحمي الفظاعة، كونه من اكتشف الذعر أو سبّبه عن طريق تداعي الأفكار وارتباطها، على غرار الكلب الذي حمى بائعةَ الزهور وتلك الأخيرة التي حمت الكلب، كما جاء في ذلك المَثَل الذي وضعه «ألان ماريوت». نحبّ هذا الابن كثيراً، أنا ووالدته، كما أعتقد (قد يكون بالنسبة إلى والدته بمثابة أُلوهة انتقالية محتّم عليها أن تنتهي)، لكنّه يصبح في النهاية هاجساً لا يُقاوَم، وكلهم هكذا، في أشهرهم الأولى على ما أظن؛ وأحياناً لا أشعر بالرغبة في أن يختفيَ (على الإطلاق، وهذا اسوأ ما يمكن أن أفكّر فيه، إذ قد نجنّ)، إنّما بأن أعود إلى تلك الحالة حيث لم أكن اباً بعد وحيث كنت رجلاً لا امتداد له، بأن أستطيع أن اجسّد، دائماً وبنقاءٍ، الصورة البُنَويّة والأخوية، أي

الحقيقية، وهي الصورة الوحيدة التي اعتدناها، الوحيدة التي يمكننا التعايش معها بشكل طبيعي منذ البداية. ممارسة الصورة الأبوية او الأمومية إنّما هي خصيصة يقرّها الوقت، بل هي من دون شك أحد واجبات الوقت. إنّها تتطلّب التأقلم والتركيز؛ إنّها شيء يحصل فحسب. لا أزال لا أفهم وجود هذا الطفل هنا وإعلانه، بشكل متواصلٍ، عن استمراره المدهش وإمكانية بقائه من بعدنا، كما أنّي لا أزال لا أفهم أبوّتي. خرجتُ اليوم لأقوم ببعض المفاوضات وببعض الأمور (المتعلقة بمالٍ كثيرٍ، هذا تغيير آخر في حياتي، فأصبحتُ الآن أجني وأدير مالاً كثيراً، مع أنّني لا أفعل ذلك مثل الـBursar) وأثناء إحدى محادثاتي نسيتُ كلياً وجود الطفل. فنسيتُ أنه وُلدَ، ونسيتُ اسمه ووجهه وماضيه الوجيز الذي كنتُ شاهداً عليه وأتحمّل مسؤوليته؛ وأريد القول بذلك أنّي نسيته كلياً بدلاً من أن أشعر بكل بساطة أنّي تغيّبتُ عنه خلال بعض الوقت فحسب، الأمر الذي ليس طبيعياً فقط، إنّما ايضاً مفيد للاثنين. ربّما لم يكن الطفل (وهذه هي الحقيقة) يعني لي الكثير. وبرهاناً على ذلك، لم أنسَ مثلاً زوجتي على الرغم من أنّها هي ايضاً (على غرار ابني) لم يكن لديها تاريخ متوقّع لنهاية «صلاحية الاستعمال» في علاقتنا، كما كان لـ«كلير بايز»، وذلك منذ اللحظة الأولى التي وقع فيها نظري (بتأمّلٍ شهواني أكنّه أيضاً لـ«لويزا») على وجهها الجميل والعريض ذي البشرة الصلبةِ النسيج وكأنّه منحوت نحتاً، وعلى تقويرة فستانها الليلي الأنيق جداً. (على الرغم من أنّني لا أعرف زوجتي منذ زمن طويل وكان يمكنني أن أنساها: ومع ذلك فلم أفعل). ففي هذا الصباح، بينما

كنت أتحدث مع مموِّلٍ يُدعى «إستيبيث» Estévez، وهو في العقد الخامس، عفوي ومنشرح (بل محرِّكٌ، كما سمّى نفسه بمتعة، وردّدها ثلاث مرّات أو أربع)، صار الطفل أشبه بمن لم يأتِ إلى الوجود بعد، أكثر منه شبهاً بِمن زال عن الوجود. فخلال ما لا يقلّ عن خمسٍ وأربعين دقيقة، وبينما كان المحرّك «إستيبيث» يغمرني بإطرائه ويقدّم لي عروضات رائعة، اعتقدتُ أنه ليس لديّ أيّ ابن، وقمتُ بمشاريعٍ ذهنية مع زوجتي (وخصوصاً مشاريع أسفار) كما لو أن هذا الطفل لم يكن موجوداً على الأطلاق، هذا الطفل الذي لا يمشي بعد ولا يتكلم. فمحَوْتُ حياته كلياً من رأسي خلال ما لا يقلّ عن خمسٍ وأربعين دقيقة؛ فاختفتْ وأُلغِيَتْ. ثم سرعان ما تذكّرته، دون أن يكون قد حدث شيء مميَّز أو واضح لكي يعود إلى ذاكرتي. «الطفل»، تذكّرتُ. لم يزعجني أن أتذكّره – بل فرحتُ – وأن أتخلّص على الفور من المشاريع التي أخذتُ أخطّط لها بسرعةٍ وأنا اتحدّث مع هذا الشخص الكثير الحماسة، المحرّك «إستيبيث»؛ لم أتضايق إطلاقاً. بل على العكس، قلقتُ وشعرتُ بالذنب لأنّني نسيته، وهذا جعلني أفكّر مجدّداً اليوم، كما في كل مرّة عندما أراه نائماً، في إحتمال أن أكون أنا مثيله، هذا المثيل المذعر، وإذا كان محتّماً عليّ أن أكونه لانّي قادرٌ على أن أنسى وجوده كلياً ولم تكن مضَت بعد أشهر قليلة على ولادته. هذا ليس بالضرورة مؤشِّراً، وقد يحصل مع ايِّ كان، لكنّ النسيان يولّد الحقد، والحقد يولّد الذعر. هو سينساني لأنّه لم يكن قد عرفني في طفولتي ولا في شبابي. قبل قليل سألت زوجتي، وهي كثيرة الموضوعية وهادئة جداً في أمومتها، إن

كانت تعتقد أنّ هذا الطفل سوف يعيش دائماً معنا خلال طفولته أو يفاعة شبابه. كانت تخلع ثيابها لكي تنام، وقد كشفتْ عن نهديها اللذين كَبِرا حجماً إثر أمومتها.

– طبعاً، ما هذه الترّهات – أجابتني –، وإلاّ مَع من سيعيش؟ – وأضافت من دون أن تقطع حركتها، وهي تخلع جواربها الطويلة والقائمة:

– إذا لم يحصل لنا شيء.

– ماذا تعنين؟

كانت شبه عارية ولا تزال جواربها في يدٍ، وفي اليد الأخرى قميص النوم. كانت شبه عارية.

– أعني إذا لم يحدث لنا أي سوء.

لم يكن ابن «كلير بايز» يعيش معها ومع زوجها. أو بالأحرى، لم يعتد البقاء معهما في أوكسفورد سوى خلال العُطَل، عندما كان يعود من مدرسته في «بريستول». كان يدرس هناك إذ خُطِّط له أن يلتحق، ابتداءً من الثالثة عشرة من عمره، بمدرسة «كليفتون» الشهيرة والغالية جداً، على ضفاف «آيفون»، في ضواحي «بريستول»، حيث درس والده، لكن أيضاً كي يعتاد المكان والابتعاد عن البيت الأبوي. أمّا عُطَله، وهي أقصر بكثير من عُطَلي ومن عُطَل والديه (تُوزَّع الدروس في أوكسفورد على ثلاث دورات تتألّف من ثمانية أسابيع تماماً – مايكلماس، هيلاري، ترينيتي – وما تبقّى فهو فراغ بالنسبة لأولئك اللذين ليس لديهم مهمّات إداريّة إضافية أو بالكدّ عليهم تحضير الامتحانات، وهم من أمثالي)، فكانت تصادف مع وجودي خارج

المدينة، في زيارة مدريد مثلاً، أو في سفرة عبر فرنسا، أو في بلاد الغال، أو اسكوتلاندا، أو ايرلندا أو حتى في إنكلترا نفسها. لم أكن ابقى في أوكسفورد على الأطلاق عندما لم أكن مضطراً إلى ذلك. بل بقيت فيها مرّة واحدة، عند نهاية إقامتي. وبالتالي، لم يصادف حضوري وحضور ابن «كلير بايز» معاً على الأطلاق، ما كان مناسباً جداً لي ولعلاقتنا غير الشرعية، على ما أعتقد. فيجب ألاّ نزجّ الأطفال بهذه الأمور. فهم يحقّقون ويسألون كثيراً كما إنّهم حسّاسون جداً. إنّهم مأسويّون ووَجِلون. لا يتحمّلون كل ما هو غبِشٌ وغامضٌ. يرون الخطر آتياً إليهم من كل صوب، حتى حيث لا يوجد خطرٌ؛ لذا لا تفوتهم أية حالة قد توحي بوجوده أو توحي بغبشٍ ما، مهما كان هذا الغبش طفيفاً. مرَّ أكثر من قرنٍ منذ أن توقّف المجتمع عن تربيتهم لكيّ يصبحوا أفراداً راشدين. على العكس تماماً؛ راشدو عصرنا تلقّوا التربية – تلقّينا التربية – التي تخوّلهم أن يظلّوا أطفالاً. أن ننفعل إزاء المباريات الرياضية، وأن نغار من كل شيء وأن نعيش في تأهّب دائمٍ. ولأن نرغب في الحصول على كل شيء. لأن نخاف ونغضب. لأن نشعر بالجبن. لأن نراقب أنفسنا. وكانت إنكلترا إحد أقلّ البلدان التي تبعت هذه الموجة الحديثة، وحتى منذ فترة قصيرة كانت لا تزال توسع ضرباً، بتلذّذٍ وصرامة، أبناءها اللّدنين والطريّين، مع كل ما ينتج من ذلك من انحرافات (بات كل الناس يعرفها: الانحرافات الجنسية) لدى سكّانها الأكثر تأثُّراً وحساسيةً. لكن في مدرسة بريستول، وبحسب ما كانت تخبرني «كلير بايز»، لم يعودوا يجلدون التلامذة، وأنا في أي حال تصوّرتُ أن ابنها «إريك»

لن يعاني في حياته المدرسية مثلما عانى أسلافه، الحقيقيّون منهم والوهميّون، إنّما قد ينعم أيضاً في المنزل بالامتيازات الخارقة التي عادةً ما تنتظر الأطفال الذين يمضون معظم أشهر السنة في المدرسة الداخلية. وعلى الرغم من قلة مراعاتها عامةً ومن طبعها المنفتح، كانت «كلير بايز» تحرص (من باب محبتها وتقديرها له) على ألاّ تكثر الكلام عنه، أقلّه معي؛ فمن دون أن أعرفه، لم أستطع أن ارى فيه سوى الأثر أو الشاهد الحيّ لحبّها القديم. والحب القديم دائماً يجرح العاشق الجديد، مهما مات ذلك الحب وتوارى. فيترك جرحه ألماً أكبر من انعدام العاطفة، ولو أن ذلك الأخير يشكّل إزعاجاً كبيراً في العلاقة من الناحية العمليّة. لم تكن «كلير بايز» تتكلّم عن ابنها «إريك»، على الأقلّ معي، إلا عندما كنت أسألها عنه.

خلال صفّي الدراسي الثاني والأخير في أوكسفورد، أو بالأحرى عند بداية ذلك الفصل الزائف الذي يُسمّى «ترينيتي» والذي تتوزّع أسابيعه الثمانية بين نيسان وأيار وحزيران، مَرِضَ ابن «كلير بايز» في مدرسته في بريستول، وكان على «كلير» و«إدوارد بايز» أن يذهبا إليه ليعيداه إلى البيت. طالت مدّة نقاهته في أوكسفورد أربعة اسابيع، توقفتُ خلالها عن رؤية «كلير بايز» شبه نهائيٍّ. وكما سبق أن قلتُ في مناسبة أخرى، صحيح أننا لم نكن نلتقي بكثير من الانتظام ولا على نحوٍ متواصل أو بإفراط، لكن – إذا استثنينا العُطَل – منذ تعارُفِنا، لم يمرّ قطٌّ أكثر من سبعة أيام دون أن نلتقي مرّة على الأقل ولو نصف ساعةٍ هوجاء وسريعة بين صفَّين. كانت الأسابيع الأربعة هذه (وقد لا تكون أفضل حالاً تلك التي تلتها) الفترة الأسوأ

خلال إقامتي في أوكسفورد. لم أكن أكثر عزلة وأقلّ انشغالاً فحسب (خلال الفصل الأخير كثير من الطلاّب يتغيّبون عن بضعة صفوف، أو كثير من هذه الصفوف يُعلَّق كي يستطيع الطلاب تكريس وقتهم لتحضير الامتحانات، والأسياد كي يحضّروا الأسئلة الأكثر أذية)، إنّما أيضاً كنت منزعجاً لاكتشاف أن الغيرة الخفيفة وغير المركزة التي كنت من وقت لآخر أشعر بها بسبب «إدوارد بايز» (أو بسبب حبّهما القديم، هذا الحب الذي لم تبادلني به) كانت تتكثّف بسبب ابنها «إريك» واعتنائها به على حسابي. كان قرارها هي ألّا تراني حين يكون الطفل في المدينة، وعلى الرغم من أنَّ مرَضه لم يكن خطيراً إنّما كان بطيئاً فقط (بدءاً من الأسبوع الثاني استطاع أن يخرج، ولو بحذرٍ)، قرَّرَتْ «كلير بايز» أن تعوّض له عن كل تلك الأشهر الطويلة التي كان يمضيها مفترقاً عنها. فأرادت أن تغتنم فرصة مرضه لتدلّله قليلاً ولتشعره بأنه لا يزال في طفولته الأولى؛ أحبّت أن تغذّي عينه، وأن تكدّس فيها صوراً. هذا ما كنت أستنتجه. كنت أتّصلُ بها في مكتبها كل يومين أو ثلاثة (إنه الشيء الوحيد الذي كانت تسمح لي به) بحجة أنني أريد السؤال عن صحة ابنها، وفي نيّتي محاولة الحصول على موعد سريع وعنيف - مهتاج وصاخب - قد تختار هي توقيته. لم أكن يوماً أكثر جهوزية مما كنته في ذلك الحين، ولم أعطها يوماً كل هذه التسهيلات كما فعلتُ آنذاك، لكنّها رُفضت جميعها، الواحدة تلو الأخرى. كذلك لم أكن يوماً مشتاقاً ومتّقداً (ولكنْ شفهياً) كما كنته حينئذٍ. لم تكن «كلير بايز» تريد أي لهوٍ ولا أي تدخّل لمشاكل الراشدين ما دام الطفل «إريك» موجوداً في

البيت. كانت مستعدّة لتلقّي اتصالاتي، كما كانت هي بدورها تتصل بي لتعطيني تقريرها، لأنّها صدّقتني أو تظاهرت بأنّها صدّقت أنّني كنت حقاً قلقاً بشأن مرضه أو بشأن ذلك العظم المكسور (ولا أذكر حتى سبب عودة الطفل إلى المنزل لعدم انتباهي لشرحها) حيث كان على الأوّل أن يُحارَب، وعلى الثاني أن يلتحم في جسم هذا الذي لم يكن بالنسبة لي سوى دخيل مجهول. لكنّها رفضت أن تراني، وعندما كنا نلتقي مصادفة في الشارع أو في أروقة الـ«تايلوريانا» المليئة بالصدى، كانت تسلّم عليّ باعتدال وبفتور – من باب الحذر ولو الحذر الطائش – أكثر ممّا كانت عادةً تبديه لي علناً. ثم تتابع سيرها. وفي حركةٍ أوروبيّة جنوبية جداً، كنت أستدير لكي أرى ساقيها العاضلتين قليلاً والصلبتين على كعبيها العاليين. لم تعودا رشيقتين ولا صبيانيّتين في حركتهما: لم أعد أراها وهي حافيةً. لم أكن أستطيع أن أمسكها بذراعها وأن أجبرها على التوقف وأن أعترض عليها كما كان يفعل أولئك العشاق اليائسون في السينما، إذ ثمة في شوارع أوكسفورد (كي لا أقول في أروقة التايلوريانا المليئة بالصدى)، وفي كل حين، عدد كبير من الأسياد أو الزملاء (المدينة المراقَبة هي مدينتها) اللذين، بحجة التوجه من كولدج إلى آخر أو من اجتماع في مبنًى ما إلى اجتماع في مبنى آخرٍ، يتباطؤون أمام واجهات المحلاّت أو أمام ملصقات المسارح أو صالات السينما (قليلة لكنها كافية) أو يتبادلون محطات سلام وانطباعات غير وجيزة (انطباعات جامعية). (ربّما يتجسّسون.) وفي الـ«تايلوريانا» نسمع دائماً مِثل همسٍ معدني، عن بُعدٍ، وهو الصوت المتحمّس والغاضب قليلاً للـ«بروفيسور جوليون»

الذي يملي دروسه العظيمة في منفى (المنفى التقيّ) الطابق الأخير. من جهة أخرى، لم أكن يائساً حقاً. كانت «كلير بايز» قد منعتني من أن آتي إلى مكتبها في «كاتيه ستريت» ما دام ذلك الوضع على حاله، وبالطبع كانت قد منعتني أيضاً من الاتصال بها في منزلها، ولو في الساعات التي يكون غياب «إدوارد» فيها مضموناً؛ فلم يعد مهماً غياب زوجها أو حضوره، إذ ما كان أكيداً هو حضور الطفل «إريك» الدائم في البيت. ولم أكن أستطيع أن أجاهرَ بنفورٍ كبيرٍ (مسبقاً) من ذلك الطفل «إريك» الذي حرمني فجأةً العاطفة الوحيدة – العابرة وبلا مستقبل، لكن الجليّة – التي نعمتُ بها في تلك المدينة الساكنة والمحفوظة في شراب السكّر. لكنّني لم أكن يائساً (ليس تماماً).

خلال تلك الأسابيع الربيعية الأربعة التي بدت لانهائية، كثّفتُ تسكّعي عبر المدينة باحثاً عن كتبٍ نادرة، ونتيجة هذا التكثيف غير المرغوب فيه أصلاً، التكثيف المصطنع والمَرَضي في أية حال، بلغت ذروة اضطرابي وشعوري بغبشِ هويّتي.

تكون مدينة أوكسفورد، خصوصاً عندما يحلّ فيها ما لا سبيل سوى اعتباره طقساً جميلاً، وذلك في فصل ترينيتي، مزدحمة، بل مكتظّة بالشحاذين. فخلال كل فصل الربيع وجزءٍ من الصيف، ترى المدينة، التي تعدّ في أي حال خلال الفصول الأخرى عدداً لا بأس به من المتسوّلين، ازدياداً مجنوناً وهائلاً في صفوف الشحّاذين من شعبها. فتترك لنا انطباعاً أن عدد الشحّاذين يضاهي عدد الطلاب. فهؤلاء الأخيرون هم السبب الرئيسي في تكاثر أولئك اللذين

يشكّلون جيش احتلالٍ حقيقياً (غير منظّم). إذا كان الشحاذون الإنكليز والغاليون والاسكوتلانديون وحتى الأيرلنديون يغادرون ملاجئهم أو ثكناتهم الشتائية ويحجّون معاً سيراً على الأقدام نحو مدينة أوكسفورد عند حلول الربيع (في الواقع أن موجة الشحّاذين هي التي تُعلن عن اقترابه)، فلأنّ أوكسفورد مدينة ثرية—غنيّة جداً—، وفيها بعض الجمعيات الخيرية أو المآوي حيث يُؤمَّن لهم وجبة يومية، وأحياناً سريراً لأولئك الأقل نوماشية، وبشكل خاص لأنّ معظم سكان هذه المدينة شبّان غير متمرِّسين في الحياة وبالتالي طيّبو القلب. إنّ أولئك الشحاذين البريطانيين اللذين يجتاحون مدن الجنوب الأكثر ازدهاراً عندما يبدأ طقسها بتحويل حجارة شوارعها أو أسفلتها إلى مرقد مقبول (أو بالأحرى مقاعدها)، لا علاقة لهم باللذين نسمّيهم الفقراء الحقيقيّين في بلداننا الجنوبية، واللذين يعون ويدركون دائماً (بما تبقّى لهم من إدراك) أن هذا المال، ومهما اعتبروا أننا ندين به لهم، هو مال يشحذونه. أولئك الشحاذون البريطانيون والأيرلنديون هم فظّون وهمجيّون وثملون إلى درجة لا تطاق. لم أرَهم يوماً يطلبون شيئاً، وهذا لا يعني أنّهم كانوا يفرضونه. فبكّل بساطة، لا يتكلّمون؛ لا يقولون شيئاً، ولا يتصرّفون بحسب ما هو متفَّق عليه منذ قرونٍ، لا يذكُرون مهمَّتَهم ولا معناها، لكنّهم يعون أن تصرّفهم ومظهرهم (الذي يدل على الفقر) بحدّ ذاتهما يوازيان حركة اليد الممدودة وجمل التسوّل التقليدية والمتكرّرة. لن يعرضوا أبداً قضيتهم ولن يخبروا قصة: يجهلون الثرثرة. هم تقريباً صُمٌّ. بل يلجأون إلى علاماتِ التعجب وكلماته. أعتقد أنّ في داخلهم شيئاً من الكسل

والكبرياء والضجر والحتمية. أعتقد أنّهم لا يطلبون، إذ مَن يطلب (إلاّ اذا كان الطلب زائفاً، كخطوة أولى ومُسَتَّرة من أجل سطوٍ مسلّح بارع) لا يستطيع أن يوحي في الوقت عينه بأنه متبجّح ومشمئزّ، ومشاغب، وعنيف، وكلها صفات من طباعهم المعروفة. ليسوا متواضعين كما أنّهم يفتقرون إلى الخبث. هذا لا يهمّهم، وكأنّهم بكل بساطة زاهدون. وليس لديهم أدنى مستوى من الترتيب والنظافة أو ما شابه، ونظرتهم غائرة في الدائرة السوداء حول عيونهم، وذقونهم طويلة وشعورهم كثّة كشعر إنسان العصر الحجري، وثيابهم مثقوبة، ومنسّلة أو ممزّقة (كلّهم يرتدون سترات أو معاطف، وما من أحدٍ تقريباً يرتدي قميصاً أو أي لباس رياضي)، وهم من كل الأعمار ولا يعرفون التعب. لا أحد يعرف الإقامة الثابتة. في تجوالهم، نراهم يحملون قناني الجعة أو «الجِن» أو «الويسكي» في أيديهم التي نسيت الماء، ولا يمكثون في الموقع نفسه سوى ما يكفي من الوقت لإنهاء قنينة، أو عندما يستسلمون للتعب بعد ترحال لانهائي. يبدو الشحّاذون الأوكسفورديون مشغوفين بجنون التسكّع أو حمّى التسكّع اللذين يجعلانهم يطوفون في أرجاء المدينة عدّة مرّات في اليوم، يطوفونها بخطواتهم الكبيرة، ونسمع نقمتهم عند مرورهم، وهم يوجّهون حركاتهم المتشدقة أو الفاحشة إلى المارّة، متمتمين بالشتائم والسباب واللعنات التي لا نستطيع فكّ رموزها عندما نتقاطع في الشارع. يهيم الشحاذون الأوكسفورديون على وجوههم. هم السكّان الوحيدون، في هذه المدينة الصغيرة، اللذين لا يعرفون إلى أين هم ذاهبون، فيدورون ويطوفون عبر

الشوارع الرمادية والمحَمَّرة، تحت المطر أو الغيوم المنخفضة. يتوقف أحدهم من وقتٍ إلى آخر، ليتقيأ فوق نهر «إيزيس» أو على أحد الجسور؛ أو يغِير على باب إحد الـpubs فيبقى منتظراً بعض الوقت على أمل أن يترك له زبونٌ مستعجل وكريم (من نوع أولئك الزبائن الذين يخرجون ليشربوا في الهواء الطلق)، بمتناول يده القائمة، ما تبقّى في كعبِ القنينة. عدا ذلك، هم لا يتوقّفون لأي شيء كان، فهم شاردون متسكعون. وبعضهم، وهم قلة، يعملون، إذا جاز القول، على ما هو أكثر من التركيز على مظهرهم الفقير للفت الأنظار ويميلون إلى الأقامة الثابتة في المكان نفسه، او على الاقل يجرّون دائماً شيئاً معهم في تسكّعهم (أي عدّة عملهم. فمنهم من يعزف على آلة، أو يملك حيواناً ماهراً، أو يقوم بألعاب الخفّة من دون مهارة، أو يدندن بعض الألحان الراقصة، أو يبرّج (أولئك نادرون جداً، فليس هناك من زبائن كثر للتبريج وما من فضول للمستقبل). أولئك الشحاذون النشيطون هم الأغنَون، وبالتالي يكرههم زملاؤهم الأقل موهبةً. رأيتُ مرّةً، وكان الوقت عصراً، كيف أخذ أشرس اثنين من بينهم وأكثرهم تسكّعاً (وهما دائماً ملتحيان) ينقضّان على رجل قصير ومتقدّم في السن، وكان الناس قد إعتادوا اعطاءَه بعض النقود بفضل منظره المرتّب والنظيف والمسالم ولأنّه كان ايضاً يعزف على أُرغنٍ – كان قد أنقذه، على حدّ قوله، من محرقةٍ في ميناء «ليفربول» – ألحاناً مدريدية. أن أسير عبر «كورنماركت» Cornmarket وأن أسمع من بعيد نغمة الأرغن الآسرة بألحانه المدريدية، كان يبعث فيّ نوعاً من الضحك المرِح الذي يذكّرني، دون سواه، بالضحك عينه

الذي كان يثيره فيّ السياح الإسبان النزقون الذين كنت ألتقيهم جماعات، إجمالاً أيام السبت، وهم يصفّقون بانتظامٍ بأيديهم على طريقة الفلامنكو، الأمر الذي يفعلونه كلّما كانوا في سياحة في بلد أجنبي. ولم أكن أستطيع بالتالي سوى أن أقترب من موقع عازف الأرغن كلّما سمعته، حتى لو لم يكن على طريقي، لأعطيه بعض النقود عندما كانت القطع الصغيرة متوافرة لديّ.

إذاً في ذلك العصر، رأيتُ كيف أخذ أولئك الملتحون المتوحشون يركلون العجوز وآلته المدريدية. ركضتُ نحوهما وكلّي غيظ وهلَع، موجِّهاً إليهما كلاماً فظاً في الأسبانية، وكانت على الأرجح رنّة اللغة الغريبة والملائمة للشتيمة (أعتقد أنّهما تأثّرا بمفردتنا «كولو»[٢]) هي التي جعلَتْهما يهربان قبل أن يتسنّى لي الاقتراب أكثر منهما؛ لولا ذلك لركلاني أنا أيضاً (بلا رحمة)، ولكنتُ اعتبرتُ الأمرَ قدَري الطبيعي: فلستُ قوياً جداً ولا شجاعاً جداً. من جهة أخرى، ولحسن الحظ، لا الأرغن ولا الرجل العجوز، تكبّدا أضراراً جسيمة. وبعد ذلك بدقائق، رأيتهما يتواريان عبر «سانت الدايتز» St Aldatés، وهما يترنّحان قليلاً؛ كان الغروب قد تكثّف، ولونه احمر وأنا كنت أتنفس بصعوبة بسبب لهاثي.

ربّما كنت شجاعاً وقوياً في أمر آخر، في اعترافي وإدراكي أنّني أخذتُ أشبههم بعض الشيء، أشبه الشحاذين، على الرغم من أنّ ألدَّ أعداء المتسوّل الأوكسفوردي هو تحديداً الأستاذ او السيد الأوسكفوردي الذي، وخلافاً للطلاب، يكون قلبه عجوزاً ولديه

---

(٢) تعني المؤخرة في الإسبانية. (ص.ز.).

خبرة حياة طويلة، فيخيف أولئك المعوزين وهو يباغتهم بثوب الأساتذة التقليدي الذي يصل إلى مستوى الأرض، هذا الثوب القاسي والمهيب. كنتُ أنا سيداً أوكسفوردياً في تلك اللحظات، وكان مظهري، كما أعتقد، مظهر سيّد أوكسفوردي أكثر مما هو مظهر أي نوع آخر من الناس، وتجلّى ذلك في النظرات العدوانيّة التي كان أولئك المتسكعون يوجّهونها إليّ. لكنّني كنتُ سيداً موقّتاً، وبالتالي كان شعوري إزاء أوكسفورديَّتي هذه لا يزال غامضاً، وعادات أوكسفورد لم تكن متجذّرة فيّ بعد وهي بالأحرى عادات الأسياد الدائمين، تكمن إحداها في تخويف المتسوّلين بمهارة كبيرة وبأصوات درّبوها لهذا الغرض. أما بالنسبة إلى تهذيبي ودرجة معرفتي، فهذا لم يكن حاجزاً يمنعني من التقاط الشبه، لأنّ هناك شحاذين مثقفين جداً في إنكلترا. فحالة التسوّل هناك قد لا يكون سببها الأصول الفقيرة للشخص أو انكسار كارثي لمتجره أو أمّيته التامة، إنما إدمانه على الشرب، أو طرده من عمله، أو خيبته من امرٍ ما، أو شغفه بالقِمار، أو اضطراباتِ نفسية - مبدئياً طفيفة - وكلّها أسباب اعتادت الدولة أن تتجاهلها. «جون مولينو» مثلاً، عازف الكمان المنفرد الذي كثيراً ما عزف في حقبةٍ ما مع الأوركسترا الشهيرة، «أكاديمية سانت - مارتن - إن - ذي - فيلدز» Academy of St Martin-in-the-Fields، هو اليوم شحاّذ بين الشحّاذين، شحّاذ التايمز المدمن الشرب بعد أن كان قد حقّق نجاحاً ساطعاً في حقل الموسيقى خلال أكثر من خمسة أعوام وبعد أن سافر (مع الكثير من الأمجاد وشيء من الأبّهة) عبر أنحاء العالم. إنّه يشرب

فحسب، لا يعزف، ويكره المدرّج الموسيقي. أما الـ«بروفيسور ميو» (كاثوليكي)، فكان حالة ميؤوساً منها في العتاهة: تسكّع مدى سنين في شوارع أوكسفورد وهو يلوّح بالقناني ويشتم ويهذر ويهذي ويُغضب زملاءه القدامى ومأموريه عندما كان يلتقيهم على الطريق (واللذين لم يستطيعوا أن يقرّروا إن كان عليهم مطاردته مؤنّبين وصارخين في وجهه أم معاملته معاملة الاساتذة)، بعد أن ترك أبحاثاً غاية في الاهمية في علم اللاهوت، وبعد أن بلغ أعلى مرتبات نجاحه الأكاديمي، وبعد أن كان عضواً في المجلس الحبري للثقافة الذي يرأسه البابا بنفسه. كان الاثنان (عازف الكمان الأول وعالم اللاهوت، لا البابا) ثملَين ومختلَّين وقد طُردا في أحد الأيام من عملهما. أنا أيضاً، في أسابيع الـ«ترينيتي» تلك من سنتي الثانية في أوكسفورد، كنت أتسكّع من مكانٍ إلى آخر، أو بالأحرى، من مكتبة إلى أخرى تقريباً طوال النهار، والصحيح هو أنّي أثناء تطوافي كنت ألتقي مراراً وتكراراً الوجوه ذات التقاطيع القاسية نفسها، الثياب الرثّة والنتنة، الأنفاس الكحولية عينها، والجشاءات الصاخبة والقادمة من أفواه بالكدّ تتحرّك. الوحيدون اللذين كانوا يجولون في المدينة، على غراري، هم المتسوّلون الأكثر شراسةً ويأساً وخمولاً وثمالة، حيث ربّما كان بعضهم مواهب سيئة الحظ في الفنون كما في العلوم، أمثال عازف الكمان «مولينو» وعالِم اللاهوت «ميو». مدينة أوكسفورد (أو وسطها الرئيسي) ليست كبيرة، ما يجعلنا نلتقي، بسهولة لا بأس بها، الشخص نفسه مرّتين او ثلاثاً في اليوم نفسه. فمن الممكن التصوّر كم هو سهل هذا الأمر. إذ كنّا، كما الشخص الآخر، نمضي

النهار بأكمله في الشارع متجوّلين، هائمين على وجوهنا، سائرين بلا هدف ولا إتجاه معيَّنٍ ولا سبب، وعلى الأرجح حتّى من دون أن نعي ماذا نفعل. أخذت بعض الوجوه وبعض الملابس تصبح أليفة جداً بالنسبة إليّ. «ها هو مجدّداً صاحب الأسنان السوداء والأنف الشاحب والذقن الحمراء»، هكذا كنت أفكّر وأنا أتقاطع معه للمرّة الألف. «ها هو الشحّاذ ذو القفّاز الأخضر اللون». «ها هي تلك المرأة ذات الابتسامة الغائبة ومن دون أسنان، والتي ربّما كانت جميلة في أحد الأيام، إذ لا تزال تمشي كما كانت تمشي في الستينيات النساء الجميلات اللواتي يعرفن أنَهنّ جميلات». «ها هو ذلك الاسكوتلاندي الأصلع كلياً على الرغم من قبعة الجوكي التي يعتمرها والذي يبالغ كثيراً في لفظه حرف الراء عندما يلعن الله الجبّار وأمّه العذراء». «ها هو ذلك الشاب الأسود والموشَّم وساق بنطلونه اليمنى مقصوصة حتى ثنية الفخذ». «ها هو العجوز العاطفي، المتقوقع على ذاته، والشبيه شبهاً مطابقاً بالفيلسوف الذي رسمه فراغونار». كنت من جهة أخرى أخشى أن يتعرّفوا إليّ بالطريقة نفسها وأن يأخذوا بمقارنتي، وأن يلاحظوا، على الرغم من أنّني لم أكن شحاذاً ولم أتكلّم مثلهم ولم ألبس مثلهم (بل كانت هيئتي هيئة أستاذ جامعي حتى لو لم أكن ألبس دائماً ثوب الأساتذة)، وأن يلاحظوا أنّني أنا بدوري أظهر في تيههم الآلي، عدّة مرات في اليوم نفسه، يوماً بعد يوم، وذلك خلال أسبوع وأسبوعين وثلاثة أسابيع وأربعة، كحيوانٍ أليفٍ، وضائع، ومنفيٍّ، إذ نفاه إلى الشارع الطفل «إريك» الذي كان مريضاً.

بطريقة أو بأخرى، بدأتُ اشعر أنّني واحد منهم؛ بل رحت أخشى أن أتحوّل يوماً ما إلى واحد منهم، في إسبانيا أو في إنكلترا، أو في أي مكان في العالم حيث قد تأخذني المصادفة أو المصلحة. لكن حتى لو بدا ذلك، وبكل بساطة، وليد الهذيان (ولو الهذيان الموقت)، يجدر القول أن اضطرابي لم يكن قوياً بما فيه الكفاية كيّ يغذّي وحده هذا الخوف، أو الوهم، أو الخيال، أو التشبيه والتحقيق حول هويتي، وفقط من خلال هذا التسكّع المشترك معهم عبر مدينة أوكسفورد والخمول المشترك. ثمة شيء آخر - ولو قليل الأهمية - كان يغذّي هذا الخوف المُهلِك، هذا الوهم المعتم والمغمّ أو هذه الهوية الضبابية.

منذ الزيارة الأولى لـ«ألان ماريوت» Alan Mariott، أي قبل سنة أو أكثر، كنت قد أَدرجتُ في لائحة الأدباء النادرين والغريبين اللذين أبحث عن بعض كتبهم، ذلك الكاتبَ الذي يُدعى «جون غاوزوورث» John Gawsworth (وكنت أجهلُه حتى ذلك الحين، إلاّ أن «ماريوت» كان قد ذكر اسمه أمامي ودوّنه قبل أن يخرج من عندي)، والذي كان «ماشن» قد كتب له مقدمة. «كان من الصعب العثور على أعماله»، كما قال «ألان ماريوت» نفسه. لا يُنشر شيءٌ حالياً في إنكلترا من أعماله النادرة، لكن رويداً رويداً، وبشيء من الصبر والحظ، ومن خلال عيني الصيّادة، أخذتُ أعثر على بعض

كتيّباته لدى بائعي الكتب العتيقة في أوكسفورد ولندن، إلى أن وجدتُ، بعد بضعة اشهرٍ، نسخةً من كتابه «باكواترز» Backwaters، طبعة ١٩٣٢، مع توقيع الكاتب نفسه عليها John Gawsworth: written aged 19 1/2, «جون غاوزوور: كتب في عمر ١٩ ونصف»، هذا ما نقرأه بالحبر ما إن نفتح الكتاب. إضافة إلى تعديل بخط يده في الصفحة الأولى (كان قد أضاف، بعد اسم «فرانكشتاين» Frankenstein، كلمة monster أي وحش، كي يؤكّد أنه كان يعني بذلك المخلوق وليس الخالق). إنّما الشعور بالدوار الموقت أو بالوقت الثابت الذي يخالجنا عندما تقع بين أيدينا أشياء لا تهمل ماضيها كلياً، هو الذي أثار فضولي، ومنذ ذلك الحين باشرت عملية تحقيق دامت عدّة أشهر، لكنّها لم تأتِ بأية نتيجة، لشدّة ما كان هارباً، أو غامضاً ومجهولاً آنذاك، (ولا يزال حتى اليوم)، شخص «تيرنس إين فيتون ارمسترونغ» Terrence Ian Fytton Armstrong، وهو الاسم الحقيقي للّذي اعتاد أنّ يوقّع تحت اسم «غاوزوورث».

مع ذلك، وعلى الرغم من أن كتاباته لم تكن إلاّ لائقة أو غريبة، ما يفسّر سبب نسيانه الكلّي وعدم إعادة طبعه، فكلّما تقدّمتُ في تحقيقي لدى المراجع المتفرقة (لم يكن ثمة أي كتاب على الاطلاق، ولا أي مقال حول «غاوزوورث» كما يبدو، وبالكدّ كان يُذكَر اسمه في القواميس والموسوعات الأدبية الضخمة والشاملة)، كلّما ازداد اهتمامي وفضولي، لكن ليس إزاء العمل العادي هذا، بل إزاء الشخص غير العادي. اكتشفتُ قبل كل شيء تاريخَي ميلاده ووفاته، ١٩١٢ و١٩٧٠، ثم في صفحة «البيبليوغرافيا» الصامتة والبكماء،

اكتشفت أن عدداً من نصوصه كان قد نُشر (أحياناً تحت أسماء مستعارة مختلفة، تضاهي بعضها بعضاً في العبثية والغرابة) في أماكن شاذة وخارجة عن المألوف بالنسبة إلى كاتب لندني، كتونس، والقاهرة، وستيف Sétif (الجزائر)، وكالكوتا، وفاستو (إيطاليا). ثمة ميزة خاصة لأعماله الشعرية (وقد جُمعت ما بين ١٩٤٣ و١٩٤٥ في ستة أجزاء - معظمها طبعة هندية -)، وهي أن الجزء الرابع، كما يبدو، لم يُنشر اطلاقاً، على الرغم من أنه أُنجِز وحمل عنواناً (Farewell to Youth أو «وداعاً لزمن الشباب»). إنه بكل بساطة، غير موجود. نجد أعماله النثرية - ولا سيّما أبحاث قصيرة في الأدب، وقصصُ رعبٍ - مبعثرة في مقتطفات غريبة وغير معروفة تعود إلى الثلاثينيات، أو رأت النور - كما يقال - في منشورات خاصة أو محدودة.

إلاّ أنّ «غاوزوورث» كان شخصية ووعداً أدبياً في فترة الثلاثينيات بالذات. لم ينفكّ يدفع إلى الامام الحركات الشعرية «الإليزابيتية» الجديدة كردّة فعل ضدّ «إليوت» Eliott و«أودن» Auden وغيرهما من المجدّدين، وكان له علاقات وصداقات، حتى عندما كان لا يزال مراهقاً أو أكبر من ذلك بقليل، مع كثيرٍ من الكتّاب البارزين في ذلك العقد؛ اهتمّ بأعمال الرائد الشهير، الرسّام «ويندهام لويس» Wyndham Lewis، وأعمال «تي إي لورنس» TE Lawrence أو لورنس العرب؛ حاز على جوائز أدبية وكان العضو المنتخب الأصغر سناً في الجمعية الملكية للآداب؛ تعرّف إلى العجوز «ييتس» Yeats، وإلى «هــاردي» Hardy الذي كان مشرفاً على

الموت؛ حضنه «ماشن» ومن ثم كان هو حاضنه، كما حضنه الطبيب النفسي الشهير المتخصّص في الجنس، «هافلوك إيليس» Havelock Ellis، والإخوة الثلاثة «بوويز» Powys، كذلك الروائي والقصّاص المعروف آنذاك (والآن مجدداً، إلى حدٍّ ما) «إم بي شيل» M.P Shiel. وتعمقتُ في بحثي حتى وجدتُ أخيراً، في قاموس متخصص في أدب الرعب والوهم، أشياءَ إضافية. ففي ١٩٤٧، إثر وفاة معلّمه «شيل»، لم يُعيَّن «غاوزوورث» منفِّذاً لوصيته الأدبية فحسب، إنما أيضاً وريثاً لمملكة «ريدوندا» -، وهي جزيرة صغيرة جداً في «الأنتيل» Antilles، وكان «شيل» نفسه (وهو من مواليد جارتها والأكبر منها بكثير، جزيرة «مونتسيّرات» Montserrat) قد تُوِّج ملكاً عليها سنة ١٨٨٠ وهو في الخامسة عشرة من عمره، في احتفال بحري رسمي، بناءً على رغبة الملك السابق، والده، الذي كان مبشِّراً ميتودياً محلياً، كما أنّه كان صاحب شركة ملاحةٍ وقد اشترى هذه الجزيرة قبل عدّة سنوات، على الرغم من أنّنا لا نعرف ممن اشتراها تحديداً كون سكّانها الوحيدين في ذلك الوقت كانوا طيور البجع وحفنةً من عشرة رجالٍ شغلهم الشاغل لملمة غائط الطيور وجمعه لصنع السماد منه. لم يستطع «غاوزوورث» الإمساك بزمام مملكته اطلاقاً، إذ أن الحكومة البريطانية (إنما وبسبب ذلك، كان كل من جيل الأب وجيل الابن، كذلك «غاوزوورث» نفسه، قد لاحقوا الدعوى التي رفعوها، ومن دون كللٍ، من خلال المكتب الاستعماري)، التي جذبها فوسفات الألومين الذي تحتوي عليه الجزيرة، قد قرّرت ضمّ هذه الأرض، تداركاً لأي استملاك قد تقوم به الولايات المتحدة.

على الرغم من ذلك، وقّع «غاوزوورث» بعض أعماله تحت اسم «خوان الأول» Juan I، ملك «ريدوندا» (ملك في المنفى، طبعاً)، ومنح بعض الكتّاب (منهم من باب الصداقة وغيرهم من باب الإعجاب بهم) ألقاباً دوقية، أو عيّن البعض الآخر أميرالات، ومن بينهم المعلّم «ماشن»، «ديلان توماس» Dylan Thomas (دوق غوينو) Duke of Gweno، «هنري ميلر» Henry Miller (دوق توانا) Duke of Thuena، «ريبيكا ويست» Rebecca West و«لورنس داريل» Laurence Durrell (دوق سرفانتس الصغيرة) Duke of Cervantes Pequeña. ملاحظة هذا القاموس التي لم تستطع أن تفسّر كل ذلك (وبالمناسبة لم أعرف التفاصيل إلا في ما بعد)، انتهت على هذا النحو: «على الرغم من وسع دائرة صداقاته، تحوّل «غاوزوورث» إلى نوع من المغالطة التاريخية. أمضى سنواته الأخيرة في إيطاليا، ثم عاد إلى لندن ليعيش من الحسنات ولينام على مقاعد الحدائق العامة، ومات، منسياً ودون فلسٍ واحدٍ، في احد المستشفيات».

أن يكون هذا الرجل الحائز على جوائز كثيرة، والذي استطاع أن يصبح ملكاً، والذي وقّع في أحد أيام ١٩٣٢، بكل ما تأتّى له من حماسة شبابه وكبريائه، على نسخة «باكووترز» Backwaters التي هي الآن بين يديّ، أن يكون انتهى بهذه الطريقة، هو أمرٌ لم يستطع إلاّ أن يؤثّر فيّ – حتى أكثر من قصة «مولينو» Mollineux عازف الكمان و«ميو» Mew العالم البابوي في اللاهوت–، ولو أن الكثر من كتّابٍ ورجالٍ افضل منه لاقوا المصير عينه. لم أستطع التوقف عن

التساؤل ما الذي حدث في «ذلك الفراغ»، أي تلك الفترة بين دخوله المبكّر والمهتاج إلى الأدب والمجتمع، وتلك النهاية البائسة المغالِطة للتاريخ؛ ما الذي قد حدث له - ربّما - خلال إقاماته وأسفاره تلك عبر العالم، وهو ينشر ويكتب بلا انقطاع، أينما كان. لماذا تونس والقاهرة والجزائر وكالكوتا وإيطاليا؟ فقط بسبب الحرب؟ فقط بسبب نشاطٍ ديبلوماسيٍ ما، غامضٍ وغير مدوَّنٍ؟ ولماذا لم يعد ينشر بعد ١٩٥٤ - ستة عشر عاماً قبل موته المأسوي - هو الذي استطاع النشرَ في أمكنةٍ وتواريخ كان العثور فيها على مطبعةٍ عملاً بطولياً أو انتحارياً؟ ما الذي حدث للمرأتين - على الأقل - اللتين تزوّجهما؟ لماذا، في الثامنة والخمسين من العمر، تلك النهاية لعجوزٍ بائس، تلك الميتة لشحّاذٍ أوكسفوردي؟

وبجهدٍ استطاع الزوجان «آلاباستر»، على الرغم من حكمتهما الشاسعة وتبصّرهما، مساعدتي على إيجاد نصوصٍ له؛ لم يعرفا الكثير عنه، إنّما ما كانا يعلمان به فقط، هو وجود شخص في «ناشفيل» Nashville (تينيسي) Tennessee يملك، تقريباً، وهو على بعد آلاف الكيلومترات، كل المعلومات حول «غاوزوورث». هذا الشخص، الذي تأخرتُ في مراسلته بسبب خوفٍ غريبٍ وغير مبرَّر، أحالني (عندما كتبتُ له أخيراً) إلى نصٍ قصيرٍ لـ«لورانس دوريل» Laurence Durrell حيث تبيّن لي أن «غاوزوورث» كان معلّمه الأدبي وصديقه أيام الصِّبا، كما أنه زوّدني ببعض المعلومات الإضافية: زوجات «غاوزوورث» كنّ ثلاثاً، واثنتان منهن، على الأقل، كانتا قد توفيتا؛ كانت مشكلته الكحول؛ وكان شغوفاً - قرأتُ هذا بخوف وبشيء

من الهول – بالبحث عن الكتب القديمة ومعروفاً بهَوَسه المنحرف في جمعها. منحرفٌ، هكذا وصفه شخص «ناشفيل» بلا تردّد.

يتكلّم نص «دوريل» عن «غاوزوورث» أو «ارمسترونغ» وكأنه صيّاد أعمالٍ نادرة، صيادٌ خبيرٌ وموهوب جداً ويتمتع برؤيا رائعة للكتب النادرة وبذاكرة خاصة بعلم الكتب لا تضاهى؛ اعتاد في بداياته أن يدشّن يومه شارياً بثلاث «بينيز» pennies طبعةً نادرة وثمينة كانت تعرف عينه أن تميّزها وتراها بين ركامِ صناديقِ مبيعات التصفية المعروضة في قلب «تشارينغ كروس رود» Charing Cross Road، ليعود ويبيعها على الفور بعدّة ليرات (فقط على بعد أمتارٍ قليلة من حيث كان قد عثر عليها) لمكتبة «روتا» Rota في «كوفنت غاردن» Covent Garden أو لأية مكتبةٍ أخرى في سيسيل كورت Cecil Court (يكون صاحبها هاوياً مرهفاً). إضافة إلى كتبه الرائعة (كان يحافظ على كثير منها وكأنها كنزٌ)، كان في حوزته مخطوطات ورسائل، كتبها وبخطّ اليد، كتّاب محبوبون ومشهورون؛ كما كان في حوزته عدّة أغراض كانت يوماً ملكاً لشخصيات معروفة، لم يدرِ أحد بواسطة أي مال حصل عليها في تلك المزادات العلنية التي كان يرتادها: قلنسوة لـ«ديكنز» Dickens، ريشة لـ«ثاكيري» Thackeray، خاتم «ليدي هاميلتون» Lady Hamilton، ثم رفات «شيل» Shiel نفسه. كان يبذل جزءاً كبيراً من طاقته للحصول من الـ«رويال سوسايتي أوف ليتراتور» Royal Society of Literature ومن مؤسسات أخرى (كان أعضاؤها الأكثر تقدّماً في السن يتضايقون كثيراً من إلحاحه وإصراره ومقارناته الأدبية والمالية المضنية)

على رواتب ومساعداتٍ لكتّابٍ عجزة ليسوا قادرين على إعالة أنفسهم أو بكل بساطة، فقروا بعد أن كانوا قد ذاقوا ذروة النجاح: المعلّمان «ماشن» و«شيل» كانا من بين المستفيدين. لكن «دوريل» يروي ايضاً أن آخر مرّة كان قد رآه فيها، قبل ست سنوات (يعود تاريخ النص إلى ١٩٦٢، عندما كان «غاوزوورث» لا يزال على قيد الحياة وكان في عقده الخامس، يعني أنّه رآه وهو في الرابعة والأربعين؛ لكن ما استغربه، هو أنّ «دوريل» الذي كان من سنّه، يتكلّم عنه كمن يتكلّم عمّن سبقوه ورحلوا أو عمّن هم على طريق الرحيل)، وذلك في «شافسبوري أفينيو Shaftesbury Avenue»، رآه يدفع أمامه عربة أطفالٍ. عربةٌ فيكتورية ضخمة الحجم، كما يشير «دوريل». عندما رآه، وكان (دوريل) قد وصل للتوّ من «بورنموث» Bournemouth فكّر في ذلك البوهيمي الشّاذ، ذلك الكاتب الحقيقي الذي أدهشه بمعرفته ودلّه على أهم نشاطات لندن الأدبية والليليّة، فكّر كيف في النهاية حاصرته الحياة وأرهقته (وكيف أنها استوفته أيضاً، كما يقول «دوريل» حرفياً)؛ كان أيضاً قد أنجب، ربّما ثلاثة أزواج من التوائم نظراً إلى حجم العربة الهائل. لكن عندما اقترب لينظر إلى الطفل «غاوزوورث» أو الطفل «أرمسترونغ» أو «أمير ريدوندا» الذي توقّع أن يجده تحت غطاء العربة، اكتشف بارتياحٍ أن محتواها الوحيد هو كومة قناني جعة فارغة كان «غاوزوورث» في طريقه إلى إعادتها وتقاضي ثمنها واستبدالها بقناني مليئة. رافق «دوق سرفانتس بيكينيا» (هذا كان لقبه) مَلِكَه المنفي (الذي لم يرَ يوماً مملكته) ورآه يملأ العربة قناني جديدة؛ وبعد أن شَرب واحدة معه في

ذكرى «براون» Browne، أو «مارلو» Marlowe، أو أي كلاسيكي آخر قد يكون صادف عيد ميلاده في ذلك اليوم، رآه يتوارى دافعاً عربته الكحولية في خطوة هادئة نحو العتمة، ربّما بالطريقة نفسها التي أدفع فيها الآن عربتي عندما يهبط المساء على الـ«ريتيرو» Retiro[٣]، إلاّ أنّني، أنا، وضعتُ داخلها طفلي – هذا المولود الجديد – الذي لا أعرفه جيداً حتى الآن والمحتّم عليه أن يستمرّ بعدنا.

في ما بعد رأيتُ صورة لـ«غاوزوورث» تتطابق بشكل أو بآخر – على قدر ما نستطيع رؤيته وتمييزه – والوصف الجسدي الذي يكتبه عنه «دوريل» بالذات في نصّه: «...متوسط القامة، شاحب بعض الشيء، وأهيف؛ كان أنفه مفلوقاً يمنح وجهه لمسة دهاءٍ. كانت عيناه كستنائيّتي اللون وبرّاقتين، وحسّ النكتة لديه لم يتأثّر بخيباته الأدبية». في هذه الصورة الوحيدة التي رأيتها، يظهر في ثياب الـ«القوة الجوية الملكية» RAF وبين شفتيه تتدلّى سيجارة لم يكن أشعلها بعد. كانت ياقة قميصه واسعة بعض الشيء وتبدو كعقدة ربطة العنق إنما ضيّقة اكثر من اللازم، حتى لو أن تلك الحقبة كانت حقبة العقد الضيقة في ربطات العنق. وكان يحمل أوسمة. تملأ التجاعيد الأفقية جبينه الصافي، بالإضافة إلى الدوائر السوداء حول العينين، ثمة بالأحرى ثنايا صغيرة تحتهما، تحت العينين اللتين تنظران بمزيجٍ من المكر أو اللهو، والحلم أو الحنين. إنه وجهٌ سخيّ. النظرة نظيفة. أذناه تلفتان الأنظار. قد تكونان على السمع الآن. إنه على

٣– حديقة في مدريد

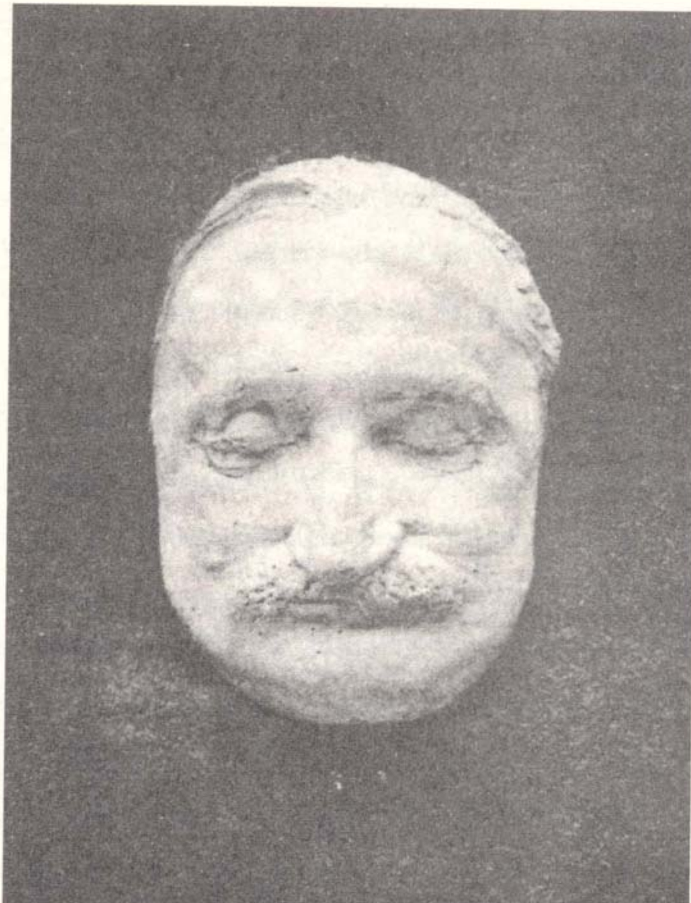


الأرجح في القاهرة، من دون شك في الشرق الاوسط، أو ربما لا؛ ربما في شمالي افريقيا، في قطاع «البربير» Berbérie الفرنسي، سنة ١٩٤١ أو ٤٢ أو ٤٣، ربّما ليس قبل انتقاله بكثير من الكتيبة «سبيتفاير» Spitfire إلى «ديزرت آر فورس» Desert Air Force في الجيش الثامن. قد لا تشتعل طويلاً هذه السيجارة. قد يكون في الثلاثين من العمر ولو أنّه يبدو أكبر، أكبر بقليل. ولأنّني أعلم أنّه مات، أرى في الصورة وجهَ رجلٍ ميتٍ. يذكّرني بعض الشيء بـ«كرومر-بلايك»، ولو أنّ شعره شاب قبل أوانه، والشارب الذي كان يتركه يطول خلال أسابيع ليعود ويحلقه فيتركه حليقاً خلال أسابيع أخرى، كان أيضاً شائباً أو لنقل كانت تتخلّله خيوط فضّية، بينما كان قاتماً لون شارب «غاوزوورث» وشَعرِهِ. أمّا تهكُّم النظرة فشبيه جداً، إلّا أنّ تهكّم «غاوزوورث» هو أكثر لطفاً، وليس فيه أيّ أثر للسخرية أو للغضب، ولا أي شيء يعلن عنهما، ولا حتى أي إحتمال لوجودهما. بزّته ليست مكويّة جيداً.

كذلك رأيتُ صورةً لقناعه الجنائزي. كان قد تنازل للتوّ عن الحياة أو عن سيرها عندما صنعوه له؛ لكنّه أيضاً كان قد أكمل للتوّ الثامنة والخمسين من عمره. ابتكر القناع «هيو اولاف دي ويت» Hugh Olaff De Wet في ٢٣ ايلول ١٩٧٠، وذلك في اليوم نفسه، أو في اليوم التالي لوفاته في لندن، في منطقة «كنسنغتون» Kensington، حيث كان قد رأى النور. وهبه صديقه القديم في القاهرة، السير «جون والير» John Waller إلى الـ«بويتري سوسايتي» Poetry Society، لكن هذا الاهتمام قد حصل بعد الوفاة أو أتى

متأخراً جداً. هذا الذي كان «جون غاوزوورث»، و«تيرنس إين فيتون أرمسترونغ»، و«أورفيوس سكرانيل» Orpheus Scrannel، وخوان الأول ملك «ريدوندا»، وأيضاً أحياناً «فيتون أرمسترونغ» فحسب، أو «ج غ»، او حتى «غ» بكل بساطة، عيناه مغلقتان الآن وهو من دون نظرة من أي نوع كانت. أصبحت الثنايا الآن ولا شك دوائر سوداء تحيط بالعين، وتجاعيد الجبين لم تعد واضحة (جمجمته محدّبة) ورموشه كأنها ازدادت، ربما تحت تأثير الجفنين المغلقين. يبدو شعره أبيض (لكن ربما بسبب الجبس المصنوع منه القناع) وتراجع أكثر، كاشفاً عن جبين أعرض وعن صلع أكثر رُبّما بدأ وهو في عقده الأربعين أو حتى منذ أوائل شبابه، منذ الحرب ضد الـ«أفريكا كوربس» Africa Korps. يبدو شاربه كثّاً أكثر هنا، لكنه أيضاً رخو أكثر: إنه شارب ينخز ولكنه في الوقت نفسه أملس وهابط، شاربُ عسكريٌّ متقاعدٍ تعب من شدّه ورفعه. كَبُرَ الأنف واتّسعَ، أصبح خدّاه رخوين، ووجهه كلّه منفوخاً، وكأن سبب الانتفاخ سمنة مَرَضيّة وانهيار عزيمة. ذقنه مرتخٍ. فلا شك في أنه ميّت.

لكن وجهه الأخير هذا رافقه على الأرجح في تسكّعه عبر شوارع لندن، داخل معطف أو سترة من النوع الذي يحصل عليه دائماً الشحاذون. قد يكون أمضى أيامه يلوّح بالقناني ويشير أمام أترابه إلى كتبه المعروضة في صناديق مبيعات التصفية في «تشارينغ كروس رود» والتي على الأرجح لم يستطع شراءها، الأمر الذي قد أدهش أولئك. وأخبرهم عن تونس والجزائر وإيطاليا ومصر والهند. وأعلن نفسه ملك «ريذوندا»، الأمر الذي جعلهم يمرحون كثيراً. نام



هذا الوجه معه على مقاعد الحدائق العامة ودخل معه مستشفًى ما، على حدّ قول ذلك القاموس المتخصص في أدب الرعب والوهم؛ رأى معه نفسه عاجزاً عن مدّ اليد التي استعملت الريشة وقادت الطائرات. كان ربّما، كما هم عادةً الشحاذون البريطانيون، متعجرفاً وعنيفاً، فظاً وشرساً، متعالياً ومهدِّداً، وربّما لم يعرف، من ناحية أخرى، أن يطلب لنفسه. كان من دون شك سكّيراً، ويبدو أنّه في آخر حياته لم يقم في إيطاليا عدّة سنوات كما اعتقدنا، إنّما فقط بضعة أسابيع في الـ«أبروثوس» Abruzos، في «فاستو» Vasto، وكان هدفه القيام بمجون أخير، لكنّني لا أعرف شيئاً عن هذا الأخير. «مجون أخير»، هكذا قال شخص «ناشفيل» في رسالته والذي لم أعاود الاتصال به. لم يكن ثمة أي «غاوزوورث» لإنقاذ «غاوزوورث»، لم يكن ثمة أي كاتبٍ واعدٍ ومتحمّس ليعيده إلى صوابه ويجبره على العودة إلى الكتابة (ربّما لأن عمله لم يلقَ استحساناً ولم يرد أحد له الاستمرار)، لأن يطلب له أو لأن يجد له راتباً تقاعدياً من الـ«رويال سوسايتي أوف ليتراتور»، التي كان فيها يوماً عضواً منتخَباً، العضو الأصغر سنّاً. كذلك لم يكن ثمة امرأة، من العديدات اللواتي مررن في حياته، لتكبح هذيانه أو لترافقه فيه. هذا ما أعتقدُه. أين هنّ أو أين يرقدن تلك النساء، قاطنات الجزر أو المستعمرات؟ أين هي كتبه اليوم، التي يميّزها من النظرة الأولى في خضمّ متاهات الرفوف الفوضوية والمغبّرة، كما كنت أفعل أنا إزاء رفيف الزوجين «ألاباستر» والكثيرين غيرهما من أصحاب مكتبات أوكسفورد ولندن؟ (أنا أيضاً، وبأصابعي الرشيقة التي من خلال القفّاز كانت بالكدّ تمسّ

جوانب الكتب فتجوبها بسرعة أكبر مما تفعل عيناي - كما عازف البيانو وهو في أدائه الـ«غليساندو» glissando-، كنتُ دائماً أجد ما أبحث عنه، إلى درجة أنّني كنت احياناً أشعر أنها هي، أي الكتب، التي تبحث عني، وتجدني). على الأرجح عادت كتبه إلى العالم الذي ترجع اليه كل الكتب أو معظمها، الى مكتبات الكتب العتيقة، هذا العالم الصبور والصامت، والذي يخرجون منه موقتاً فقط. وقد يكون أحد الكتب الذي في حوزتي، إضافة إلى «باكواترز»، مرّ ايضاً بين يدي «غاوزوورث»، وقد يكون اشتراه وباعه على الفور ليدفع ثمن فطورٍ أو قنّينة؛ أو قد يكون أيضاً بقي - كتابٌ مختارٌ - خلال سنين في مكتبته، أو رافقه إلى الجزائر ومصر وتونس وإيطاليا وحتى إلى الهند؛ وحضر معاركَ. ربّما يكون أحد أولئك الشحاذين المشؤومين الذين كنت ألتقيهم عدّة مرّات يومياً في أوكسفورد، والذين كنت أخشاهم، والذين كان جنوني، الموقت والخفيف، يريني عبرهم كما بانعكاس مُسبق صورة ما سوف أُصبح عليه (أو ليس إلى هذه الدرجة)، قد يكون أحد أولئك قد امتلك يوماً كتباً. قد يكون «ألّف» كتباً، أو علّم في أوكسفورد، أو كانت عشيقته أُمّاً - عاشقة دبقة في البداية ثم هاربة وغير مبالية (عندما ازداد شعورها بالأمومة)؛ أو قَدِم من بلدٍ جنوبيٍ (مع أرغن رديء ضيّعه ما إن وصل، وذلك عند نزوله من الباخرة، ربّما في مرفأ «ليفربول»)، وخطَّ قَدَره) وهولم ينسَ أنّه لا يستطيع العودة إليه كلّما شاء.

لم أطرح على نفسي كل هذه الأسئلة، ولا أطرحها، رأفةً بـ«غاوزوورث» (وهو في النهاية اسمٌ مستعارٌ فحسب، ولم أتعرّف إليه إطلاقاً) التي نصوصه (وهي الشيء الوحيد المتعلّق به الذي لا أزال أستطيع رؤيته إضافة إلى صوره أكان حياً أو ميتاً) لا تعني لي الكثير، سوى أنها تثير فضولي المطعّم بالتطيّر، وكنتُ قد توصّلتُ إلى اقتناع، أثناء ساعات العصر الطويلة تلك من فصل الربيع أو «ترينيتي»، بأنّي سأنتهي مثله.

الربيع الإنكليزي مغمّ بشكل خاص، ومثير للقلق لِمَن يكون في الأصل قلقاً، فكما هو معلوم، النهار يطول بطريقة غير طبيعية، أي ليس كما يطول في مدريد أو برشلونة عندما يقترب الصيف أو عند حلوله. هنا، في مدريد، يصبح النهار طويلاً، لكن الضوء يتبدّل ويتنوّع، فيُظهر فروقات ألوانه الدقيقة باستمرار، إظهاراً يقنعنا بأنّ الوقت يتقدّم فعلاً؛ بينما في إنكلترا – وفي كل البلدان الشمالية – ما من شيء يتغيّز اثناء ساعات بأكملها. فيبقى الضوء في أوكسفورد هو عينه منذ الخامسة والنصف، أي عندما نرى أنفسنا مجبَرين على تأمّله مع توقّف كل النشاطات المرئية – عندما تغلق المحلات ويعود الأساتذة والطلاب إلى منازلهم –، حتى التاسعة وأكثر، حين تغرب الشمس فجأة – كما لو كان ثمة زرّ كهربائي يطفئها، ولو بقي منها طيفُ بريقٍ في الأفق – ويخرجون ليلاً مهرولين إلى الشارع بفارغ

صبر. هذا الضوء نفسه الذي لا يتحرّك، هذا التشديد على ثبات المكان أو استقراره يجعلنا نشعر أننا واقفون خارج العالم وخارج مجرى كل ما هو رائج ومألوف هناك، كما فسّرتُ. خلال تلك الساعات الجامدة لم يكن لديّ ما أفعله، إذ تناوُل العشاء في ضوء النهار كان أمراً مستثنى. وأنتظرُ. أنتظرُ. أنتظرُ أن يهبط الليل المَروم، أن يختفيَ هذا الضوء المعلّق والفاتر، أن تعود إلى الدوَران عجلة العالم وأن ينتهيَ هذا السكون، فأنزوي في البيت، لمشاهدة التلفزيون أو للاستماع إلى الراديو، إذ لا مكتبات مفتوحة لكي أزورها ولكي أشعر أنّني نشيط ومفيد وفي مأمَن. أما الأسياد، وبينما تكون الشمس في شللها هذا، فيستريحون في غرفهم في الكولدج أو يتعشّون على موائدهم المرفوعة، في حين يتفرّغ الطلاّب لتحضير امتحاناتهم أو يتأهّبون لسهرةٍ مجونٍ، ما إن تأكدوا أنّ الليل حلّ. في ساعات الغسق الطويلة والجامدة تلك، الغسق الربيعي في أوكسفورد، تكون المدينة أكثر من أي وقت آخر ملكاً لأمثال «غاوزوورث»، أي الشحّاذين. فيسيطرون عليها ما استمرّ ودام هذا الشفق الطويل والزائف والذي تجرؤ وحدها على التدخّل فيه أجراس المدينة التي لا تُحصى–أجراس ماضيها التقيّ – وهي تنادي، من خلال دقّاتها المفرطة، لصلاة المساء. لا يذهب الشحّاذون إلى بيوتهم، ولا يعودون إلى الكولدج، ولا هم مدعوّون إلى أي «طاولة عالية». كذلك لا أعتقد أنّهم يرتادون الكنائس، عندما تناديهم هذه الأخيرة. يواصلون سيرهم ويظلّون يمشون ولا من وجهة محدَّدة؛ ولكن عندما يرون الشوارع فارغة من المارّة في وضح النهار، يتبلبلون وتتباطأ خطاهم، ثم

يتوقفّون ليركلوا قنينة أو ليدوسوا جريدة تكون قد رفعتها الريح، وإنّما أيضاً ليقتلوا الوقت الذي كانوا قد بدأوا بقتله منذ استيقاظهم.

اعتدتُ أن ألوذ ببيتي وأنتظر الليل، باحثاً أيام الأربعاء، في الراديو، عن إذاعةٍ إسبانية ما، قد تنقل مباراة عالمية لفريق «ريال مدريد» Real Madrid، وأكون في الوقت عينه، في كل لحظة، على وشكِ أن أرفعَ السمّاعة وأطلب رقم بيت «كلير بايز»، حيث قد تكون جلست عند طرف سرير الطفل «إريك» لتطعمه وجبة العشاء، أو تشاهد مع الطفل «إريك» برامج تلفزيونية للأطفال، أو تلهيه بلعبةٍ جديدةٍ. كانت رغبتي في أن أهاتفها عند كل غسق قويّة، لكن كي لا أرضخ لها، ولكّي أتحمّل ساعات الرتابة والجمود – تلك الساعات والأيام المتشابهة – كنت احياناً أحلق ذقني مرّة ثانية، وألبس للخروج إلى الشارع، أنا أيضاً، مثلما يفعل الطلاب والأساتذة الأكثر حيوية وفسقاً، لكيّ أختلط بالناس ما إن يهبط المساء. بعض الليالي كنت أتعشّى في مطعم «براونز» Browns الظريف والقريب جداً من بيتي الهرمي الشكل حيث كانت النادلات جذّابات جداً في تنانيرهن القصيرة؛ وفي ليالٍ أخرى كنت أذهب إلى إحد المطاعم الفرنسية التي كانت قد كثرت في المدينة، محاولاً بذلك الشعور بأنني في القارّة وليس في الجزيرة؛ أو غالباً ما كنت أجبر نفسي على حضور «الطاولات العالية» التي لا تُطاق والتي لم أعد إليها منذ الاشهر الاولى لإقامتي في أوكسفورد، أي منذ أكثر من سنة ونصف. جرّبتُ «الطاولات العالية» في كليّات مختلفة، تلك التي أعرفها أو التي لم أزرها بعد، على أملٍ ولو طفيفاً جداً، أن ألتقي مرّة ثانية «كلير بايز»

بين المضيفين («أُول سولز» All Souls، «إكزيتير» Exeter، من خلال زوجها) أو بين المدعوّين («كيبلي» Keble، «أوريال» Oriel، «باليول» Balliol، «بيمبروك» Pembroke، «كرايست تشرتش» Christ Church، وكلّها تتنافس في الضجر: عشاء «كرايست تشرتش» هو أكثر الولائم أبّهةً يضمّ أكبر عدد من المتثائبين). لكن كل ذلك يتطلّب مجهوداً كبيراً لم يكن كافياً لتجنّب الشعور بالملل ولمحاربة النور المخفَّف باستمرار وللهروب من استحواذ «غاوزوورث» ومصيره على تفكيري.

خلال تلك الأسابيع رحتُ أرتاد، ابتداءً من الثامنة والنصف أو التاسعة، ملهى ليلياً قريباً من الـ«أبولوثياتر» Apollo Theatre، يرتاده مبدئياً «أوكسفورديو» المصانع والمحلات التجارية (إذ أوكسفورد، خلافاً لكامبردج، تحتوي على صناعةٍ وعمّالٍ وطبقات اجتماعية تختلف عن تلك الجامعية منها) أكثر منهم «أوكسفورديو» الجامعة، ولو أنّني كنتُ جزءاً من الأخيرين. أقول مبدئياً، إذ فوجئتُ بأمرٍ. كنت أرى نفسي كل ليلة هناك أمام مشهد كأنّه من السبعينيات، لكن تلك السبعينيات الإنكليزية التي لم يكن لها أدنى التأثير في العالم. كل شيء كان ريفياً ومحلياً، من الموسيقى التي تدوي صاخبةً (كان ملهى ملهى) إلى الديكور (وهو كناية عن زخرفة شرقية بعض الشيء)، من الإضاءة على خشبة الرقص (أضواء خضراء وزهرية) إلى لباس اللذين كانوا يرقصون. ومع ذلك، كان هذا الملهى مرتاداً جداً إذ كما لاحظتُ، كان دائماً مليئاً بالزبائن، حتى في الساعات الأولى للمساء، وضوء الغروب لا يزال قوياً. أذكر أن السمينات، بتنانيرهن القصيرة

جداً وخصلات شعرهن الاصطناعية، كنّ يغزرن في هذا الملهى بشكل يفوق المعقول: فكانت ثمة طاولات تغذّيها مجموعات كاملة من السمينات المغذّيات (ما يُسمّى بالسمينات المقزّزات) اللواتي، ويرواح عددهنّ في كل مجموعة بين الستة أو السبعة، كنّ يتلاكمن باستمرار بمرفقهنّ، ويعلكن غارقات في مقاعدهنّ بفعل وزنهنّ ورخاوتهنّ، وهنّ يعرضن مداورةً – بكل وقاحة – أفخاذهنّ البدينة (في إحتكاك دائم) وطرفاً من لباسهنّ الداخلي. كذلك كان هناك شبّان متأنّقون كثر، ممن يسمّون بـ«داندي الأوكسفوردشاير» Oxfordshire (من «بانبوري» Banbury و«تشارلبوري» Charlbury، من «ويتني» Witney و«آينسهام» Eynsham، أي انّهم مَحَليّون جداً)، اللذين يستعرضون بتباهٍ ذوقَهم المبتذل والصارخ، الأمر الذي لا يحصل إلاّ في جنوب إنكلترا. من الواضح أن أولئك الشبّان الريفيين والمخنثين يكرهون السمينات المقزّزات، والسمينات المقزّزات يكرهن الأوغاد المتصنّعين: لم يكونوا يتواصلون، لكن عندما كانوا يلتقون وهم ينتظرون دورهم في المراحيض أو يتصادفون معاً في رقصة وسط الضجيج أو وسط الحلبة، كانوا يتقاذفون النظرات الكارهة (هم) أو الساخرة (هنّ)، وحين يعيدون، متواطئين، عيونهم نحو شركاء الطاولة أو البار، كانوا يشيرون بلا مواربة – وهم يحرّكون إبهامهم علانيةً، أكان الإبهام رفيعاً أم ثخيناً – إلى خصمهم المسكين. إذا كان هذان النوعان هما المهيمنين في هذا الملهى الشرقي، فهذا لم يكن يعني أنّ المكان لم يرتده سواهما؛ فكنت أرى في الوقت عينه طلاباً (وخصوصاً أولئك المنتمين إلى الطبقة الأرقى،

والذين بالتالي يستهويهم ما هو شعبي)، وكذلك بعض الأسياد - العزّاب - متنكّرين بزيّ الشباب. كانت معرفتي بمعظمهم سطحية، لا تتعدى رؤيتهم من بعيد، ما يكفي لئلاّ نضطر أن نتبادل السلام في مكانٍ كهذا؛ لكن في الليلة الرابعة عندما اقتربتُ من هناك، رأيتُ رئيسي، «أيدان كافاناخ» Aidan Kavanagh، روائي الرعب الناجح، وهو يرقص على الحلبة بمرونة خارقة وإيقاع مفرط. في البداية فكّرت في هلعٍ (لم أكن أرى جيداً في زحمة كل هذه الأجساد ولونها المحرّف)، أنّه استبدل بطقمه (الذي يرتديه دائماً) العادي جداً والبسيط، صدرية ذات لون أخضر نيليّ (وما من شيء تحتها)، لكن سرعان ما تبيّن لي (إنما بارتياحٍ متوسطٍ ليس إلّا) أن ذراعيه فقط هما اللتان كانتا عاريتين، ولو حتى الكتفين: أعني بذلك أنّه تحت الصدرية ذات اللون الاخضر النيلي كان ثمة ربطة عنق وقميص، كالعادة (لون مشمشي لهذه وأخضر لذاك)، لكن هذا القميص كان غريباً إذ هو كناية عن الجزء الأمامي فحسب. تساءلتُ إن كان يلبسه أيضاً في الكولدج، ونَوَيتُ أن أراقب جيداً، وذلك في المرّة القادمة عندما أراه في الـ«تايلوريانا»، إن كان كُمَّاه يظهران من تحت السترة أم لا. (في النهاية، إضافة إلى كونه روائي كتب باسمٍ مستعارٍ، روايات رعب، كان سلطةً عالمية في قرننا الذهبي هذا.) وفي أية حال، أتاح لي هذا الزيّ الذي لبسه في الملهى الليلي، أن أكتشف أنه مُشعِرٌ جداً عند الأطراف (العليا)، فتتوجّها من الداخل باقتان كثيفتان من شَعر الإبط الذي - ذراعاه كانا مرفوعين كل الوقت بسبب رقصه المجنون وبسبب ضيق المكان - لم أستطع سوى أن اتأمّله. هو رآني من بعيد،

وبدلاً من أن يحمرّ أو أن يحاول الاختباء، اقترب، من دون أن يقطع رقصته، من البار حيث كنت أنا، وسلّمَ عليّ بفرحٍ وبترحاب. كان يصطحب (ماسكاً إياها بيده المرفوعة)، فتاةً سمينةً تتأرجح في مشيها ويدفعها كلّما قام بخطوة (قصيرة) وكانت تبتسم كثيراً. رأى «كافاناخ» نفسه مجبراً على الصراخ لكي أسمعه، ولم يصدر عنه سوى جُملٍ وجيزة جداً، كجملِ «آلان ماريوت».

– ما هذه المفاجأة أن أجدك هنا! اعتقدتُ أن هذه الاماكن لا تعجبك! استغرقتَ سنتين قبل أن تكتشف هذا الملهى! – ووضع لي إصبعين أمام عينيّ –. هذه الحانة الرديئة هي الفُضْلى! الوحيدة التي تسلّينا في المدينة! – أدار عينيه لينظر إلى الحلبة بتقدير ورضى صادقين: كانت الحلبة تبدو وكأنها في ثورة أوبيرالية – أنا آتي كل ليلة تقريباً! كلّما استطعتُ! أعرف كل الناس هنا! – وبذراعه الجبّار والعاري حتى الكتف قام بحركةٍ غطّت الصالة بأكملها. شرب جرعةً طويلة –. هل تريد أن تتعرّف الى احدٍ؟! أعرِّفكَ على مَن تريد! أُنظرْ جيداً! حواليك! وإذا رأيتَ فتاة قد تتمنّى التعرف إليها! قل لي وأنا أعرّفك اليها، بالتأكيد! لدينا فتيات بالدزّينات–خفضَ صوته–. دزّينات. آه، دعني أعرّفك على «دجيسي» Jessy! «دجيسي»! – ترنّح لحظةً – ها هو صديقي إميليو! هو أيضاً إسباني!

– ماذا؟

– «إميليو»! – وأشار إليّ «كافاناخ» بأصبعه. كاد أن يصيبني في عيني –. صديق إسباني آخر!

– «بونا سيرا»! – صرخت «دجيسي» من فوق الضجيج.

– تشاو! – أجبتُها أنا كي لا اخيّبها. كانت مرحة جداً.

– من الأفضل ألا يعرفن أسماءنا الحقيقية – قال لي «كافاناخ» في أذني بالإسبانية –. والأمر مضمون، إذ هنّ يأتين إلى أوكسفورد فقط في الليل. هي تعتقد أنّني أعمل في صناعة السيارات. وعدتُها بسيارة «أستون مارتن».

– هل لا يزالون يصنّعونها؟

– لست اعرف، لكن هي قبلت بذلك. – وأضاف هذه المرّة بالإنكليزية –: تعال معنا! نحن كلّنا على طاولة واحدة! فتيات بالدزينات – همسَ –. بالدزّينات. معنا أيضاً أستاذ الـ«دييسترو» Diestro! وصل اليوم!

ومَسَكني «كافاناخ» بذراعي وجرّني متراقصاً إلى إحدى طاولات السمينات المقزِّزات اللواتي راقبتهنّ طوال الوقت، وخلال الليالي السابقة الثلاث كنتُ قد احتقرتهنّ بشدّة وكأنّني شاب ريفي ومخنّث من الـ«أوكسفوردشاير» (كانت «دجيسي» تتبعنا، وهي تتعثّر بقدميها وتدفع الناس يميناً ويساراً). وبالفعل كان معهنّ أستاذ الـ«دييسترو» الشهير، وأهم خبير عالمي وأصغرهم سناً في «سرفانتس» Cervantes على حدّ قوله، والذي أتى بدعوة من قسْمنا، ليلقي علينا محاضرة بارعة ومتفوّقة في الصباح التالي. وكنت أعرفه من خلال الصور. إنّه رجل متميّز، ولبق، وحاد الذكاء، وتخطّى الأربعين وكان يرتدي قميصاً من ماركة «فيرّيه» Ferré، وكانت صلعته جميلة؛ «أستاذ إسباني مميّز ولبق»، فكّرتُ بدهشةٍ ما إن رأيته، وفهمتُ سبب نجاحه؛ كان هذا الاستاذ قد بدأ بتقبيل إحدى الفتيات

الاكثر سمنةً. ويجب القول أن كل هذه السمينات، كما أولئك الدانديين الريفيين والأساتذة العزّاب والطلاب المنتمين إلى الطبقة الأرقى (وعلى الأرجح أنا أيضاً، لكن حينها لم أكن أنتبه كثيراً إلى ذلك ولم أكن بالتالي أعترف به لنفسي)، لم يكونوا يتوقون إلاّ إلى التعرّف إلى مَن لا يعرفونهم – الأمر الذي لم يكن بهذه السهولة نظراً إلى ثبات الزبائن وتكرارهم – فالهدف الرئيسي هو أن يطرح أولئك بضعة أسئلة عليهنّ، وبإيجازٍ، وأن يجيبوا عن بضعة أسئلة أخرى بأجوبة ماكرة، وأن يقدّموا لهنّ علكة (الرقص لم يكن الزامياً)، وأن يقبّلونهنّ بعد ذلك بقليل، وربّما – بحسب مجرى القبلات ونوعيّتها – أن يضاجعونهنّ على وجه السرعة في المراحيض أو في المدرًّج إذا وجدوا مع أحد زملائهم واقياً، أو في ما بعد في البيت، بهدوء أكثر.

كان أستاذ الـ«ديسترو» قد أحرز تقدّماً كبيراً في المعرفة التي نسجها مع الفتاة التي لم يكن يعرفها، كما تبيّن لي، إذ استطاع أن يسمح لنفسه بتوقفٍ موقتٍ معها ليبادلني أربع كلمات ودّية؛ و«كافاناخ»، بعد أن عرّفني على البنات الخمس أو الستّ، أجبرني على الجلوس على كنبة بين اثنتين منهنّ. بقيتُ محبوساً بين أفخاذهنّ الضخمة الأربع (فخذان لكل جسمٍ، أعني أجسام البنات)، وإذ استدركتُ فجأة انّني لن أخرج وحدي من هذا الملهى تلك الليلة، نظرتُ فوراً يميناً ويساراً لكي أقيّمهنّ، وفي نيّتي أن أختار قدر الإمكان الرفقة الأقل وزناً. إن الفتاة التي إلى يميني – رأيتُ هذا على الفور – لم تكن حقاً سمينة، ما قد يجعلني، بعد لحظات قليلة، قادراً على الشعور نوعاً ما بجاذبية جنسية نحوها. بعد أن كنتُ تخيّلتُ

درجة الحميمية التي نويتُ بلوغها مع كل واحدة منها، بدت لي تقاطيعها سائغة جداً، وكانت خصلات شعرها الصهباء رائعة، ولو تهيّأ لي أن هذه الخصلات كانت حديثة، ربّما منذ ساعات قليلة فقط (كان يوم الخميس). أدرتُ ظهري للأخرى – التي لا نستطيع نكران سمنتها ولا التملّص منها – وباشرتُ مع تلك التي لم تكن سمينة جداً، واسمها «موريِيل» Muriel، حديثاً متقطعاً وغير مثير وبصوت صارخٍ، حديثاً لا أتذكّر منه شيئاً تقريباً (بل كان بمثابة إجراء): أتذكر فقط أنها قالت أنها تعيش في قرية صغيرة جداً – أو كانت مزرعة – قريبة من «ويتشوود فوريست» Wychwood Forest، بين نهر «ويندراش» Windrush ونهر «إيفينلود» Evenlode. لكن كل هذا يمكن أن يكون خداعاً، كما كان اسما «إميليو» و«موريِيل». وكما رفيقاتها، كانت تعلك من دون توقّف؛ وعلى الرغم من أنها لم تكن بشوشة مثل الشابة «دجيسي» (التي كانت قد عادت إلى الحلبة لترقص مرّة أخرى مع «كافاناخ» ولتضمن سيارة الـ«أستون مارتن»)، كانت تبدو مَرِحة وسعيدة بالتعرّف إليّ ولم تكن تتجنّب احتكاك ساقيّ (المكسوّتين ببنطلونٍ ربيعيّ) بساقيها الضخمتين جداً والقويتين (لكن المكسوّتين فقط بجوارب رقيقة)؛ بل أكثر، كانت تسعى إلى تحويل هذه الملامسة التي لا مفرّ منها (بسبب ضيق المكان) إلى ضغطٍ متعمّدٍ. أنا كذلك لم أكن أتهرّب منها، وانتهى بها الأمر إلى أن وضعتْ يدها على ركبتي بعفوية وإلفة وسألتني بالصرخة التي كنا نعتمدها مداورةً:

– هل تريد علكة؟

– لا، شكراً! – قلتُ؛ ولكن ما أن قلتُ هذا، حتى انتبهتُ إلى أن جوابي لم يكن أفضل الأجوبة في ذلك المكان الشبيه بأماكن السبعينيات.

هي لم تعاود الكلام مباشرة. ظلّت شاردة بعض الشيء، وعلكتها بقيت لاصقة بحنكها أو بأحد أطراف لثّتها. ثم قالت بكل عفوية:

– أنا تركتها في فمي في حال تبادلنا القبل. لكن إذا شئتَ، أرميها حالاً.

(ومنحتني الوقت الكافي لألحظ نكهة النعناع القوية في ذلك الفم المصّاص والدائري الشكل.) (فمي أنا، كان يبعث على الأرجح نكهة التبغ الأشقر.)

بعد ذلك بساعة، وعند خروجي معها من الملهى، التقيتُ نظرتين، واحدة متعددة والأخرى مفردة، ولو أنّني غير متأكد بالنسبة إلى هذه الأخيرة: فعدّة «داندِيين» فطِنَ من أولئك الذين كنت قد بدأتُ أعرفهم ما إن رأيتهم، كانوا بدأوا يلومونني – وصنّفوني في النهاية: بازدراء كبير – بسبب الرفيقة التي اخترتُها؛ وعلى بعد عدّة أمتار، عند الباب، أعتقد أنّني تقاطعتُ (كانت هي تدخل؛ وفي حال كانت هي، أعتقد أنها نظرت إليّ كالبرق) مع فتاةٍ محطة «ديدكوت» التي أصبحت أيضاً، في ما بعد، ولو بإيجازٍ أكبر، فتاة «برودستريت» – وكان ذلك في محيط «ترينيتي كولدج»، قريباً من «بلاك ويلز» – حيث كانت في أحد المساءات العاصفة مع صديقة لم تدعها تتوقّف. وكما في تلك المناسبة الثانية (في حال كانت فعلاً هي في هذه المناسبة الثالثة: لم أكن رأيتها منذ أكثر من سنة، وقبل ذلك كانت اللقاءات

وجيزة جداً)، لاحظتُ أنها هي – أو هكذا اعتقدتُ؛ هكذا اعتقدتُ أنّني لاحظتُ – بعد أن كنا قد أدرنا ظهرنا كل من جهته. أنا أدرتُ رأسي، كما في تلك المرّة الأخيرة، لكنّها لم تفعل في هذه المرّة (حيث لم أكن متأكداً من أنها هي). رأيتُ عنقها يغرز داخل الملهى، كما عنق الرجل الذي كان يرافقها والذي لم أنتبه إلى وجوده على الإطلاق عندما كان امامي – ثانية واحدة فحسب وأخذنا نحن الرجلين نمشي، وربما كنّا في الوقت عينه نتجنّب واحدنا الآخر تفادياً لأي صدام –. من الخلف وكأنه «إدوارد بايز». لكن من المستحيل أن يكون هو: من المفترض أن يكون «إدوارد بايز»، على غرار زوجته، جالساً عند طرف سرير الطفل «إريك»، ويقرأ له حكاية، وقد تكون «كلير بايز» بقيت لسماعها. كان الوقت متأخراً جداً لكي أستطيع التحقق من أي شيء أو لأعود حيث كنت؛ وكذلك الآن، كما في «برود ستريت»، حصل شدٌّ بالكُمِّ، لكن هذا المرّة كان كُمّي أنا. على الرغم من عدم وجود رياح، أخذت «موريل» تفقد صبرها، وقد أصبحت في الشارع.

في البيت، في الطابق الثاني، عادتْ تعلك بعض الوقت، مازجة العلكة بالـ«جين» (كمية كبيرة منه، على الطريقة الإسبانية) الذي قدّمته لها في كوبٍ مع الثلج و«التونيك» Tonic. لم أكن ثملاً على الإطلاق؛ أما هي فكانت ثملة جداً، هذا كان انطباعي (لم أعرف ماذا شربت قبل تعارفنا). إنّما فقط بعد لحظات، فوق، في الطابق الثالث، عندما كنّا قد أصبحنا عارين في سريري، عندما بدأتُ أفكّر في «كلير بايز» حقيقةً وبدأتُ أشتاق إليها مجدَّداً، أو، بالأحرى (إذ لم أكن في

الواقع أشتاق إليها)، بدأتُ أتحقّق بغرابة وبشيء من الحيرة والارتباك أن تلك الفتاة المائلة إلى السمنة وذات التقاطيع وخصلات الشعر السائغة لم تكن هي «كلير بايز». الوفاء (أو ما يُسمّى هكذا للإشارة إلى الثبات والحصرية اللذين من خلالهما يدخل عضو تناسلي معيّن في عضو تناسلي آخر أيضاً معيّن والعكس صحيح، أو يمتنع عن أن يدخله عضو آخر أو إذ يدخل هو أعضاء أخرى) هو وليد العادة أساساً، كما هو الحال لما يُسمَّى - في المقابل - عدم الوفاء (عدم الثبات، والتعاقب، والاشتمال على أكثر من عضو تناسلي: الاختلاط الحَرْفي، الذي كان، بحسب معلوماتي، يضمّ «كرومر-بلايك»، وعلى الأرجح «موريل»، وربما «كافاناخ» وأستاذ الـ«ديسترو»). عندما يكون المرء معتاداً ثغر واحد منذ وقت طويل، تبدو الأفواه الأخرى غير ملائمة وتتسبّب ببعض المصاعب: تكون الأسنان كبيرة جداً أو صغيرة جداً، الشفاه بخيلة أو غزيرة أكثر من اللازم، اللسان يتحرّك في الوقت غير المناسب أو يبقى متصلباً، كأنه ليس عضلةً بل لحمٌ وعظامٌ؛ رائحة المناطق التي غالباً ما تبعث روائح (ثنايا الأفخاذ، الاعضاء التناسلية، الإبطان) مخيِّبة، كما هي مخيِّبة كثافة العناق غير المتساوية، ولمسة الجلد المخدِّرة، وعرق الفخذين المقزّز، وكتلتا اللحم غير المتطابقتين، والألوان الجديدة التي تفسد نور الغرفة، وحجم الثقب ورطوبته. لا تفهم الأيدي اختلاف الأحجام؛ فثمة أثداء قد تفيض أحياناً عن هذه الأيدي، وأحياناً أخرى تبدو وكأنها تتملّص منها، أو أيضاً تتصلبّ بحلمةٍ غير ملساء تكاد تخدش عندما نلحسها. الجسم الجديد ليس مطواعاً (ما من جسم جديد يكون مطواعاً)،

وثمة دائماً حذرٌ أو تساؤلٌ في ما يتعلق بالتراتبية والقوة اللتين بهما يجب تقبيل أجزائه المختلفة، أو الضغط عليها، أو عضّها، أو استكشافها من خلال استعمال الأصابع، أو أيضاً، وبسبب التأثير الذي قد يتركه في الشخص الآخر، التوقّف والتحديق بها... وفكّرتُ في هذه الكلمات، إذ فقط هذه الكلمات تأتي عندما نضع في كلمةٍ أو في فكرةٍ ما نفعله بالشيء الذي نسمّيه (عندما يفعلُ، هذا الشيء الذي نسمّيه)، بشكل خاص إذا كنّا بالكدّ نعرف الجسم الآخر، وإذا كانت الكلمات تشير إلى أجزاء جسمنا وليس إلى أجزاء الجسم الآخر، هذه التي نكون دائماً أكثر احتراماً إزاءها والتي نبحث لها عن تلميحات واستعارات ومفردات حياديّة لنستعملها معها... فكرتُ، «وليس كما في المرّات السابقة، كما كل تلك المرّات منذ وقت طويل. فم موريل مثير، كما لاحظتُ منذ اللحظة الأولى، منذ أن قبّلتها، لكنّه ليس حقاً واسعاً ورطباً كفم «كلير بايز». يفتقر إلى اللعاب ويفتقر إلى المساحة. شفتاهما جميلتان، لكنّهما رقيقتان بعض الشيء، ومنتصبتان؛ أو، أكثر من كونهما جامدتين (وليستا كذلك، إذ ألاحظ أنها تتحركا كثيراً)، تفتقران إلى الليونة، إنهما صلبتان (إنهما كشريطٍ مشدود.)... أخذتُ أنظر إلى ثدييها: إنهما بيضاوان وكبيران وحلمتاهما قاتمتان جداً، خلافاً لثدييْ «كلير بايز» اللذين ينسّقان لونيهما بدون تمييز، فينتقلان بتناغم من اللون المشمشي إلى اللون البنّي. وكنت ألاحظ من خلال فخذيَّ (اللذين كانا يضغطان على ثدييها من دون إلحاق الأذى بهما) بُنيَةَ هذين الثديين البيضاوين: فعلى الرغم من أن هذه الفتاة لا تزال شابة، نسيج ثدييها رخوٌ،

كالعجينة الملوَّنَة والجديدة التي لم تُدعك بعد ولم تتصلّب بفعل الاستعمال وآثار الطفل الذي يلعب بها. أنا لعبتُ كثيراً بالعجينة، لكنّي أجهل إن كان الطفل «إريك» يلعب بها... مَن كان سيقول؟ فقط قبل ثلاث ساعات كنتُ أحضّر نفسي للخروج من هنا وكنتُ أحلق ذقني وأراقب ضوء الشفق، وهي ربما تحمّر شفتيها امام مرآة حمّام بيتها أو حمّام مزرعة «ويتشوود فوريست» وتفكّر في شخص لا تعرفه (وكم شفتاها ناحلتا اللون الآن)... (الفم يكون دائماً مليئاً وهو الغزارة عينها.) الآن هي لا تشرب ولا تدخّن ولا تعلك ولا تضحك ولا تقول شيئاً... هي شاردة، ثم إن هذا كل ما يتّسع له فمها. أنا كذلك لا أتكلم، لكنّي لست شارداً، إنما أفكّر».

وفي ما بعد، وكنا لا نزال فوق، في الطابق الثالث لبيتي الهرمي الشكل، ولا أزال عارياً في سريري، عدتُ إلى التفكير، وفكّرتُ: «معها لا أفتقد ما أفتقده دائماً عندما أكون مع «كلير... على الرّغم من أن «موريل» تعجبني وتساعدني على أن أمضي هذه الليلة بالطريقة الفضلى، فلا أعرفها. أعرف أنّها ليست «كلير بايز»، إنّما فتاة غير سمينة من الملهى القريب من «ابولو ثياتر». أعرف ذلك لعدة أسباب: لحجمها وطولها (هي أقصر بقليل)؛ لأن فخذيها لا يفترقان كفايةً (قد يكون سبب هذه الإعاقة، البدانة؛ وفخذا الفتاة الأكثر سمنةً التي كانت تقبّل أستاذ الـ«ديسترو» قد لا يفترقان على الإطلاق. وقد يكون الأستاذ حالياً أمام مشكلة)؛ كذلك بسبب عظامها التي بالكدّ تظهر لكثرة اللحم الذي يكسوها (أرى فقط العانة، لكن ليس الوركين)؛ بسبب لهاثها وهو خجول (فلا تعرفني

ولا تنظر إليّ عندما تشقّ عينيها، إنّما إلى الحائط العاري فوق الوسادة التي أستند إليها). لكن وبشكل خاص أعرف ذلك بسبب الرائحة التـي أشمّـهـا. لـيست رائـحـة «كـلير بـايـز» ولا حتـى رائحة مدينة أوكسفورد ولا رائحة لندن ولا رائحة محطة «ديدكوت»، إنّما على الأرجح رائحة غابة «ويتشوود» ونهر «ويندراش» ونهر «ايفنلود» حيث تعيش «موريل» مُحاطة بها كلها وحيث تكون قد نشأت، كما عاشت ونشأت «كلير بايز».بمحاذاة نهري «يامونا» أو «خومنا» مع أغانيهما الفارغة من المعنى، وبزوارقهما البدائية وبجسرهما الحديد الذي كان من فوقه يرمي العشاق الخائبون أنفسهم. إنها تلهث، لكنّها أيضاً تفكّر. ربّما تفكّر في رائحتي، وتفكّر في أنها رائحة غريبٍ، رائحة رجل من القارّة، رجل جنوبي، مشبوب العاطفة، ودمه ساخن كما هو شائع. دمي ساخن، أو فاتر، أو بارد. كيف يا ترى تكون رائحتي بالنسبة لها؟ قليلاً ما يستعمل الإنكليز العطر، أما أنا فأستعمله، «تروسّاردي» Trussardi، وقد يكون هذا هو الفرق الأبرز (فهو أمرٌ جديد في المطلق، استعمال العطر)؛ قد يكون العطر الإيطالي، الذي أجلبه من مدريد كلّما أتيتُ، الرائحة الوحيدة التي تشمّها الآن، هذا في ما يتعلّق بالروائح: قد لا تعجبها، وقد تثيرها؛ فلا أستطيع أن أعرف إلاّ إذا سألتها، لكن في ما بعد؛ أما الآن فهي تركّز على ذاتها (تفكّر فقط في ذاتها). قد لا تكون حتى لاحظَتْها، وربّما لا تلتقط شيئاً، على الرغم من أنّها لا تبدو مصابة بالزكام ولا بأي شيء آخر؛ وثمة مصابون كثر بالزكام في هذا الربيع الإنكليزي أو هذا الشتاء الخفّي والعابر، وثمة حساسية من غبار

الزهور، أو الربو كما يسمّونه، ومَن يصاب به بشكل رئيسي هم الشباب، ولو أنّ «كلير بايز» – لم تعد شابة حقاً – مصابة أيضاً به. الرّبيع الماضي عطَسَتْ عدّة مرّات وهي في المكان الذي تشغله الآن هذه الفتاة من «ويتشوود فورست»، هذه الغابة التي لم تعد موجودة، إنما فقط بقاياها، إذ قُطعت وأُتلفت أشجارها في القرن الماضي، لكنّه من الصعب التخلّي عن اسمٍ ما، فالأسماء تعني الكثير. لا يبدو على «موربيل» أنها ستعطس، ولو فعلتْ، سأشعر بذلك بقوّة نظراً إلى موضعنا، وقد يهتزّ جسدي، وقد ألاحظ بدَفعةٍ عنيفة لا اشعر بها الآن. وقد تكون تعبت الآن إذ شربت كثيراً. كانت الغرفة باردة عندما خرجتُ من البيت، لكن الجوَّ حار الآن لأن جسم «موربيل» ساخن، في حين أن جسم «كلير بايز» فاتر، وجسم فتاة قطار لندن من المحتمل جداً أن يكون بارداً بحسب مظهره. أعتقد أنّني رأيتها، لكن هذا لا يهمّني، فلا أفكّر فيها منذ أكثر من سنة، ومنذ أكثر من سنة أفكّر في «كلير بايز» كل الوقت تقريباً، على الرغم من أنّنا لم نرَ واحدنا الآخر حتى الآن (أي بتطلّب من يجمعهم مشروع مستقبلي). لكن لو انتظرتُ تلك الليلة – لو لم ألتقِ «كافاناخ» و«دجيسي» البشوشة وأستاذ الـ«دييسترو» –، لكنتُ على الأرجح غادرتُ الملهى مع فتاة قطار لندن، –أو لَما كنت غادرت الآن، بل ربّما في ما بعد، – وكانت ستوجد هنا (أكانت هي أم لم تكن)، في مكان «كلير بايز» وبدلاً من «موربيل»، هذه الفتاة غير السمينة – ليست سمينة، وليست كذلك مقزِّزة – التي تقول إنّها تعيش بين نهر «ويندراش» ونهر «ايفنلود»، أي في ما كان مرّةً «ويتشوود

فورست». هي «موريـيل» التي ترافقني الآن، في سريري، وذلك لأن «كلير بايز» لا تريد أن تراني (خلال هذه الأسابيع التي كرّستها للطفل «إريك» الذي أتى مريضاً)، ولأن «موريـيل»، وليس من أحد سواها – كانت هي وليست فتاة محطة «ديدكوت» –، هي التي كانت تعلك تحسّباً لتقبيلٍ قد يحصل بيننا. وخير ما فعلتْ، لأننا الآن نقبّل واحدنا الآخر.

– قل لي إنك ترغب فيّ – قالت «موريـيل» مبعدةً لحظةً فمها المستدير عن فمي–.

سمعتُ الأجراس التي لا تزال مستيقظةً أو التي لا تنام، أجراس كنيسة سانت «ألويزيوس» Aloysius المجاورة، أو كانت أجراس «سانت دجيلز» Saint Giles. لم نكن مضطرين للنظر إلى الساعة التي فوق الطاولة الصغيرة قرب السرير، ولا إلى الاستعجال، ولا إلى مباشرة التفكير أين خبّأنا الحذاء ذا الكعب العالي، وأين أختفت الثياب المتناثرة في أرجاء الغرفة. كنّا في ساعة متأخرة جداً من الليل.

– أرغب فيك – قلتُ. «أرغب فيك»، فكّرتُ، وتوقّفتُ عن التفكير بعدها.

أعتقد أن علاقة الصداقة الوحيدة والحقيقية خلال السنتين اللتين أمضيتهما في أوكسفورد كانت مع «كرومر–بلايك». لكن كوني لم أتحمّل أسياداً كثراً (عالِم الاقتصاد «هاليويل» هو مثَلٌ صغيرٌ؛ اتذكّر أيضاً وبمرارة، الدكتور «لي–بيلي» Leigh-Peele، خبير الهند في قسمنا، وهو ذو طبع رهباني وصعب المزاج، بطنه أعرض بكثير من صدره، ويلبس دائماً بنطلوناً ضيقاً وقصيراً – فتظهر ربلةُ ساقيه (المقرفة) ما إن يجلس – وكان عليّ أن أعطي معه الصفوف الأكثر منهجية والأقل دَسَماً)؛ أخذتُ أضع نفسي مكان «إدوارد بايز»، كما سبق وشرحتُ، وأخذتُ أقدّر مزاج «كافاناخ» الجيّد ولا مبالاته، «كافاناخ» الطائش و«كافاناخ» ضحية التنكيل (ضحية لأنه إيرلندي وروائي، ومجتهد)، وتوصّلت إلى ألتجاوب مع العاطفة – لو كان من الصعب حتى أن يتخيّلها، إذ كنت لا أزال وقتها أكثر انغلاقاً على ذاتي ولم أكن أُظهر مشاعري – التي كان، ربما رغماً عنه ودون أن ينتبه، يعبّر لي عنها «أليك ديوار»، الـ«إنكيسيدور» أو «ماتاريفيه» أو «ديسترييادور». وبشكل خاص، أخذتُ أقدّر الشخصية الأدبية، أو هذا الذي صار شبه شهير (خلال سنتي الأولى) ثم أصبح شهيراً جداً (خلال سنتي الثانية)، أي الاستاذ «توبي رايلاندز»، وكان قد نصحني «كرومر–بلايك»، بشيء من الخفة، بصداقته. إذ لا نستطيع أن نقيم مع «توبي رايلاندز» صداقةً حقيقية، ليس لأنّه غير مضياف

أو غير لطيف أو لأنّه لا يحبّ استقبال مَن يودّ ان يراه، إنّما لأنّه كان لبيباً أكثر من اللازم وحقيقياً أكثر من اللازم (أريد القول إن كل ما كان يقوله، له دائماً وَقعُ الحقيقة علينا) فلم يكن في استطاعتنا سوى الشعور بالإعجاب الصريح وبشيء من الخوف إزاءه (ما يُسمّى في الإنكليزية awe، وسوف يفهمني البعض).

كنتُ أزوره في بيته، خارج نطاق الجامعة، أي شرق المدينة، في منطقة تكثر فيها الحدائق: بيته فخمٌ (لكن لم يكن مصدر ثرائه عمله الأكاديمي كما أنّه لم يكن موروثاً) وفيه حديقة كبيرة تطلّ على الجهة الأكثر كثافةً (من حيث الاشجار) والأكثر فتنة (من حيث المنظر) لنهر «تشرويل» Cherwell عند مروره بأوكسفورد أو ضواحيها. كنتُ أزوره يوم الأحد، هذا اليوم من الأسبوع الذي كان هو أيضاً، بخاصّة في السنة الثانية لتقاعده، يكلّفه مجهوداً إضافياً وإستعداداً نفسياً لتخطّيه ولاستقبال الأحد التالي (كان يقتل الوقت مثله مثل الشحاذين). كان رجلاً ضخماً جداً، بل هائلاً، ولم يصلع؛ فشعره المتموِّج والأبيض – كحلوى البافارواز Bavaroise – يكسو رأسه الأشبه بمنحوتة، وهو متأنق دائماً في لباسه تأنُّقاً ينمّ عن ادّعاء أكثر مما ينم عن أناقة (ربطات العنق والكنزات الصفراء على الطريقة الأميركية بعض الشيء، أو على طريقة طلاب أيام زمان)، وكان يُعتبر في أوكسفورد إحدَ أمجاد المستقبل – وأصبح تقريباً من أمجاد الحاضر – الذي لا يُنسى، إذ في أوكسفورد، كما في كل الأماكن حيث تدوم الأمجاد بفضل حظٍ قد يكون وُلد مع الشخص نفسه ولم يأتِ من ظروف خارجية، يتحوّل المرء إلى شخص لا يُنسى فقط عندما يتوقف

عن القيام بوظيفته ويتوقّف عن النشاط ويفسح المجال لخَلفه. فهو و«إيلمان» Ellmann، و«ويند» Wind و«غومبرتش» Gombrich، و«برلين» Berlin و«هاسكل» Haskell، كانوا جميعهم منذورين لأن يكونوا في النهاية من السلالة عينها: أن يثيروا الغيرة مع مفعول رجعي. حاز «توبي رايلندز» على كل التكاريم وعاش منعزلاً. فكان يتسلم بالبريد باستمرار المزيد من هذه التكاريم ولو نقصت صدقاً يوماً بعد يوم. كان يهتم بالحديقة و يُطعم بعض الإوزّ الذي يمضي بضعة أشهر، في فصول معيّنة، في ذلك الجزء من نهر «تشيرويل» الذي يمرّ بمحاذاة بيته؛ كان يكتب بحثاً آخر وإضافياً حول Sentimental Journey. لم يكن يروق له كثيراً أن يتكلم عن ماضيه وعن أصوله غير المعروفة (كان يقال أنه لم يكن دائماً إنكليزياً، إنما جنوب–أفريقي، لكن إذا كان هذا صحيحاً فلم يبقَ أي أثر في لهجته)، وعن صباه، وبخاصّة عن نشاطاته المشبوهة، التي اصبحت الآن بعيدة – هذا ما كان يقال همساً في أوكسفورد – مع الـMI5، أي الاستخبارات البريطانية الشهيرة. قد يكون هذا صحيحاً، لكن لم يكن ذا أهمية كبرى، لشدّة ما أصبح مبتذلاً وشائعاً، ذلك الرابط بين مكتب الاستخبارات والسينما وبين الجامعتين الإنكليزيتين الرئيسيتين. كانت الحكايات الأكثر تشويقاً التي يتداولها معاونوه وتلامذته ومرؤوسوه السابقون تلك المتعلّقة بنشاطه خلال الحرب: على ما يبدو، لم يذهب إلى الجبهة (لم يكن في أيٍّ من الجبهات)، إنما أنجز مهماتٍ غريبة وغامضة (حيث كانت تتداخل دائماً أموال كثيرة) لها علاقة بطريقة أو بأخرى بالتجسس أو بملاحقة شخصياتٍ محايدة في

أمكنة بعيدة كل البعد عن مركز النزاع، أمثال الـ«مارتينيك» و«هاييتي» و«البرازيل» و«جزر تريستان داكونيا». لم أكن أعرف الكثير عن ماضيه، والعارفون كانوا قلّةً. أكثر ما كان يؤثّر فيّ عيناه المشقوقتان وكان لكل واحدة لونٌ مختلفٌ؛ أخضر زيتي لون اليمنى ورمادي فاتح لون اليُسرى، بحيث أنّنا إذا نظرنا إليه من الجهة اليمنى رأينا له تعبيراً حاداً لا تفوته القساوة - عين نسرٍ، أو ربما عين هرٍّ -، أما إذا نظرنا إليه من الجهة اليسرى، فكنّا نرى تعبيراً تأملياً ورصيناً ومستقيماً، ووحدهم الشماليون يتميزون بهذه الاستقامة - عين كلبٍ، أو ربّما عين حصانٍ، ويبدو أن الاحصنة هي أكثر الحيوانات استقامةً-؛ وإذا نظرنا في وجهه مباشرةً وليس جانبياً، وجدنا أنفسنا أمام نظرتين، أو بالاحرى أمام لونين لنظرة واحدة قاسية ومستقيمة، وتأملية وحادة. على بعد مسافة معيّنة،كان يسيطر اللون الاخضر الزيتي (ويستوعب اللون الآخر)، وعندما كانت الشمس أحياناً، صباح أيام الآحاد، تنعكس في عينيه وتنيرهما،كانت كثافة القزحية تذوب، وبالتالي يفتح اللون ويصبح كخمر الـ«خيريث» Jerez في الكأس التي كان يمسكها أحياناً بيديه الاثنتين. أمّا بالنسبة إلى ضحكته، فكانت أكثر الأشياء شيطانية لدى «توبي رايلندز»: فمه بالكدّ يتحرّك، ولكن بما فيه الكفاية - أفقياً فحسب - لكي تبدو، تحت شفته العليا، البنفسجية والبدينة، أسنان صغيرة ومستدقّة، لكن متساوية جداً، ربّما اصطناعية لكن من النوع الجيد، وذلك بفضل طبيب بارع (وليس طبيب المستوصفات)، فتُقلّد تلك التي يكون مع الوقت فقدها، لكن الشيء الأكثر شيطانية في تلك الضحكة المقتضبة

والجافة لم يكمن في رؤيتها، إنّما في سماعها، إذ لا تشبه أياً من أسماء الأصوات المكتوبة والمعروفة، ولكنّها تتّكل على لفظ الحروف الصامتة (أي خا، خا، خا او خيه، خيه أو خي، خي، خيٍ، أو في لغات أخرى ها، ها أو أيضاً آه، آه)، بل كانت مفرقعةً، بتائها النخروبية والشديدة الوضوح، كما هي التاء الإنكليزية. تا، تا، تا، هكذا كانت ضحكة «توبي رايلندز» المرعبة. تا، تا، تا. تا، تا، تا.

اليوم الذي أذكره أكثر ممّا أذكر غيره هو عندما بدا لي فيه أنّه مستعد للبوح بالمزيد من الحقائق، ضحك فقط في البداية بينما كنّا نتحدّث عن زملائي الذين لم يعودوا حقاً زملاءه، وكان يخبرني بالتلميح حكايةً من تلك الحكايات المضحكة، الديبلوماسية أو الجامعية، لكن ما من مرّة أخبرني شيئاً عن الحرب أو التجسس. في ذلك الحين (فصل هيلاري من سنتي الثانية، ثم بين كانون الثاني وآذار: بل كان ذلك في نهاية آذار، وتحديداً قبل أن قرّرت «كلير بايز» أن تدير لي ظهرها مدّة أربعة أسابيع) كنّا قد علمنا جميعنا بمرض «كرومر–بلايك»، وكان مَرَضاً خطيراً، بحسب تقديراتنا. ظلّ هو خافياً الأمر علينا (أو كان يقول لنا فقط بعض الاشياء المبهمة، إن لم تكن مراوِغة)، أي عليّ، وعلى «كلير وعلى «تيد»»، وعلى شقيقه «رودجير» الذي كان يقيم في لندن، وحتى على هذا الذي كان يجلّه، «رايلندز»؛ لكنّه على الأرجح لم يخفِ الأمر على «بروس»، الشخص الأكثر قرباً منه منذ سنوات، والذي كان يحافظ معه على ما كان يُسمّى سابقاً (خصوصاً في الفرنسية) «صداقة غراميّة»، تلك الصداقة الثابتة التي لا تنطوي على تقدّم ولا على تراجع ولا على

حصرّية أو استمراريّة. (كان «بروس» معلّمَ ميكانيك في شركة الـ«فوكزهول» Vauxhall ولم يكن يعاشرنا: كان «بروس» عالمه الخاص.) لكن على الرغم من تكتّمه، كانت زياراته للمستشفى في لندن – أي إقاماته المتفرّقة التي كانت في كل مرة تطول أكثر – ومظهره المتقلّب جداً – فكنّا تارةً نراه في وزنه الطبيعي، مشرق الوجه، وتارةً أخرى يفاجئنا بشحوبه – تجعلنا نقلق وهو أمر رائج جداً في إنكلترا أو أقلّه أكثر منها في البلدان الاخرى؛ وهذا القلق قائم على مبدأ رباطة الجأش، وعلى الاعتقاد المتفائل – على الرغم من كل شيء – بأن الاشياء لا تصبح موجودة سوى عندما نتكلّم عنها، وبأن الاشياء لا تزدهر ولا تتفاقم وبالتالي تذهب إلى التلاشي، إذا لم يُعطَ لها وجودٌ كلاميّ أو لم يُسمح لها به. لم يكن أحد من مقرّبيه، وكنت واحداً منهم، يتكلم عن «كرومر–بلايك» (عن مرضه الذي كان قد أصبح واضحاً) من خلف ظهره؛ أمّا معه فكنّا نكتفي بنسيان مظهره السابق بسرعة عندما يكون هذا المظهر جيداً – كالشيء الذي نحكم عليه بأنه أضحى من الماضي –، وبأن نتذكّره في المقابل عندما يسوء – متمنّين بحرارة، وبصمت، عودةَ الوضع إلى ما كان عليه فحسب.

بالنسبة إلى «توبي رايلندز»، كان «كرومر–بلايك» أحد أحب الأصدقاء اليه والذين لا يتخلّى عنهم – كان الخَلَف المتضامن، والتلميذ الذي لا يغادر ما إن اكتمل نموُّه –، ولهذا السبب بالذات كان «رايلندز» آخر مَن يمكننا أن نتصوّر أنه سيذكر شيئاً عن هذا المرض الذي لا اسم له، أياً كان هذا المرض. لذا فاجأني عندما كنّا واقفَين ذلك الأحد في الحديقة على ضفة النهر ننظر إلى المياه وهي

تركض وما من مقاومة، ولو وهمية، مِن قِبل النبات الذي عادةً ما يدفع هذه المياه عند مرورها من جهة الحافة (والذي أيضاً يساهم في جعل هذا الجزء من النهر مكاناً أشبه بالدغل)، فاجأني عندما تكلّم عن «كرومر–بلايك» وعن مرضه أو انعزاله. كان ينثر فتات خبزٍ بائتٍ في الماء ليرى إن كان سيخرج الإوزّ الذي يمضي بضعة أشهر في فصولٍ معيّنة عند ذلك المنعطف.

– لا يريد الإوزّ أن يخرج اليوم، قال. من يدري، قد يكونون رحلوا، فهم لا يكفّون عن ألانتقال، بين عالية النهر وسافلته على مدار السنة. أحياناً يختفون خلال أسابيع، علماً بأنهم يكونون على بعد ياردات ٍ فقط؛ لكنّني أعتقد من جهة أخرى أنّ هذا الافتراض غير منطقي، إذ انّني رأيتُهم البارحة. هذا المكان هو الأحب إليهم، إذ يجدون فيه معاملة حسنة. لكن طبعاً، من المفترض أن يكون دائماً يومٌ اولُ في الاختفاء أو الغياب. وإلاّ لما كان الغياب غياباً، أليس كذلك؟ – وظلّ ينثر فتات الخبز، الذي قُطع الآن قطعاً أصغر، في الماء البنّي اللون –. لكن هذا لا يهم: فالآن وصل البطّ؛ انظر، هنا تخرج بطّة بحثاً عن الطعام. وأخرى، وأخرى. كم هي شرهة، لا ترفض شيئاً. – وبلا تمهيد، أضاف: – هل رأيتَ «كرومر–بلايك» مؤخراً؟

– نعم – قلتُ –، قبل يومين أو ثلاثة. شربتُ القهوة معه في منزله.

كانت الشخصية الأدبية إلى يساري، ما جعلني أرى تعبيراً حاداً في عينه الزيتية التي كانت تبدو مشقوقة أكثر من تلك الرمادية. أنتظر ثواني قبل أن يعاود الكلام.

– كيف بدا لك؟

– جيداً. إنه افضل بكثير بعد عودته من إيطاليا. لقد أخذ إجازة أسبوع، أعتقد أنك تعلم بذلك. وأنا علّمتُ بعض الساعات نيابةً عنه. كان بحاجة إلى الراحة وإلى الابتعاد من هنا. ويبدو أن هذا يلائمه.

– لاءمه، هاه؟ – وانتقلت العين نحو يمينه بحركة خاطفة (انتقلت ناحيتي)، لتعود وتركّز على الفور على البطّ –. أعلم أنه أخذ إجازةً وأنه كان في الـ«توسكانا»، إنّما علمته من الآخرين. منذ أن عاد – منذ أسبوعين أو ثلاثة؟ –، لم يزرني. كما أنه لم يتصل بي. سكتَ، ثم سرعان ما أستدار لينظر إليّ وجهاً لوجه، كما لو كان النظر وجهاً لوجهٍ ضرورياً للتعّبير عن أحاسيسه، وللاعتراف بضعفه–. إنّني أستغرب الأمر، وفي أي حال هذا يؤلمني، ولا أرى سبباً لئلا أقوله. فكنت أعتقد أنه لا يزورني بسبب هيئته، في حال تأثرت هيئته بالمرض. لكنّك تقول إنه بدا لك جيداً، أليس كذلك؟ هذا ما قلتَه، صحيح؟

– صحيح. كان وضعه سيئاً جداً في شباط، والآن، مقارنةً، رأيتُ تحسّناً كبيراً.

انحنى «توبي رايلندز»، بوزنه الهائل إنّما غير الناتج من البدانة بل من حجمه الضخم، بصعوبة ليأخذ مزيداً من الخبز من سلّةِ خيزرانٍ كان قد وضعها أرضاً. وكانت أربع بطّات أخرى قد بانت.

– أتساءل متى يتوقّف عن زيارتي نهائياً، ومتى يكون آخر يوم أراه فيه، هذا إن لم يسبق لهذا اليوم أن جاء، وذلك في شباط، وأنا لم

اعلم به آنذاك. فكانت تلك آخر مرّة زارني فيها، في أواسط شباط. وبعدها لم يعد يفكّر ربما في المجيء. أنظرْ إلى البطّ.

نظرتُ إلى البطّ لكنّني أجبت على الفور:

– لستُ ادري لماذا تقول هذا، «توبي». ما من أحدٍ يقدّر رفقتك كما يقدّرها «كرومر–بلايك»، وأنتَ تعلم ذلك جيداً. لا أعتقد أنه سيكفّ نهائياً عن المجيء، هكذا، بقرار شخصي.

فجأة أفرغ البروفيسور «رايلندز» في الماء ما تبقّى من خبز السلّة، لكن هذه المرّة من دون أن يقطّعه – عامت فتات بأشكال مختلفة لحظةً في مياه نهر «تشرويل» الترابية – وما إن أفلتَ السلّة – ظلّت مرمية على العشب، وكأنها قبعة ريفية للنساء، فالمسكة تشبه ألشريط، عاد أدراجه إلى الطاولة الصغيرة حيث كانت السيدة «بيرّي»، خادمته، قد قدّمت لنا نبيذ الـ«خيريث» وبعض حبّات الزيتون. ومع أنّنا كنّا في أواخر شهر آذار، لم يكن الجو باردا خارج المنزل، ولو كنّا قد لبسنا ثياباً دافئة، في أي حال لم نشعر بالبرد. كان يوم أحدٍ مشمساً تخلّلته بعض الغيوم المتفرّقة، وكان علينا ألاّ نفوّت الشمس لأنّها تساعد على تحمّل النهار وعلى استقبال النهار التالي. كان «رايلندز» يومها يرتدي إحدى ربطات العنق وإحدى كنزاته السميكة الصفراء وفوقها سترة محشوّة بالصوف: كانت الكنزة أطول من السترة، بحيث كانت تبدو تحت الجلد الكستنائي. جلس على كرسي فيه أريكة وأخذ جرعة من كأسه. فأفرغ الكأس ببطء، لكن بجرعة واحدة، وسكب لنفسه مجدَّداً.

– بقرار شخصي – قال – بقرار شخصي – كرَّرَ – مُلكُ مَن

تـكـون إرادة المريض؟ مُـلكُ المريض أم المرض؟ عـنـدمـا يـكـون المرء مريضاً، كما عندما يكون عجوزاً أو مضطرباً، يقوم بأشياء من خلال إرادته الذاتية وإرادة غيره في آن وبالتساوي. وما لا نستطيع أن نعرفه دائماً هو مُلكُ مَن يصبح جزءِ الإرادة ذلك الذي لم يعدْ لَنا. هل يصبح مُلك المرض، أو الاطباء، أو الأدوية، أو الاضطراب، أو السنين، أو الأزمنة الماضية، أو مُلك الشخص الذي لم يعد شخصنا... والذي يكون قد أخذها معه؟ لم يعد «كرومر–بلايك» الشخص الذي نظنّه أو الذي عرفناه؛ لم يعد الشخص نفسه. إما أنا مخطىء جداً في تفكيري هذا، وإما سيزول شيئاً فشيئاً حتى يكفّ عن الوجود نهائياً. يكفّ أن يكون هذا الشخص أو ذاك، ولا أيّاً على الإطلاق، إلى ألا يكون أحداً.

– لا أفهمك، توبي – قلتُ، آملاً أن تثنيه هذه الجملة عن هذا التفكير وأن يتوقّف عن الكلام، آمِلاً أن يجيبني بشيء من هذا القبيل: «فلندع هذا الموضوع» أو «فلننسَه» او «لا تأخذني على محمل الجد» أو «هذا غير مهمّ». لكنّه لم يجب بأيٍ من هذه الأجوبة.

– لم تفهم، آه؟ – ومرّر «توبي رايلندز» يدَه على شعره البرّاق والمسرَّح بإتقان والشديد البياض، كما كان يفعل «كرومر–بلايك» (وقد يكون هذا الأخير نقل عنه هذه الحركة)، إلّا أنّ شعر «رايلندز» هـو أكثر بـيـاضـاً بـكـثير. «كـان «تـوبـي رايـلـنـدز» ولا بـدّ شـديـد الاستقرار»، هكذا فكّرتُ، وفوراً قبل أن يقول ما كنتُ أفضّل ألّا يقوله (لأنّني مدريدي ومتطيّرٌ أو لأنّي أصبحتُ إنكليزياً وذا رباطة جأش) –: اسمع – قال – إسمعني. «كرومر–بلايك» سيموت.

لستُ ادري ما الذي أصابه وهو لن يقوله لنا (هذا إذا كان حقاً يعرف ما به أو لم ينجح في نسيانه أقلّه بين الفينة والأخرى من باب عدم مسؤوليته أو على حساب جهد كبير. لستُ ادري ما الذي أصابه، لكنّني لا اعتقد أنه سيعيش طويلاً وأنا مقتنع بأن مرضه خطير جداً. عندما أتى إلى هنا في المرّة الاخيرة، في شباط، كان منظره مخيفاً ورأيته آنذاك ميّتاً. كان وجهه وجهَ ميت. الآن تقول أنّه تحسّن، ولا تعرف كم هذا يفرحني، وأتمّنى أن يستمرّ على هذه الحال. لكنّه في السابق لطالما تحسّن عدّة مرّات لكنه سرعان ما كان وضعه يسوء أكثر من قبل، وفي زيارته الاخيرة تلك، بدا لي وكأنه أصبح من عداد الأموات. آلمني هذا كثيراً وسوف أتألّم أكثر عندما سيحصل ما سيحصل، لكن طبعاً من الأفضل أن أعتاد على الفكرة. لكن ما يؤلمني ايضاً هو ألا يزورني لهذا السبب في حين لا يزال ذلك ممكناً. وإذا كان لا يأتي، فليس بسبب مظهره الخارجي، العادي أو الرديء؛ وليس لأنّه لا يريد أن يحزنني، أو لأنّه لا يحبّ أن أراه عندما يكون في أسوأ حالاته. أنا أعرف لماذا لا يريد أن يزورني. سابقاً، كنتُ رجلاً مُسنّاً (مظهري مظهر عجوزٍ منذ زمن طويل؛ كنت دائماً أبدو أكبر من عمري، وأنت تعرّفت عليّ فقط منذ سنة)، وكنتُ مسالماً ومُحسِناً، وأثقّف الآخرين من خلال إستطراداتي، ومسلّياً من خلال سخريتي ونوادري، ولا أزال أستطيع أن أعلّمه أشياء كثيرة، حتى لو أنّي غير ضليع من مادّتكم، أي من الأدب الإسباني، وبالمناسبة لستُ أعلم لماذا لم يهتمّ بأدبنا، فهو أكثر تنوّعاً. لكنّي لم أعد الآن ما كنتُه، إنّما أصبحت المرآة التي لا يريد هو أن يرى نفسه فيها. نهايته قريبة،

كذلك نهايتي. أنا أذكّره بالموت، لأنّني من بين كل أصدقائه، الأقرب إلى هذا الموت. أنا بمثابة المرض الذي يكابده هو، أنا الشيخوخة، أنا الوهن؛ وإرادتي تائهة كما إرادته، إنّني أنا وجدتُ الوقت الكافي لاعتياد فقدانها، وهذا يعني أن نتعلّم كيفية الاحتفاظ بها قدر المستطاع، وأن نؤخّر رحيلها، وألّا نقوم بأي أذى. هو لم يتوافر له هذا الوقت، ولا تستطيع أن تلومه. عليّ ألاّ الومه بسبب تهرّبه مني. يا له من شاب مسكين! صحيح أنّه لا يُظهر ذلك، لكنّه حتماً خائب. أنه ولا شك منهار. وقد يصعب عليه أن يصدّق ما يحدث له.

شرب «توبي رايلندز» مزيداً من الـ«خيريث» وأغمض نصف إغماضة عينيه المختلفتين، اللّتين أصبحتا الآن متشابهتين لأنّه كان ينظر إلى الشمس المسلّطة على وجهه. أخذ حبة زيتون.

– لست أعرف – قلتُ –. لستُ اعرف إن كنتَ على حق، «توبي». أنا لا أراك قريباً من الموت، كما تقول، ولا أرى كذلك أنّك تذكّرنا به، أو أنّك ستسبقنا إليه. ولستَ حتى متقدّماً جداً في السن، وأنت في صحة جيّدة؛ أليس صحيحاً؟ أراك في حالة جيّدة. كانت صفوفك السنة الفائتة مزدحمة، ولكنتَ استمررت في التعليم لو لم يصادف تقاعدك خلال هذا الفصل. ما من أحد يستطيع أن يزاول التعليم في أوكسفورد إذا انتهت مهمّته. ربّما لم يكن لدى «كرومر–بلايك» الوقت الكافي لزيارتك.

– تا، تا، تا – وأخيراً انفجر «توبي رايلندز» ضحكاً، لكن بمرارة. ثم قال–: أعرف بماذا تفكّر؛ تفكّر بأنّي أقول هذه الأشياء تحديداً لهذا السبب، أي لأنّي أُحلتُ على التقاعد؛ وأنّني بغتة رأيتُ

نفسي قريباً من الموت ومن تفاهات أخرى، وذلك لأنّني لا أفعل شيئاً فأفكّر كثيراً، هنا في هذه الحديقة (بمحاذاة النهر الذي يمثّل في كل الأزمنة صورة سير الحياة)، أو في البيت... حيث السيّدة «بيرّي» الصامتة جداً. هذا تفكير مبتذَل، فأنا لستُ عديم النشاط. إنّني أكتب أفضل كتاب، أفضل ما كُتب حتى الآن حول «لورانس ستيرن» ومؤلَّفه Sentimental Journey. قد تقول لي إن هذا لا يهمّ كثيراً، أو يهمّ فقط قلّة من الناس، ولا يفيد لكي أشعر بأنّي... منتظر. لكنه يهمّني أنا. أنا أعبد هذا الكتاب، ويهمّني أن يُفهم جيداً، وأن أفهمه أيضاً؛ وأنا حالياً في طور البحث فيه مرّة أخرى وشرحه لكم: أنا أنتظر ذاتي. لا، ليس التقاعد على الإطلاق. منذ سنين وأنا أرى الأيام تمرّ مع الاحساس بالهبوط الذي ينتاب كل الرجال عاجلاً أم آجلاً. وهذا لا يتعلّق بالعمر بتاتاً، فثمة من ينتابه هذا الاحساس وهو لا يزال طفلاً، إذ هناك أطفال يشعرون به. أنا شعرت به باكراً، منذ حوالي أربعين سنة، وخلال كل هذه السنين كنتُ أعمل على السماح للموت بأن يقترب، وهذا يرعبني. الأمر الأصعب في اقتراب الموت ليس الموت بذاته بما يجلبه ولا يجلبه، إنّما في أنّنا لا نعود نستطيع أن نحلم بما هو آتٍ. أنا عشتُ ما يُسمّى حياةً ممتلئة، أو هكذا أنا أعتبرها. لم أتزوّج ولم أنجب، لكنّي اعتقد أنّني عشتُ حياةَ معرفةٍ وهذا ما كان يهمّني. لم أنثنِ يوماً عن زيادة معرفتي وأن اعرف أكثر مما عرفتُ سابقاً، ولا يهمّ أين تريد أن تضع هذا الـ«سابقاً»، أكان اليوم، أم كان غداً. لكن أيضاً عشتُ حياةً ممتلئة رأت نشاطاً دائماً ومفاجآت. أنا عملتُ جاسوساً، على غرار الكثيرين بيننا، كما قد

تكون سمعتَ، إذ هذا يمكنه أن يكون جزءاً من وظيفتنا؛ ولكن لم تكن وظيفة مكاتب، كما كانت الحال بالنسبة إلى «ديوار» الذي في قسمك (وبالنسبة إلى الغالبيّة)، بل كانت وظيفة ميدان. أنا كنت في الهند وفي الكارايب وفي روسيا، وقمتُ بأشياء لم أعد أستطيع البوح بها لأحدٍ الآن إذ قد تثير السخرية وقد لا يصدّقها أحد: فأنا أعرف جيداً ما الذي يجوز أن نبوح به وما لا يجوز، وذلك بحسب الأزمنة التي نعيشها؛ فكرّستُ حياتي لأن أتعلّم هذا في الأدب وأميّزه. إذاً ما من شيء من كل هذا يجب أن نبوح به بعد الآن، لكنّي أخبرك أنّي خاطرتُ بحياتي، ووشيتُ برجالٍ لم يكن لي ضدّهم أية ضغينة شخصية. كذلك أنقذتُ حياة العديد منهم، ولكن من جهة أخرى أرسلتُ أشخاصاً آخرين إلى حائط الإعدام أو إلى المشنقة. عشتُ في أفريقيا، في أمكنة غير معقولة وفي أزمنة مختلفة، ورأيتُ الإنسانة التي كنتُ أحبّها تنتحر – توقّف «توبي رايلندز» فجأة، وكأن ذاكرته وحدها، وليس الإرادة (إرادته التي احتفظ بها قدر المستطاع، لكنّها لم تعد ملكه وحده) دفعته لأن يقول ما قاله في النهاية؛ لكن سرعان ما استعاد هنا رباطة جأشه، لأن المتابعة كانت الطريقة الفُضلى لتبديد ما قاله للتوّ؛ كذلك حضرتُ معارك. رأسي مليء بذكريات واضحة وحادة، مرعبة وحماسية، ومن تمكّن من رؤيتها مجتمعةً كما أنا أراها الآن قد يظنّ أنّها كافية كيلا نرغب أكثر، كي يملأ التذكّر وحده أيامَ الشيخوخة بحدّة أكبر من حدّة حاضر أحداث كثيرة غيرها. إلاّ أنّ الامور ليست على هذا النحو، بما في ذلك حاضرنا، عندما أرى أنّ ما من شيء غير متوقع سيحدث لي بعد الآن، أعني، ما من شيء؛ حتى

عندما تبدو الحياة التي أعيشها هنا في حديقتي أو في البيت مع السيدة «بيرّي» الرتيبة جداً، وكأنها صُنعت عمداً كي لا يحدث شيءٌ، وحتى عندما يبدو كل ما هو فجائيّ وحماسيّ منتهياً ومستَبعداً جداً، اؤكّد لك أنّه حتى مع كل ذلك، لا أزال أرغب في المزيد: أريد كل شيء؛ وما يجعلني أنهض كل صباح، هو هذا الانتظار الدائم لِما هو قادم ولا يعلن عن ذاته، هو انتظار ما لا نتوقّعه، ولا أكفّ عن الحلم بما هو آتٍ، تماماً كما كنت أفعل عندما كنتُ في السادسة عشرة وغادرتُ أفريقيا أوّل مرّة، وكان الحلم آنذاك يتسع لكل شيء، إذ كل شيء معقول في غياب المعرفة. أنا رحتُ أُنهك هذا الغياب شيئاً فشيئاً، وكما قلتُ لك، أخذتُ أستقي المعرفة وأزيدها باستمرار. ولكن على الرغم من كل هذا، لا يزال عدم المعرفة كبيراً جداً بحيث أنّني لا أزال حتى اليوم، وفي السبعين من عمري، ومع هذه الحياة الهادئة جداً التي أعيشها، آمل أن أحتضن كل شيء وأن اختبر كل شيء، أي كل ما هو غريب وما بات معلوماً على حدّ سواء؛ مرة أخرى، كلّ ما بات معلوماً. ثمة رغبة في ما هو مجهول وكذلك ثمة رغبة في ما هو معلوم، ولا نستطيع أن نتقبّل أن بعض الأشياء لن تتكرّر بعد الآن. لذلك أحسد أحياناً «ويل»، البوّاب العجوز في الـ«تايلوريانا»، الذي يكبرني بحوالي عشرين سنة تقريباً، ومع ذلك يعيش في فرحٍ دائمٍ او في قلقٍ طوال الوقت، طوال حياته، كونه أطلق العنان لإرادته، متلقياً المفاجآتّ ولكن أيضاً مكرِّراً ما سبق وعرفه. أنّها طريقة لكي لا يتخلّى عن أي شيء، على الرّغم من أنه لا يعي ذلك، رغم أن حياته، التي أمضاها في الحراسة، لم تكن ممتلئة من

وجهة نظري. إلاّ أن وجهة نظري لا تهمّ هنا، ولا أية وجهة أخرى. أن نعرفَ إنه في وقتٍ معيّنٍ علينا أن نتخلى عن كل شيء، لهو أمرٌ لا يُحتمل، أياً كان هذا الـ«كل شيء»، وهو الشيء الوحيد الذي نعرفه، والذي اعتدناه. أنا افهم جيداً مَن يتحسّر على موته فقط لأنّه لن يستطيع قراءة الكتاب القادم لكاتبه المفضّل، أو مشاهدة الفيلم المقبل للممثلة المعجَب بها، او مواصلة شرب الجعة، أو حلّ الكلمات المتقاطعة الجديدة، أو متابعة المسلسل التلفزيوني الذي يتابعه، أو لأنّه لن يعرف أي فريق فاز في مباراة كرة القدم خلال السنة. أفهمه تماماً. لا يتعلّق الأمر فقط بأنّ كل شيء ما زال حصوله ممكناً: الخبر الذي يستحيل علينا تصوّره لولا منحى كل الأحداث، والأنباء الأكثر غرابةً، والاكتشافات، وتقلّبات العالم. الوجه الثاني للزمن، قفاه الأسود... فالمشكلة تكمن في أنّ الأشياء التي تربطنا بالعالم كثيرةٌ. وكثيرة هي الأشياء التي تربط «كرومر-بلايك». كالّتي تربطك أنتَ. أو تربطني أنا. أو تربط «السيدة بيرّي». - وأشار «توبي رايلندز» إلى البيت -. تصوَّرْ، يا له من شاب مسكين! أعتقد أن ساعة مفارقته هذا العالم لن أعود جزءاً من هذه الأشياء.

صمتَ البروفيسور «رايلندز». عاد ورفع سحّاب سترته قليلاً، مغطّياً هكذا وبشكلٍ تام كنزته في جزئها الأعلى - لكن في جزئها الأسفل ظلّت بارزة، حيث ظلّ الهُدْبُ الأصفر ظاهراً-، وتناول فجأةً حبّتي زيتونٍ في آن واحد.

- لا تريدني أن أتكلّم معه؛ أليس كذلك؟

- إيّاك أن تفعل. - والعينان، تلك الزيتية والأخرى الرمادية

الفاتحة اللون، عين النسر وعين الحصان، نظرتا إليّ بتسلُّطٍ. أنهت الشخصية الادبية كأس الخيريث الثانية، وبينما كان «رايلندز» يربّت على صدره الضخم والمقوَّس، نهض وخطا عدّة خطوات في اتجاه النهر. إلتقط سلّة الخيزران المرمية على العشب وعاد بها (معلّقاً إياها في ذراعه، مثل بائع قديم متجوِّلٍ قد باع بضاعته كلّها) نحو البيت وصرخ -: «مسز بيري»! «مسز بيري»! - وعندما أطلّت «السيدة بيري» من نافذة المطبخ، حيث كانت على الأرجح تحضّر الغداء والذي لن أبقى لتناوله، قال لها وهو يرفع صوته كما سوف أرفعُه أنا قريباً في الملهى الليلي لأتكلّم مع «موريبل» من «ويتشوود فورست»: «مسز بيري»، اعملي لي هذا المعروف واجلبي لنا بعض البسكويت، لكن اجلبي القديم منه! - ثم عاد ونظر إليّ (لكن الآن بلا تسلّط) وحرّك السلَّة في الفضاء. ضحكَ -: تا، تا، تا. لِنَر ما إذا قرّر الإوزّ الكسول أن يخرج في النهاية.

كل ما يحدث لنا، كل ما نقوله أو يخبروننا إياه، كل ما نراه بعيوننا أو يخرج من فمنا أو يدخل إلى آذاننا، كل هذا الذي نشهده (وبالتالي نشعر بالمسؤليّة إزاءَهُ) يجب أن نخبره لشخصٍ ما، ليخرج منّا، فنختار هذا الشخص، بحسب الحدث وبحسب ما يقال لنا أو ما نقوله نحن. فكل شيء يجب أن نخبره لإنسانٍ ما، فنقوم بتوزيع ما نريد أن نخبره كمَن يتفحّص ويغربل ليوزّع الهدايا التي اشتراها في إحدى أمسيات التبضّع؛ فكلّ ما نعرفه يجب أن نخبره مرّة واحدة على الأقلّ، حتى لو اقتضى الأمر، كما كان «رايلندز» قد أقرّ، أن نفعل ذلك بحسب الظروف الزمنية، أو ما يعني أن نفعله في الوقت المناسب؛ أو ألّا نفعله أبداً إذا عجزنا عن إيجاد الوقت المناسب أو إذا تركناه يمرّ عمداً. يأتي إلينا هذا الوقت أحياناً بطريقة مباشرة، وواضحة، ولجوجة، لكن احياناً أخرى يأتي هذا الوقت إلينا ملتبساً وبعد عقودٍ من الزمن، الأمر الذي يحصل مع كل الأسرار المهمّة. إلاّ أن ما من سرٍّ يمكن أو يجب إبقاؤه سراً بالنسبة إلى الجميع، إذ يجدر أن يباح به إلى شخص واحد على الأقل، أي مرّة في الحياة، في حياة هذا السّر.

لذلك يعود بعض الأشخاص ويظهرون.

لذلك نحاسب دائماً أنفسنا على ما نقوله. أو على ما يقولونه لنا.

كنت على يقين أنّه لو منحتني أيام «كرومر–بلايك» المعدودة

الوقت الكافي لذلك، لكنت أخبرته ما قد منعني «توبي رايلندز» من البوح به له من خلال نظرته الحاسمة، حتى لو أنّ ذلك، وفي معناه الدقيق، لا يمكن اعتباره في الحقيقة سراً. لكن لأنّه في ذلك الوقت كان من الضروري إخفاء ما قاله لي ولأنّ الكلمات كانت ستتأخّر في بلوغ الشخص المختار مسبقاً (المعني الأكبر)، نسيتُ على الفور، ولو موقتاً (فلم أستمرّ في التساؤل حول هذا الموضوع)، كل ما كنت قد سمعته من «توبي رايلندز» حول «كرومر–بلايك» وحول تغيّبه الطويل عن البيت المحاذي لنهر تشرويل. لكن في المقابل، لم أستطع أن أنسى التلميحات - أو التأكيدات الأكثر وضوحاً من كل ما سمعته منه - حول ماضيه. أمّا في ما يتعلّق بتلك التلميحات، فأقصى ما كنت قادراً على القيام به هو فقط إيصالها إلى «كرومر–بلايك» وإلى «كلير بايز»، إي إلى الوجهين الأساسيين بالنسبة لي في مدينة أوكسفورد (الوجه الأبوي والأمومي والأخوي والمفكّر تباعاً) إضافة إلى «رايلندز» نفسه (الذي كان الوجه الثالث، وجه المعلِّم، والأكثر تطابقاً مع دوره). الذي يعني أنّه بقدر ما كان باستطاعتهم أن يشاركوا في معرفة هذه التلميحات، علاوةً عني، فعلى الأرجح، لا هم ولا غيرهم (كم من ميت قد يكون ضمّه «توبي رايلندز» إلى ذاكرته الحادة والصافية)، يستطيعون أن يوضّحوا أو أن يكملوا قصة تلك النشاطات في الوشاية والتجسس، وتلك الجذور، جذوره الغامضة، والمعارك، وقصة أولئك الرجال الذين كان «رايلندز» قد قضى عليهم أو أنقذهم ولا - وطبعاً الاحتمال أقّل - قصّة المرأة التي أحبّها والتي بينما كان لا يزال يحبّها - مع أنّي الآن أشكّ في أنّه

أخبرني ذلك، وبدأتُ اشكّ في قدرتي على فهم الإنكليزية وفي أنّي سمعتُ وستوعبت جيداً – انتحرت أمام عينيه.

نقلتُ هذا إلى «كرومر–بلايك» عند أول مناسبة سنحت لي، مثبتاً حالة النسيان التي نسبها إليه «راينلدز» فقلّما أعار ما قلته له اهتماماً. ولم يبدُ مهتماً. (ربّما لم يعد، في الواقع، كما كنّا نظنّه أو كما كان عليه في السابق: فـ«كرومر–بلايك» يكون دائماً مستعداً لردّات الفعل الساخرة أو الغاضبة إزاء أي شيء، كما سبق أن قلتُ أو كما كان يقول، لكن لم أرَه من دون فضول من قَبل أو في هذه اللامبالاة، كما اليوم.)

– «هل انت متأكّد أنه قال هذا؟»، اكتفى بالسؤال، شارداً، وبشيء من الشكّ (أكبر دليل على اللامبالاة هو الشكّ). «أعتقد كذلك»، قلتُ، «على الرغم من أنّي لم اعد واثقاً. لكن لا يمكنني أن أكون اختلقتُ كل هذا أو تصوّرتُ قصّة كهذه». وأجاب: «من يدري، قد يكون حدث ذلك في الحرب، أو ربّما يكون أحد الجنود، وهو صديقه، قد خاف إلى درجة كبيرة قبيل إحدى المعارك، خوفاً جعله يفضّل أن ينتهي مرة لكلّ المرّات من عدم اليقين وأن يرمي نفسه برصاصة. كان هذا يحصل دوماً، وبخاصة في خنادق الحرب الأولى الممتلئة بالمراهقين والأطفال». «لكن، قل لي هل «رايلندز» مثْليٌّ الجنس؟» سألتُ. «آه لستُ أدري في الحقيقة، لكن منذ أن عرفته كان دائماً منعزلاً، وفي أي حال لا يتكلّم على هذه المسائل القليلة اللياقة. وإذا أمعنّا النظر فيه، يبدو بعيداً عن الأمور الجنسية»؛ بدا لي جوابه هذا متناقضاً مع ما كان قد عرضه وشرحه لي في إحدى الليالي التي

فاضت بالـ«بورتو»، بعد أحد العشاوات المرفوعة. «أما في ما تبقّى، فأنتَ تعرف أنّهم عندما يخبرونني عن أشخاص محبوبين أو مرغوبين، فبالنسبة لي هم رجال، إلاّ إذا حدّدوا لي العكس. بالعودة إلى «رايلندز»، ربّما قال لك ذلك لكي يؤثّر فيك. إنه يخبر القليل عن ماضيه، لكنّه يحب أن يلمّح بأنّه كان عاطفياً جداً. لذا أنا لا أعير ما قاله أهمية، هذا إذا كان حقاً فعل». ثمّ راح يسألني عن علاقتي بـ«كلير بايز»؛ ففي تلك الفترة – في نهاية فصل «هيلاري» من سنتي الثانية والأخيرة – لم يبقَ أمامنا سوى ثلاثة أشهر؛ أما هو فكان قد اعتاد هذه العلاقة إلى درجة جعلته – عندما كان مزاجه جيداً – صديقاً حميماً للاثنين معاً في ذلك الوقت – وكمثل امرأة مسنّة – كان فقط يحب أن يعرف أخبار العلاقات الجنسية والعاطفية، وكأنّه تخلّى عن علاقاته الشخصية؛ كذلك كان يحب أن يعرف عن الحاضر وعن المشاكل الأكثر علاقة بالحياة اليومية، كما لو أن المستقبل لم يعد مهماً بالنسبة إليه (ولا الماضي). «في جميع الأحوال، ما أهميّة الاشياء التي قد تكون حدثت قبل أربعين سنة؟» وبينما راح يفتح يديه ببلاغة، شبك ساقيه الطويلتين واعتمد الوضعية (وثوب الأساتذة بدا كشلال ليليّ) الأكثر تناغماً مع صورته التنكرية التجميلية هذه. كان هذا كلّ ما قاله حول تلك الكلمات التي سمعها مني والتي من خلالها جعلتُه أنا الشخصَ الخاص الذي اخترته لكي يتلقّاها.

أما بالنسبة إلى «كلير بايز»، فسردتُ لها أيضاً كلّ ما دار من حديث بيني وبين «رايلندز». لكنّها بدت مهتمّة أساساً او حصراً بحزن الأخير إزاءَ هذا التخلّي المستمر لـ«كرومر–بلايك»، ولم

أتمكن، سوى بعد أن توسّلتُ إليها بحرارة، من ثنيها عن التدخّل في تلك المسألة (كما كانت تنوي فعله)، ومن إقناعها بملازمة الصمت أمام هذا التلميذ المتهرّب، في ما يتعلّق بشكاوى معلّمه. لم يكن الابن «إريك» قد مرض بعد في تلك الفترة، وكان في «برستول»، وكانت «كلير بايز» بالتالي حاضرة في كل شيء ومهتمة بكل شيء، وهي المنفتحة والمنشرحة، والمثابرة والنشيطة، كما عرفتُها دائماً. مع ذلك، عندما ركّزتُ في سردي على ماضي «رايلندز» وعلى ذلك الفصل الذي كان غاية في المأسوية والمتعلق بحادثة موتٍ معيّنة وبالشاهد في هذه الحادثة، تغيّرت تعابير وجه «كلير بايز» قطّبت وجهها وبدت متوترة، كما لو كانت غير مستعدة ليس فقط للكلام، إنما غير مستعدة لسماع المزيد حول هذا الأمر. لكن خلافاً لما توقّعتُه، فلم تُفاجأ ولم تبدُ متأثرة بما باح به لي «رايلندز» طوعاً، ولو أنه كان نصف بوحٍ. بل بدتْ بالأحرى مغتاظة.

«من يدري»، قالت كما قال «كرومر–بلايك» في ذلك الصباح بالذات، «قد يكون صحيحاً». كنّا في منزلي، في الطابق العلوي، أي في سريري، عندما كان لا يزال هذا مكاني ومكانها فحسب. لكنّنا كنّا نرتدي ثيابنا، كما كنّا نفعل عدّة مرّات بسبب التدفئة الرديئة وضيق الوقت، ونتكلّم بسرعة قبل أن يحين موعد عودتها إلى بيتها، مشياً تحت القمر المخملي والمتحرّك وهي تواجه الرياح؛ ويكون وجهها لا يزال متّقداً، أكثر من اللزوم بالنظر إلى أمننا وإلى طمأنينتي. كنا نتكلّم بسرعة إذ بهذه الطريقة يبدو لنا أن الوقت يطول ويتّسع، (على الرغم من شحّه) لأكثر مما كان عادةً يتّسع له، ولأكثر

مما كان دائماً في حوزتنا: أي أكثر من الدفق، الذي لم يعد يكفينا منذ وقت طويل، وأعني بذلك، لم يعد الشيء الوحيد الذي يهمّنا في الآخر. فقالت: «من يدري، قد يكون صحيحاً؟» وحاولت أن تنتقل إلى موضوع آخر. لكنّني تابعتُ: «ومن قد يعرف حول هذا الموضوع؟ أودّ أن أعرف قصة «توبي» هذه، لكنّي لا أجرؤ على سؤاله هو». «وما همّك؟»، قالت هي، «كان ربّما قد وقع في غرام مرأةٍ مريضة كابدت آلاماً كثيرة فقتلت نفسها. فهذه الأشياء لا تحدث فقط في السينما». «إذاً «توبي رايلندز» ليس شاذاً ويحب الجنس الآخر؟»، سألتُ. «آه لستُ أدري، أعتقد أنّه كذلك»، قالت، «وأنا مقتنعة بأن كل الرجال يحبون الجنس الآخر إلاّ إذا قالوا لي صراحةً العكس، كما فعل «كرومر–بلايك». ما المانع في ألاّ يكون يحب الجنس الآخر؟ فقط لأنه لم يتزوج؟ لم أسمع يوماً عنه أنّه شاذ». قلتُ: «أنا كذلك لم اسمع، طبعاً»، ثم أضفت: «لكن في حال كانت القصة حقيقية، ألا ترين أنّها فظيعة وجديرة بأن تُعرف، أياًّ كانت هذه القصة؟» فتوتّرت عندئذٍ «كلير بايز» وقطّبت وجهها وبدت مغتاظة: أشعلت سيجارة بغضب وإهمال، فوقعت شرارة على أحد الجوارب – إن جواربها دائماً مكشوفة، عندما تكون في سريري، وتنورتها مرفوعة عندما لم تكن قد خلعتها لتكشف عن ساقين ممشوقتين وصلبتين وعن قدميها العاريتين – وعندما احترق الجورب لعنت، ونهضت عن السرير، وفَرَكَت الجورب، وخطت ثلاث خطوات في أرجاء الغرفة وصولاً إلى النافذة، ونظرت من خلالها بشكل آلي ربما إلى كنيسة «سانت ألويزيوس» وإلى الرياح، ثم خطت خمس

خطوات أخرى وصولاً إلى الحائط المقابل وأسندت إليه يدها فخشخشت أساورها العديدة، ونفضت سيجارتها نفضة صغيرة ولكن لم يفلت أي رماد منها وقالت: «طبعاً، تبدو لي القصة فظيعة، ولهذا السبب تحديداً لا أريد أن أعرفها، ولا أن اتكلّم عنها، ولا أن أتصوّر الهلع الذي قد يكون مرّ به «توبي»، في بلدٍ غريب، قبل ثلاثين سنة. من يهتّم بما حدث في أمكنة نائية، ومنذ زمن طويل؟» «يربو على الأربعين سنة»، قلتُ أنا، «شعرتُ أنّه كان يتكلم عن شيء حصل قبل أربعين سنة. ولم يقل إن هذا حصل في بلدٍ غريب، على الرغم من أنه من الممكن جداً أن يكون كذلك.» «لكن قبل ثلاثين سنة أيضاً حدثت أشياء كثيرة»، قالت «كلير بايز»، وتنشّقت الدخنة الأولى ثم نفثتها، إذ كانت لا تزال السيجارة مشتعلة في يدها، وهي تلوّح بها لكن لم تكن تدخّنها، «وقبل عشرين، وعشر، والبارحة بالذات، هنا وفي بلدان أخرى كثيرة، كانت دائماً تحدث اشياء فظيعة، ولستُ أفهم لماذا علينا أن نعود ونتكلّم عنها، ولماذا علينا محاولة معرفة الأشياء التي حالفنا الحظ في ألاّ نعرفها، وأيضاً تلك التي حدثت من دون أن نكون قد شهدناها أو اثّرت فينا. يكفينا ما رأيناه شخصياً وبأمِّ العين، أليس كذلك؟» وأخذتْ تلملم أوراقها وملفّاتها وأكياسها وارتدت سترتها استعداداً للخروج، على الرغم من أن أجراس أوكسفورد كانت قد أنذرتنا قبل ذلك بقليل، بأنه لا يزال لدينا ربع ساعة من الوقت، والمنبِّه الذي على الطاولة الصغيرة قرب السرير لم يكن قد رنّ بعد. لم يكن وداعها هذه المرّة طويلاً (فلم تشعر بألم الوقت الذي ينتهي)، على الرغم من أنّ إجازة أسبوع الآلام كانت ستبدأ قريباً جداً

وقد لا نستطيع ان نرى واحدنا الآخر قبل فصل ترينيتي وعودة فصل الدراسة. وكان ذلك اليوم تحديداً عندما نسيَتْ حَلَقتي أذنيها اللتين لا أزال أحتفظ بهما.

لكن أثناء ذلك الحديث مع الشخصية الأدبية كان قد برز عنصر ثالث استوقفني وحيّرني، وكان يمكن، خلافاً للعناصر الأخرى، التحقق منه أكثر وبطريقة أعمق، ولو أنه كان من الصعب التحقق منه كليّاً. في ذلك العنصر أنا رأيتُ ما هو عكس «رايلندز»، بل أكثر من ذلك، رأيت ما هو عكس «غاوزوورث»، عكس ما كنتُ اخشى أن أصبح عليه، وهذا النقيض أخافني اذ رأيتُ فيه ذلك الذي لن يحقق أي مكسب خاص في حياته ولن يترك أي أثر، وما من شيء أو ما من احدٍ سيكون رهناً به على الإطلاق، بل هو نفسه سيكون رهنَ ذاته، حيث لا امتداد له ولا ظلٌ بل ستكون نشاطاته رهناً به، وعاداته وحياته، لكن فقط تلك المتخيَّلة. رأيتُ الروح الميتة لمدينة أوكسفورد، تلك التي لن يخطر حتى على بال «ويل» أن يعيدها إلى الحياة ولو لحظةٍ، عندما تكون أختفت. وعلى الرغم من أنّني لن أبقى في أوكسفورد ولن أكون يوماً جزءاً من أرواحها الحقيقية، بدا لي أن ذلك المعاكس لـ«رايلندز» والمعاكس لـ«غاوزوورث»، قد يمكنه أن يواجه مصيراً أسوأ من مصير «رايلندز» و«غاوزوورث»، إذ لن يكون لديه على الأرجح شخص معيّن تُرسل إليه قصته ولا شخص أمين يخبره أسراره (السرّ الوحيد والأصيل، سرّ الحيّ الميت، لا سرّ الميت).

لم أفكّر في هذا العنصر خلال أيام الاثنين والثلاثاء والأربعاء التي تلت ذلك الأحد، عندما زرتُ «رايلندز» (وذلك الثلاثاء كان اليوم

الذي أخبرتُ فيه القصة إلى كل من «كرومر-بلايك» و«كلير بايز» فجعلتهما الشخصين المختارين لإيداع السر في أمانتهما، لكنّي كنتُ قد تلقيت صدىً شحيحاً منهما)؛ لكن الخميس، وكان اليوم ما قبل الأخير في التدريس قُبيل إجازاة أسبوع الآلام، قمتُ بقفزة خاطفة إلى مكتبة «بلاكويلز» بين حصّتَي التدريس خاصتي (وكانت تفصل بينهما ساعة فراغ)؛ وخلافاً لما كنتُ أفعل معظم المرّات إذ كنت أصعد على الفور إلى الطابق الثالث لأبحث وأنقّب في القسم الهائل للكتب القديمة أو المستعملة، صعدتُ فقط إلى الطابق الثاني لألقي نظرة على قسم الكتب الأجنبية أو القاريّة، حيث تتعايش جنباً إلى جنب الترجمات والنصوص المستوردة في لغات مختلفة وفي نسخها الأصلية. وإذ بي أرى من بعيد، أمام الجزء المخصّص للأدب الروسي، «أليك ديوار»، الـ«ديستريبادور». كان يتصفّح - بالأحرى كان يقرأ، لفرط ما بدا مأخوذاً ومتسلياً - كتاباً ضخماً سرعان ما رأيتُ على غلافه صورة «بوشكين» Pushkin، على الأرجع تلك اللوحة بريشة الفنان «كيبرنسكي» Kiprenski والتي كثيراً ما طُبعت نسخٌ عنها. في اللحظة الاولى لم أعرِ الأمرَ أهمية، كون «ديوار» متخصِّصاً في أدب القرن التاسع عشر البرتغالي والإسباني (كان يبالغ في تكرّسه لـ«ثوريا» Zorilla و«كاستيلو برانكو» Castelo Branco، وكان دائماً ينصحني وبشغفٍ فائق بأن أقرأ قصيدة طويلة لهذا الشاعر الإسباني تحت عنوان «الساعة» او «الساعات»، ولا أذكر جيداً العنوان لأنّني لم أتبع نصيحته على الإطلاق)، وتصوّرتُ أنّه متحمّس لقراءة دسيسةٍ في الأدب المقارن. لم يرَني لشدّة ما كان غارقاً في قراءة

«أونيغين» Oneguin أو ربّما «الضيف من حجر» (بل ظننتُ أنه كان على الأرجح يقرأ هذا العمل الأخير إذ يمكنه أن يقارنه بـ«دون خوان تينوريو» لـ«ثوريا»)، وأنا لم أتحمّس للسلام عليه خارج الـ«تايلوريانا» وفي ساعة كانت بالنسبة لي ساعة إجازة واستراحة. لكن عندما أدرتُ رأسي باحثاً عن الجزء المخصّص للأدب الإيطالي، وكنتُ لا أزال على مسافةٍ منه، مررتُ من ورائه دون أن ينتبه إليّ، وفي ثوانٍ رأيتُ النص الذي أمام عينيه، وكان مكتوباً بالأبجدية السيريلية. ابتعدتُ قليلاً وأخذتُ عندئذٍ أراقبه عن كثب. ظلّ، وخلال وقت لا بأس به، يقرأ في ذلك الكتاب في الروسية، مقلّباً الصفحات في انتظامِ مَن يقرأ بجدية: وبعد مرور دقائق طويلة وقد تغلّب عليّ فضولي، اقتربتُ بحذرٍ حتى كدتُ أُلامس ظهره، وكان لا يزال غارقاً في قاع هذا الفاسق أو ذاك، لفرط ما كان مندمجاً، ونظرتُ بحرية من فوق كتفه ولاحظتُ أن الكتاب ليس حتى طبعة روسية صُمّمت في إنكلترا، حيث يمكن أن نجد الهوامش في أسفل الصفحة أو مقدمةً في الإنكليزية تفسّر مطوّلاً ما كان هو إزاءه، انّما كان طبعةً أصلية وسوفياتية صرفة لم يكن يخلو منها ذلك القسم للكتب القاريّة في مكتبة «بلاكويلز»، وسمعتُ – همساً خفيفاً يمكننا إدراكه فقط من مسافة قريبة جداً شرط ألا يكون الصندوق الآلي المجاور شغّالاً – كيف كان الـ«ماتاريفه» يتلو ما يقرأه بصوت منخفض وغير واضح، وابتسامة متلاشية تتدلّى من فمه الكبير، وكان يؤدّي بإرهاف وانتظام (وهو مفتتنٌ)، الإيقاع البديع للأوزان اليامبيكية. ولم يبقَ لدي عندئذٍ أي شك: فالـ«أنكيسيدور»، إضافة

إلى قراءته للّغة، كان يتلذّذ برنّتها الروسية.

لو كان «روك» من اكتشفته في حالة الانتشاء هذه («روك»، الصديق القديم والمعلَن لـ«فلاديمير فلاديميروفتش» في المستعمرات، ذلك المترجم البارز والاستثنائي والمستقبلي لـ«كارينين»، تماماً كما أصبح «فلاديمير»، وإلى الابد، المترجم الماضي والبارز لـ«أونيغين» نفسه)، لَما ستغربتُ الأمر. لكن الـ«ديستريبادور» كان يتقن اللغتين اللتين كرّس نفسه لهما مهنياً، وبدا لي مبالغاً فيه أن يتّقن، إضافة إلى هاتين اللغتين، الروسية أيضاً، وبمهارة تجعله قادراً على دندنة أحبّ الأبيات إلى قلبه، وذلك دفعة واحدة وبلا تعثّر وفي الأماكن العامة. وعندئذٍ تذكرتُ أنّ «رايلندز»، في ذلك البوح الذي اعتبره لاحقاً تصرّفاً غير متحفظٍ بسبب إفشائه تلك الأسرار، كان قد لّمح إلى أنّ «ديوار» جاسوس. «جاسوس مكاتب»، كان قد قال، ولذلك كان بغيضاً في نظره؛ لكنّه ساعتها لم يتردد في قول ما قاله على الإطلاق، أي عندما نسبَ له ذلك الوجه واتّهمه بذلك العمل، وهو من ناحية أخرى عملٌ أوكسفوردي محض. في ما يتعلّق بهذا الموضوع، طبعاً كان يمكنني أن اسأل «رايلندز» بالذات، لكن هذا لم يحصل سوى بعد عيد الفصح، عندما بدأ فصل «ترينيتي» وكان الطفل «إريك» مريضاً ولم تكن «كلير بايز» تريد أن تراني، أي عندما كنت أطيل تسكّعي ساعاتٍ إضافية عبر مدينة أوكسفورد ملتقياً شحّاذييّ اللذين استحوذوا عليّ كالوسواس وعندما أصبحتُ على وشك أن أرتاد الملهى الليلي الشرقي المجاور للـ«أبولو ثياتر»؛ إذ فقط في تلك الفترة عدتُ أتردد على البيت المحاذي لنهر تشرويل وتجرأتُ على مساءلته.

وعلى الرغم من أنه حاول في البداية التملص قليلاً من الإجابة («اوه، طبعاً، «ديوار»، في قسمك، هل أنت متأكد من أنّني قلتُ ذلك؟»): كان هذا الجواب عمّا كان ينتظرني في حال تخطّيتُ جدود الاحترام والتكتم المفترضين)؛ لكن بعد سؤال عن ماضيه الغني، وبعد إلحاحٍ قليل، أخذ يبوح لي بأسراره وهو بشروده المعتاد وبالتفاصيل المؤذية: «أوه، طبعاً، ديوار»، قال؛ «من «كلّية برايزنوز» Brasenose College، أليس كذلك؟ أو ربّما من «ماغدالين» Magdalen؟ في أية حال قد يكون تقاعد الآن، إن لم أكن مخطئاً؛ كم له من العمر الآن، خمسون ونيّف؟ إنّه رجل من عمرٍ مستحيل، فمنذ أن عرفته وهو دائماً مما يُسمّى العمر المتوسط؛ لكن في جميع الأحوال سرعان ما تحيل الخدمة رجالها إلى التقاعد، إلاّ إذا كانوا لا يُعوَّضون بغيرهم، حتى بالنسبة إلى جواسيس المكاتب أولئك. بالنسبة إلى «ديوار»، أظن أنهم على وشك أن يحيلوه على التقاعد هذا إن لم يفعلوا بعد: إنّه عصبيٌّ جداً، يعاني من أرق مزمنٍ، وقد يكون هذا أنهكه. هل تعلم أنّه لا يستطيع أن ينام إلا مع الضجيج الأبيض؟ الضجيج الأبيض، هكذا يسمونه. إنها آلة، أو محرّك صوتيّ، يبثّ صوتاً غريباً ورتيباً؛ بل هو شيء يكاد لا يُسمع لكنه موجود، موجود إلى درجة أنه يلغي كل الاصوات الأخرى ويحثّ على النوم؛ يقولون إنه فعّال ولا يخطئ إطلاقاً. يبدو أنه يُستعمَل كثيراً في الخدمة، فكثُرٌ هم الناس هناك الذين لا يستطيعون النوم. كان «ديوار» قد طالب بآلة له مقابل بعض المهمّات الإضافية. أراني إياها مرّة، في الكولدج... لا أستطيع أن أتذكّر أكان «ماغدالين كولدج» أم «برايزنوز»... كان شكله أقرب

إلى الراديو الصغير، لكنّي لم أتمكن من سماع أي شيء. «ديوار». طبعاً. لم يقم يوماً بأي شيء مهم، وعلى حدِّ علمي، لم توكَل إليه يوماً أية مهمّة خارج إنكلترا. مهام مكاتب، هذا كان كل شيء، بفضل إتقانه الروسية، وهي كفاءاته الوحيدة. إنّه رجل موهوب للّغات، وتعلّم الروسية وهو طالب، كما تعلّم الإسبانية وتعلّم البرتغالية لاحقاً لإكمال الاختصاص الذي كان قد اختاره... أعتقد أنه يتكلّم عدّة لغات أخرى... كذلك يمكنه أن يختار لغات سلافية، علماً أن مكتب المخابرات، على الرغم من ذلك، لم يكن لِيلجأ إلى خدماته هذه بتاتاً. كل مَن يتبع قسم اللغات السلافية يصبح رجلاً بلا فائدة، لا ينفع لأي عمل يتعلّق بالسوفيات. تا، تا، تا. كان «ديوار» يُدعى إلى لندن أحياناً للقيام ببعض التنصت، ولترجمة بعض الكلام المسجَّل ولتفسير الأصوات، أو لتشريح بعض النصوص المعقّدة جداً أو المكثّفة، لكن هذا كل شيء. آه، بلى، في مهمّته الأخيرة لكن غير المتواصلة... وربّما لا يزال يقوم بها: عندما يهرب مثلاً راقص باليه، أو رياضيّ، أو لاعب شطرنج، أو مغنّي أو بيرالي (تلك الفئة من المواطنين الذين غالباً ما كانوا يسافرون خارج الأراضي السوفياتية) ويجتاز الحدود نحو الغرب مستفيداً من جولةٍ في هذا البلد... لكن هذه المسائل أخذت تضمحلّ مرّة بعد مرّة، ليس فقط بسبب التطورات الأخيرة، إنّما أيضاً لأنهم جميعهم كانوا يفضّلون الوصول إلى أميركا قبل أن يتخذوا قرارهم... إذاً، وقبل أن يُمنح الرياضي أو المغنّي ذلك (وكلهم أناس غير مهمّين، أناس آليّون) أي نوعٍ من المساعدة أو اللجوء، كان «ديوار» يُستدعى لكي يقوم بالاستجواب في الروسية،

أو، بالأحرى، لكي يترجم أسئلة المفتّش المسؤول ويعطي رأيه في صدق كلام اللاجئ ونيّاته الحسنة وعدم تعلّقه بالاتحاد السوفياتي. ما من واحد أولئك اللاجئين... لم يكونوا يوماً كثراً وأذكر أن آخرهم، مِمَّن مرَّ بين يديه، قبل حوالي سنتين، كان راقصاً لم يلبث أن اشتهر في أميركا، كما يشتهر جميعهم... ما من واحد من أولئك اللاجئين كان يخطو خطوة الحرية في شوارعنا قبل أن يكون «ديوار» قد أعطى أولاً موافقته. هذا لا يعني أن موافقته هي الحاسمة أو الوحيدة، فلم تكن يوماً على هذا القدر من الاهمية: بل ما كان مطلوباً منه هو أن يدلي برأيه الشخصي انطلاقاً من النبرة، ومن تغييرات الصوت، ومن الطريقة التي كان يردّ فيها المستجوَبون في لغتهم الأم، أو في أي شيء قد يستحيل على المفتّش الذي كان يملي الاستجواب أن يدركه من تلقاء ذاته. يقال إنّ «ديوار» كان يتمتع جداً، ولا يزال، بمهمته هذه كمستجوِبٍ بالوكالة أو كمستجوبٍ وسيط، وهذا جعلهم غير مرّة يشكّكون في مصداقيته بسبب تماديه الأخرق في حرية ترجمته للأسئلة إلى الروسية، فشعروا أنه كان ينحرف عنها أو يضيف غيرها من عنده، ممتنعاً عن الترجمة إلى الإنكليزية، وأعني طبعاً، ترجمة الأجوبة المطابقة لتلك الأسئلة. على الرّغم من أن المفتّشين لم يتمكّنوا يوماً من التأكد من صحة وجود تلك الحوارات على انفراد، وموازاةً، بين «ديوار» وأولئك الهاربين، لا بل (هذا إذا كانت فعلاً قد حصلت) لم يستطيعوا أن يعرفوا عمّا كان يتحدّث «ديوار» مع أولئك السوفياتيين السابقين. لهذا السبب احتاجوا إلى مساعدة مترجمٍ ثانٍ يتولّى مراقبة ترجمات «ديوار» في الاتجاهين، وإعادة ترجمة كل ما

يسمعه ويقوله هذا الأخير في الروسيّة. إنّها مهمّة معقّدة جداً، إضافة إلى أنّها تنذر بسابقة خطيرة تكمن في خلق سلسلة غير متناهية من المترجمين، تا، تا، تا... إنّما المؤكّد حقّاً هو أنّ «ديوار» كان يأخذ مهمّته على محمل الجدّ وبقوّة، وأنّ مشاركته في الاستجواب كانت دائماً تفترض إبقاء الهاربين جالسين على الكرسي خلال ساعات، وهم يتلقون وابلاً من الأسئلة الشخصية والحميمة هذا إن لم تكن أيضاً غير لائقة. أظن أنّه كان يفيد قدر الإمكان من تلك المناسبات، ولو القليلة، التي كانت تُتاح له لممارسة هذه المهنة الثانية. وإذا أخذنا في عين الاعتبار الحياة التي يعيشها، كان على الأرجح يعتبر هذه المهنة مغامرةً كبرى».

أعتقد أن عاطفتي إزاء «الـ«ماتاريفيه»» اشتدّت منذ ذلك الحين. ليس لأنّ عمله في التجسّس كان لامعاً أو رائعاً، لكن كلّما رأيته بعد أن كان «رايلندز» قد كشف لي عن كفاءاته اللغوية والتحقيقية – الاستجوابية (الآن أفهم أكثر من ذي قبل أحد ألقابه[٤])، لم أستطع سوى أن اتصوّره في الغرفة الرديئة في إحدى المفوّضيات اللندنية، منفرداً خلال ساعات مع راقصٍ خائفٍ وهارب للتوِّ، والذي قد يكون خلال تلك الساعات (كان وجه «ديوار» الخبيث والشرس بالنسبة إلى الهارب، انطباعَه الأول وغير المشجّع عن العالم الذي يُسمَّى حرّاً) يشكّ (الهارب) كثيراً في ما إذا كان قد ترك حقاً النير الحقيقي وراءه او كان يراه أمامه. كان الـ«انكيسيدور» على الأرجح

(٤)– احد القابه كما رأينا، هو «انكيسيدور»، وتعني المحقق – المفتّش (ص.ز.).

في تلك الساعات من التحقيق، يطوي ساقه ويؤرجحها كما اعتاد أن يفعل في الصف أمام الطلاب، وكان حذاؤه الضخم والشره – لعدم وجود طاولات الطلاب ليستند اليها – يتناوب ذراعَي الكرسي حيث كان الراقص جالساً؛ أو لِمَ لا، ربّما كان يرفعه أكثر ويضعه على المسند الخلفي؛ بل أكثر من ذلك، على المقعد نفسه، حاشراً مقدّمة الحذاء العريضة جداً والمربّعة بين فخذَي اللاجئ وكأنها وتدٌ يزعج بنطلونه الضيّق جداً أو جواربه الطويلة واللاصقة (إذ لم أكن أستطيع تصوّر الراقصين سوى هاربين فوراً بعد العرض اللندني وبعد التصفيق وباقات الزهور، وليس قبل ذلك، وهم لا يزالون بالتالي في ثياب الرقص ويظهرون جميعهم في هيئة «روبين هود» Robin Hood – وعند اقتضاء الأمر في مشلح fin de siècle وبنفسجي لاتقاء البرد). «إذاً قررتَ الهروب، آه؟» قد يكون الـ«ديستريبادور» قال له بالروسية، مستهلاًّ كلامه بالاحتقار وعدم الثقة، ومقلِّلاً من اللياقة في الكلام معه للانتقاص من شخصه؛ وبحركة سريعة، قد يكون قام بإشارة تنذر بأنّه سيضربه، ولو أنّه لن يمسّه اطلاقاً (هذا إذا استثنينا مقدّمة حذائه الضخم – ذي الشريط – في احتكاكه الخفيف). «وكيف لنا أن نعرف أنك لا تغشّنا وأنك لا تخطّط للاعتداء على التاج؟» (الـ«ماتاريفيه» يحبّ الأبّهة) «أوه، طبعاً»، قد يكون أضاف من عنده، «أعرف القصة جيداً: هناك تفتقرون إلى أفقٍ وتضجرون وتشعرون أنكم سجناء، أنكم مكبّلون» (أضاف هذه الكلمة الاخيرة، فللمصطلحات المتنوعة تأثيرها الخاص)، «وتريدون تحسين وضعكم، فأنتم أيّها الفنّانون تريدون دائماً المزيد من البريق والبهرجة

والمداهنة والمال، أليس كذلك؟ «ليس فقط هذا»، قد يجرؤ الراقص على الردّ بالاندفاع أو بالحماسة اللذين رافقاه خلال الرقص واللذين لم يبرحاه بعد كلّياً. لكن الـ«إنكيسيدور» المتنبّه، لا يدع إنساناً متنكّراً بشخصية «بيتر بان» Peter Pan يغشّه (فبين يديه أمن الدولة، أقلّه في واحدٍ من جوانبه العديدة، وخلال ساعات يكون هو المسؤول، وكل شيء رهن حكمته ودهائه للكشف عن راقص – عميل محتمَلٍ). يرفع «ديوار» للمرّة الأولى قدمه المنتعلة بأبهة ذلك الحذاء الضخم بحركة قد تشير إلى تشكيك ما حيال الراقص كما قد تنذر بركلةٍ وشيكة؛ إلاّ أنّه في هذه المناسبة الأولى يدعها تهبط ارضاً مجدَّداً، مكتفياً بخبطة ذات إيقاع عسكري: فثمة مَن هو رهنٌ به، ولو أنّ ذلك لا يتعدّى اليوم الواحد. «حسناً، حسناً، حسناً»، يقول من خلال بسمته المتكلّفة التي أعرفها تماماً والتي طالما رأيته يوزّعها، خلال صفوفنا المشتركة، على أبغض الطلاب إليه. ثمّ يطوي الـ«ديسترييادور» ساقه، فيدوس كرسي المستجوَب من جهاته كلّها، (قارصاً سهواً شيئاً من لحمه) بينما يترجم أولاً فأولاً أسئلة المحقّق وهو يحشر فيها، أسئلته هو: «لماذا قرّرتَ طلب اللجوء إلى المملكة المتحدة؟ (وقل لي، أيها الرفيق، هل كنت تحب الرقص منذ صغرك؟)» أو: «هل خطّطتَ للفرار بمفردك أم كان ثمة عضو آخر في فريقك على علم بذلك؟ (وقل لي، أيها الرفيق، هل من الصعب، في الاتحاد السوفياتي، أن نصبح أعضاء في شركة ما؟ هل علينا أن نخضع لإداء جنسيّ ما؟)» أو ربما هذا ايضاً: «هل تعرف شخصياً قائداً ما في الحزب الشيوعي أو عضواً ما في حكومة بلدك؟ (وقل لي، أيها الرفيق، ما هو انطباعك

عن جمهور إنكلترا؟ إنه متذوّقٌ، أليس كذلك؟ فعندنا هنا تقاليد عريقة. وكيف استقبل هذا الجمهور عرضَ اليوم؟ وكم ساعة تتمرّن يومياً؟ هل عليك أن تخضع لنوع معيّن من الحمية؟ أيّهما يتطلّب مجهوداً أكبر، الباليه الكلاسيكي أم الحديث؟ «نيجينسكي» Nijinsky أم «نوريبف» Nureyev؟ جميل جداً مشلحك الليلكي. وكيف كانت علاقتك بزميلك - رفيقك في الرقص؟ هل من غيرة؟)» لم يفتقر الـ«انكيسيدور» يوماً إلى الأسئلة، فكلّ شيء يثير اهتمامه وهو يعيش هذه الحياة الرتيبة في مدينة أوكسفورد، وما يسمعه الآن من شفتي الروسي سيكون له بمثابة مادة حديث دسمة لـ«طاولات عالية» عديدة، وسيتمكّن من التباهي بتأقلمه بشكل مدهش مع حياةِ الراقصين وعاداتهم في الاتحاد السوفياتي، الأمر الذي سيُذهِل رفاقه على الطاولة. وهكذا ينهي الـ«ماتاريفيه» مهمّته، مانحاً دائماً موافقته للفارّ لأنه بعد كل هذه الأسئلة يصبح الفار بمثابة صديق، أو على الأقل بمثابة معرفة، كمعرفته بسائر الأسياد الكثر المتعجرفين والعبوسين الذين يراهم منذ عقود في المدينة حيث يدرّس ولم يتمكّن يوماً من معرفة شيء عنهم. ويستدير الـ«ديستريبادور»، بعد ساعات طوال، نحو المحقّق ويهزّ له رأسه إيجاباً. «اجلب لي قنينة فودكا»، يأمر الشرطيَّ الذي رافقهم في الظلّ، ملتصقاً بالحائط وصامتاً خلال كل التحقيق. «قد يودّ هذا الرجل أن يشرب نخب حياته الجديدة.

«Za zdorovie!»

من المحتمل أن يكون «ديوار» المسكين، كما كان يشير «رايلندز»، قد رأى نفسه مهمّاً وجريئاً في تلك المناسبات؛ من المحتمل

ايضاً، إذا أخذنا في عين الاعتبار ساعاته البوشكينية تلك، أنّه كان يشتاق إلى تلك المناسبات حيث يتمكّن من ممارسة معرفته الخارقة في الروسية؛ وفي النهاية، قد يستفيد من هذا الظرف لكي يحظى ببضع ساعات ممتعة في حوار مع شخص لا يستطيع أن يتملّص منه ولا أن يفعل أي شيء آخر سوى الإجابة عن أسئلته، مع شخص يستطيع أن يسأله بصراحة حول عادات مسقط رأسه ومناظره الطبيعية، وعائلته وأصدقائه، وطفولته، وآرائه السياسية ومعتقداته الدينية، وحياته العاطفية وأفضلياته الجنسيّة، وحياته المهنيّة والسخرة التي كانت مهنته تفرضها عليه، أو قطار أنفاق موسكو، وفنّ الطبخ الروسي، وأسعار السوق، والحالة الراهنة للأدب السوفياتي (معظم الأحيان ما من جواب في هذا الشأن، الأمر الذي كان يغضبه ويهينه – فلاعبو الشطرنج، والراقصون، ولاعبو الجمباز، كانوا كلّهم غير مطّلعين خير اطلاع على هذه الأمور: «عليك أن تجيب عن كل أسئلتي! هل تسمعني؟ عليك أن تجيب عنها كلّها من دون استثناء!»).

ذلك الرجل القاتم والنافر العظام والمحب للشكليات، ذلك الرجل ذو الفم الكبير جداً والمستطيل الجمجمة والعالي الوجنتين كأنّه ينتمي إلى لوحةٍ للرسّام «اوتّو ديكس» Otto Dix (وفي ملامحه نرى تلك الشراسة الطفولية، أي تلك التي تُخيف الأطفال فقط ومَن شابههم، وكان طلاّبه يتناقلون، من صف إلى آخر، ألقابه الدموية الثلاثة(٥))، كان ولا شك يتذوّق جداً اللغة الروسية كما كان يتذوّق

(٥)– أي «الديستريبادور، الانكيسيدور، الماتاريفية» (ص.ز.).

الكلمات الإسبانية ذات المقاطع اللفظية الأربعة أو أكثر («En-a-je-na-miento، Tra-ga-sa-bles، Sin-gla-du-ra، Va-sa-lla-je»). لم نعرف له حياةً أخرى سوى تلك الجامعيّة. كان أحد العازبين الكثر في مدينة أوكسفورد، وواحداً من لائحة أولئك الذين يحافظون على استمراريّة التقليد الإكليريكي في ذلك المكان الذي لا يتغيّر وغير المضياف والمحفوظ في العنبر، كما سبق أن قلتُ ما قاله قبلي أحد الأساتذة ممن سبقني هنا. (كان مثلي أنا، المضطربُ الآخر.) كان روحاً ميتةً. ويعيش، مع ذلك، حياةً أخرى ضئيلة وبالية، واليوم - ونادراً ما كان هذا يحدث - الذي كان يُدعى فيه إلى لندن من أجل حالة طارئة ومستعجلة لأن رياضيّاً في السباحة أو في القفز على العصا أو عازفاً على التشيلو أو راقصاً ما (والأخيرون هم ولا شك أحبُّهم إلى قلبه) كان قد طلب اللجوء السياسي تاركاً فرقته الموسيقية أو فريقه الفني أو الرياضي، ففي ذلك اليوم، عند خروجه مهرولاً من غرفته في «برايزنوز كولدج» التي كان يسيطر عليها الضجيج الأبيض (عند خروجه بقفزةٍ من روحه الميتة)، وعند مروره في القطار بـ«ديدكوت» و«ريدنغ» و«سلو» و«ساوتهول»، وعند وصوله إلى محطة «بادينغتون»، وعند انتقاله الفوري إلى قطار أنفاقٍ مزدحم ليوصله إلى وسط المدينة، كان يشعر من دون شك أنه الرجل الأهم والأكثر غموضاً ومعرفةً في تلك الجامعة: فيشعر بأنّه أهمّ من نائب رئيس الجامعة وحتى من الرئيس، وأكثر من نائب المستشار وأيضاً أكثر غموضاً ومعرفةً من المستشار نفسه. لذلك، عندما كنت أراه يقرأ من خلف نظاراته السميكة، جريدةً في الـSenior Common

Room أو غرفة الأساتذة، أو في مكتبة الـ«تايلوريانا»، أو في صالون الشاي في فندق «راندولف» قبالتنا، كنت أتصوّر أنّه ربّما يتفحّص بشراهة وبتوتّرٍ صفحات الحفلات الاستعراضية والرياضية ليرى ما إذا كان ثمة فرقة باليه أو فرقة موسيقية حكومية أو فريق رياضيين أو لاعبي شطرنج سوفياتيين قادمين للتمثيل أو للمبارزة في بريطانيا العظمى، وفي حال رأى هذه الاعلانات أو رأى مقالة عن تلك النشاطات، لا بدّ أنه كان يتضرّع إلى «هرمس»، إله المسافرين والميادين الرياضية، إله اللصوص والبلاغة، إله القلق والأحلام، من أجل أن يُسَلِّح أحد أولئك السوفياتيين بالشجاعة الكافية أثناء الليل وأن يقنعه بالإفلات من الحراسة التي حوله، فَيَهمّ بالفرار.

لا بدّ أن «ديوار» قد يستصعب الآن حياته بعد أن تحوّلت إلى أيام رتيبة بحيث لا يحدث أي شيء ولا يتلقّى أي اتصال من لندن. ولذلك يزداد تجاهله للهاتف ولا يتردّد في تجنّب كل الاصوات الأخرى أو إلغائها، باستمرار، بواسطة ضجيجه الأبيض. أنا لم اعد شخصاً منعزلاً مثله، ولا حياً ميتاً، إلّا أنّي اعتقدتُ أنني كنته، خلال فترةٍ من الزمن.

مرّة واحدة فحسب رأيتُ الطفل أو الابن «إريك»، وكان ذلك في الأيام الأخيرة لإقامته غير المتوقّعة في مدينة أوكسفورد وفي الفترة التي ازداد عدم توازني الذهنيّ أكثر من أي وقت مضى (أن يوشك حرمان ما نعيشه على الانتهاء لا يعوّض عن الوجود المستمر لهذا الحرمان، بخاصة إذا كان يدوم منذ بعض الوقت، وأنّ لا أهميّة للّطول الحقيقي لهذا الوقت. ولا يعوّض عن شعورنا بأنها مدّة مستديمة وربّما لانهائية: أعني أنّه لا يعوّض بشكل كافٍ لنشعر بنهاية هذا الحرمان الذي على وشك الانتهاء والذي لم ينتهِ بعد. فما يتغلّب هو الخوف من إمكانية إستمرار هذا الحاضر الذي كابدناه، بسبب مشيئة القدر أو سوء الحظ. وتلك المرّة التي رأيتُ فيها الطفل «إريك»، رأيتُ ايضاً – كذلك مرّة واحدة فحسب – جدَّه، أي والد «كلير بايز»، الديبلوماسي العجوز المتقاعد والمقيم في لندن والذي كان، قبل ثلاثين سنة، ينظر من طرف حديقته إلى ابنته، الطفلة «كلير» بينما كانت هي تنتظر القطارات التي تعبر الجسر الحديد فوق نهر «خومنا» لتتفرّج عليها. (وفي ذلك الحين كانت رائحة التبغ والمشروب بنكهة النعناع تفوح من الوالد الصامت.)

رأيته تلك المرّة في المتحف، أي في «أشمولين» Ashmolean، وهو متحف المدينة الرئيسي للفن وعلم الآثار، ذلك المبنى الذي أُقيم فيه المعرض الشعبي الأول للنوادر في المملكة، في أواخر القرن السابع

عشر (أو بالأحرى كان المتحف بذاته، كون المبنى الحالي لم يستقبل تلك النوادر والتحف سوى بعد قرنين). لم أكن أزور المتحف عادة (فمرّة واحدة كافية لرؤية هذا النوع من النوادر)، لكن صادف في ذلك اليوم من الأسبوع الخامس من عزلتي الثانية خلال فصل «ترينيتي» أن خطوتُ ما يقارب العشرين خطوة بعيداً عن الـ«تايلوريانا» (المؤسسة والمتحف متلاصقان ويشكّلان زاوية مستقيمة ونخالهما جزءاً لا ينفصل عن مبنى واحد) لألقي نظرة، في المكتبة الأشمولينية، على رسومات المدن الإسبانية غير المعروضة على الجمهور ولأرى ماذا رسم في منتصف القرن السادس عشر الفلاماني «أنطون فان دن فينغيردي» Von Den Wyngaerde أو «أنطونيو دي لاس فينياس» Antonio de las Vinas، التوبوغرافي والرسام في بلاط «فيليب الثاني»، بناءً على طلب أحد أشقّائي، وهو مؤرّخ في الهندسة المعمارية في مدريد (أعني بناءً على طلبه، خطوتُ أنا عشرين خطوة وذهبتُ لأرى تلك اللوحات؛ أما «فان دن فينغيرديه» فأنجز رسوماته بناء على طلب من كان سيُعرف في ما بعد في أوكسفورد تحت إسم Demonio del mediodía[٦]) سمح لي المسؤول في المكتبة، وهو رجل لطيف وأحمر الشعر، بالتأمّل وبالقياس، وبتسجيل معلومات حول المناظر المدينية (بالريشة، وبحبر السيبيا، وبالألوان المائية)، وبقي لديّ انطباع غريب بأنّني رأيتُ، وبدّقة خارقة، ما كانت تبدو عليه في العصر الذهبي مدن «سانلوكار دي برّاميدا» Sanlucar de Barrameda،

٦- شيطان منتصف النهار

«مـالاغـا» Málaga، «تـاراغـونـا» Tarragona، «جـبـل طـارق» Gibraltar، «سيغوفيا» Segovia أو «الألبوفيرا» Albufera و«الغراو دي فالنسيا» Grao de Valencia، أي المظهر الضائع لمدننا الجنوبية، مدننا شبه المنسّية والتي أستطيع في اية حال العودة اليها قريباً جداً لو رغبتُ في ذلك: ما إن ينتهي فصل «ترينيتي» ومع «ترينيتي» فصل التعليم، وكان لا يزال أمامي سوى ثلاثة أسابيع طوال؛ فعندما كنت خارجاً من المتحف، يرافقني ذلك الشعور الغريب والإدراك المفاجئ بأنّه لم يعد أمامي وقت كثير – موضوعياً – لأغادر أوكسفورد ولأعود إلى مدريد (حتى لو أنّي لم أكن قد عدت نهائياً بعد)، عندما التقيتُ على العتبة الأشخاص الثلاثة وهم يدخلون: الأب، الابنة، والحفيد، أو بالأحرى عشيقتي مع ابنها ووالدها. ولأنّ شيئاً شبيهاً حصل معي مرّتين، سابقاً، مع امرأة أخرى في أوكسفورد – والمرة الثانية حصلت مؤخراً، لكنّني لست أكيداً –، لم أنتبه إلى انّها «كلير بايز»، سوى عندما أصبحتُ أنا خارج المتحف وكانوا قد أصبحوا داخله، ويفصل بيننا بابٌ. حصل هذا في سرعة كبيرة (أعني أن استدراكي لوجودها هو الذي منعني ربّما من أن ألاحظ جيداً مَن كان يرافق «كلير بايز»، إذ بالنسبة لي، مَن يرافقها عادةً هو زوجها فحسب؛ أو كان الباب الرحوي السبب؛ أو أيضاً الذكرى التي كانت لا تزال نابضة، ذكرى «سانلوكار» بريشة «فان دن فينغيرديه»)، الأمر الذي أعطاني المجال للدخول مرّة اخرى وعلى الفور لأراهم في القاعة، حيث كانوا يلقون نظرة على البطاقات البريدية والصور التي تباع هناك.

لم يكن من المفتَرض أنِ اعرف أن السيد العجوز الذي يمسكها بذراعها كان والدها، السيد الديبلوماسي «نيوتن» Newton («كلير نيوتن» – «كلير نيوتن»! –، هكذا كانت تُدعى «كلير بايز» قبل أن تتزوّج)، كوني لم أرَه اطلاقاً قبل ذلك، ولا حتى في الصوَر. لكنّني ادركتُ على الفور أنه هو. كما عرفت أنّه والدها بسبب الشبه المدهش بينهما. (ربما الشبه المرعب) ذلك الرجل ذو البشَرة الذابلة جداً والجيوب الكبيرة تحت العينين، الأصلع كلياً والمحدودب الظهر بعض الشيء ذو المظهر غير المتأنّق حقاً، المتّكيء على عصاه. كان وجهه وجهها بالذات، طبق الأصل، ذلك الوجه الذي كنت أعرفه تمام المعرفة. ذلك العجوز ذو الوجه الشاحب كان «كلير بايز»، وكأنّني في حلم مزعجٍ حيث تكون هي قد ظهرت على شكل رجل منهوك وفانٍ دون أن تكفّ عن أن تكون هي ذاتها. راقبتهم عن بعدٍ، بعد أن اختبأتُ نصف اختباءة وراء عمودٍ – هذان الاثنان، كان وجهاهما في اتجاهي، أما الصبي فكنت لا أزال أراه من الخلف – وفي حال لم تكن قد رأتني عندما تقاطعنا على العتبة، فالآن فعلت دون شكّ – فرأسي وصدري كانا بائنين من وراء ذلك العمود حيث لم أكن أنوي أن أختبئ حقاً، ربّما أردتُ الاحتماء به فحسب – وبيدها اليمنى قامت بحركة تشير لي بأن أبتعد، وأرحل، أو أختفي، في اللحظة التي كان مرافقاها لا ينظران في الاتجاه حيث كانت هي تنظر، أي اتجاهي (كانا ينظران إلى الصور). لكن في تلك اللحظة، وكأنّ في عنقه عيوناً أو كأنّه يعلم أنّ عليه أن ينظر في تلك البرهة بالذات، – أو لأنّه قد يكون سمع رنين الأساور العديدة عندما قامت

يدها بتلك الحركة الخاطفة والسرية، حركة الحظر والإبعاد – استدار الطفل أو الإبن «إريك» نصف استدارة وفي هنيهةٍ رآني ونظر اليّ، ولا بد أنّه ربط بيني وبين والدته. وعندما التفت هذا الطفل، مهملاً بذلك الصور والبطاقات البريدية وشارداً عمّا يقوله له جدّه (حدث هذا في لحظة وجيزة)، أي عند التقاء نظراتنا، استطعتُ أن أرى وجهه أخيراً؛ إنّما ما رأيتُه هو الوجه ذاته للمرّة الثالثة، وجه «كلير بايز» طبق الأصل الذي كنت أعرفه تماماً وقد قبّلتُه وقبّلني كثيراً. قد قبّلني، فكّرتُ، ذلك الوجه الذي كان أيضاً قبل زمن طويل وجهَ الديبلوماسي «نيوتن»، ثم، أي منذ وقت قصير، كان كذلك وجه الطفل «إريك»، «إريك بايز» كما يُدعى. الوجه ذاته والوحيد الذي كان قد قبّلني في أحد تقمّصاته أو تجسيداته أو تمثّلاته أو تجلّياته، إذ لم أرَ يوماً شَبَهاً بهذا الكمال وبهذه الدقة، لا بهذه الحصرية. راح أولئك الأشخاص الثلاثة يتناقلون ويتوارثون ملامحهم حصرياً في ما بينهم، نافين كل الباقين المعقولين (ملامح أمٍّ وأبٍ، ملامح «كلير نيوتن» الأولى وملامح «إدوارد بايز»)، وسلّموها بعضهم لبعض كاملةً، دون أي بخلٍ أو شحٍّ، أعني دون أن يوفّروا تفصيلاً واحداً؛ وخلافاً لِما يحصل عادةً في الشبه غير المتوقَّع والنابع من سلطان النزوة، أي الشبه الذي عادة يشمل تقطيعاً أو أكثر وليس جميع التقاطيع في آن واحد، أو في الشبه الذي ينتج من تلك الملامح الموروثة التي تأخذ بالتبدّل (مع مرور الوقت وتسلّط العمر)، خلافاً لذلك ،كانت الوراثة هنا مكتملة وثابتة، وكانت موجودة في الحالات الثلاث: العيون القاتمة الزرقة نفسها، الرموش الكثيفة والمرفوعة نفسها، الأنف المستقيم

والقصير نفسه، الذقن المشقوقة والثابتة عينها، الوجنتان الشاحبتان والجبين الصارم، الجفون الثقيلة والشفتان الكبيرتان والرخوتان. لم أستطع أن أرى أكثر من ذلك حينها، لأنّ الطفل «إريك» عاد وأدار لي ظهره، وبعد أن استحصل السيد الديبلوماسي «نيوتن» على نسخة مصغّرة أو مكبّرة للوحة (أو لغرض) لم أستطع أن أميّزها، أخذ الثلاثة يمشون نحو الصالات الداخلية، وهذه المرّة دون أن تنظر «كلير بايز» إليّ مجدداً، بل - خلافاً لذلك - حاولت أن تتجاهلني (قد تكون فهمت أنّني لم أكن أنوي الخضوع ولا أن أولي ما فرضته يداها خلسةً أية أهمية). وأنتظرتُ بضع ثوانٍ؛ ورحت أمشي وراءهم، مستعداً لأن أزور الصالات التي يزورونها. «اذاً يأتوا بالطفل «إريك» ليرى المتحف»، كنت أفكر لا إرادياً (كنت أريد التفكير في الشبه؛ أو ربّما أردتُ عكس ذلك: فلأنّني كنت أفضّل ألّا أفكّر في الشبه أجبرتُ نفسي على هذا التفكير). «لطالما أخبرتني «كلير بايز» عمّا له من العمر، ثمانية، تسعة؟ بحسب قامته، يبدو أنه ابن تسع سنوات تقريباً، إنّما قد يكون طويلاً فيبدو أكبر من سنّه، فأبواه طويلا القامة وجدّه كذلك، وقد يكون له من العمر ثماني سنين فقط، أو سبعٌ، أو أقلّ. هذا ليس عمراً مناسباً للذهاب إلى المتاحف، فأنا لا آتي مثلاً بابني، إذا كان في السابعة من العمر، إلى متحف «أشمولين»، مهما كان ضجراً ومُتَعباً بسبب مرضه ومكوثه الطويل في البيت». هكذا كنت أفكّر: «يبدو أنه شفِيَ. قد يغادر قريباً؛ لكنّني أيضاً سأغادر قريباً، والآن لستُ أكيداً أنّي أرغب في الذهاب».

كانت القامات الثلاث تقف أمام منحوتة إغريقية، أمام رسم

لـ«رينولدز» Reynolds، وأمام قطعة صينية من السيراميك أو أمام قطع نقدية رومانية. كانوا يتفرّجون على كل شيء. أنا كنت أقترب أو أبتعد أكثر، بحسب وسع الصالات، وبحسب طاقتي على التصنع في التركيز على كل تحفةٍ كنت أتوقّف عندها، دائماً على بُعد أمتارٍ منهم، أمتار الاحترام؛ ولذلك - ولأنهم كانوا يتكلّمون بصوت منخفض جداً، كما هي العادة في المتاحف الإنكليزية ولم تكن يوماً هذه عادة المتاحف الإسبانية - لم أكن قادراً على سماع أي شيء مما يقولونه في ما بينهم. ولأنّني كنت دائماً وراءهم، متابعاً سيرهم بدقة، كنت أراهم من الخلف عندما يتنقّلون، وبعض الشيء من الجانب - بالأحرى ربع الجانب - وعندما يتأمّلون شيئاً. لم أستطع أن أراهم جيداً، وأعتقد أن هذا ما كنت افضّله لعدم رغبتي في مواجهة الوجوه المتشابهة مرّة أخرى. كانت أم الطفل «إريك» تمسكه بيده، وكان الوالد يتقدم مع عصاه، لكن بشيء من البطء، وكأن «كلير بايز» لم تكن حقاً مستعدة لانتظاره، ولا لضبط خطواتها وخطوات ابنها على إيقاع خطوات السيد الديبلوماسي «نيوتن» الأكثر بطئاً وتعثراً (كأن قرار زيارة المتحف قرارها هي وقرار الطفل، أمّا الجدّ، الذي قد يكون تشبّث في مرافقتهما من دون أن يتلقّى الدعوة، فكأنّه فقط ملحقٌ لهما، وربّما دخيل: فيمشي معزولاً، كما تمشي المربيات في حضور الأمّهات عندما يكنّ أولئك يهتممن بأطفالهنّ، هذا عندما كان ثمة مربّيات. كذلك لم يكن الجدّ هو الذي يدير هذه الزيارة؛ فـ«كلير بايز» كانت تتكلّم أكثر منه، متوجهة دائماً إلى الطفل، أما أنا فكانت تَبلُغني، من وقت إلى آخر، أجزاء من تعليقاتها.

أمام جوهرة «ألفريدو» (وهي قطعة من المينا تفصل بين ألوان نقشها شرائط معدنية من القرن التاسع، وهي مفخرة أشمولين) سمعتُ، لأنّها كانت تقرأ له بصوت عالٍ (كأي أبٍ، كأي أمٍ) ما دُوِّن بالإنكليزية القديمة وبأحرف من الذهب المبلّل الذي يحيط بالبورتريه المفترض لـ«ألفريدو الغرانديه» Alfredo El Grande: «انظر، إريك، هنا كتبوا «Aelfred mec heht gewyrcan»، وتعني «أمَرَ ألفريد بأن يصنعوني». هل رأيتَ؟ الجوهرة هي التي تقول ذلك؛ الجوهرة تتكلّم وتكشف عن جذورها ولا تزال تقول الشيء عينه منذ أحد عشر قرناً، وستقوله في أي حال دائماً، إلى الأبد». ولم يجب الطفل «إريك» بشيء.

في ما بعد، في الطابق العلوي، وأمام لوحة مختصرة أو غير منجزة لـ«رمبراندت» Rembrandt حيث تظهر زوجة الفنان، «ساسكيا»، وهي نائمة في السرير (لكنّها ليست كما يقال في الفراش، إنّما تبدو في ثيابها أو في ثوب المنزل ومغطاة ببطانية، كما يبدو عادةً أولئك المتماثلون للشفاء)، سمعتُ «كلير بايز» تقول لطفلها: «هكذا كنتَ أنتَ إلى حدٍّ ما طوال كل هذه الأسابيع، آه؟ إنّما مع التلفزيون»، ولامستْ عنقه جاعلة أساورها تخشخش مرّة أخرى. ثم أضافت على الفور، وهي لا تزال تنظر إلى «ساسكيا»، وكانت من دون شك تجهل أن «ساسكيا» ماتت عندما كانت أصغر منها هي ولم يتسنَّ لها بالتالي أن تصبح عجوزاً (مازجةً بذلك، المرض المحتمل والتقدم في السنّ): «هكذا سأكون أنا عندما أصبح عجوزاً». لم يجب الطفل «إريك» شيئاً أو ربّما لم أتمكّن من سماعه (كان يبدو لي الطفل

«إريك» مهذّباً وبارداً، فإذا تكلّم لا نسمعه).

ثم بعدئذٍ، أمام منحوتة كانتونية مصنوعة من الخشب المذهّب (في الحقيقة كانت نسخة من القرن الماضي) تُمثِّل «ماركو بولو» وكأنه صينيّ سمين ذو عينين فاتحتي اللون، يعتمر قبّعة سوداء غريبة، ضيّقة عند الجوانب ومنخفضة عند الوسط، وينتعل قبقاباً من اللون عينه، ويزيّن وجهه شاربان أسودان طويلان وعاليان (معقوفان في اتجاه الوجنتين)، سمعتُ «كلير بايز» تقول: «انظرْ «إريك»، هذا هو «ماركو بولو». كان رحّالة إيطالياً، ووصل إلى الصين في القرن الثالث عشر، عندما كان الوصول صعباً جداً؛ وبما أنّ العودة كانت أصعب، بقي هناك وقتاً طويلاً إلى أن أضحت ملامح وجهه صينية، أرأيت؟ لكنّه كان إيطالياً، من البندقية. انظُرْ إلى عينيه كم هما زرقاوان. ما من صيني أصيل يكون أزرق العينين». وظلّ الطفل «إريك» صامتاً، أو أنّي لم اتمكّن من سماعه، وكنت قلّما أسمع «كلير بايز»: لا شك أنّها غاضبة من عصياني ومن ترصّدي، تجهد في خفض صوتها قدر المستطاع فارضةً بذلك الشيء عينه على الطفل، وكأنّها لم تكن تريد – بالتناغم مع القرار الذي كانت اتخذته خلال الأسابيع الأربعة الأخيرة – أن أشاركها عالمها العائلي حتى عبر الأذن، وبخاصّة عالم ابنها ووالدها – عالَم روابط الدم –، ولا قول عالمها الزوجي لأنّه سبق لي أن تعرّفتُ إلى زوجها وفي إحدى المناسبات، كما اسلفتُ، كنّا قد تناولنا الغداء أو العشاء نحن الثلاثة معاً برفقة «كرومر–بلايك». لم تكن تريدني أن أشارك؛ لذا فكّرتُ أنّه عندما كنتُ أستطيع أن أسمعها فلأنّها كانت تريدني أن أسمع، وأن الجمل

التي كانت تبلغني لم تكن عرضية، وأنّ «كلير بايز» كانت ترفع صوتها عنوةً لكي تُفهمني شيئاً ما (عندما كانت ترفع صوتها فحسب). وفكّرتُ: «كانت تتكلّم عنّي عندما قالت ما قالته عن «ماركو بولو»، كانت توجّه شَرْحُها إليّ، إذ لا نتكلم بهذه الطريقة إلى ابن سبع سنوات أو ثمانٍ، ففي هذا العمر يكون الطفل قد أصبح مشروع إنسان راشد؛ إلاّ إذا كان الطفل «إريك» يعاني من اعاقة ما وعلينا بالتالي أن نعامله كما لو كان أصغر سناً – أو ربّما هي التي جعلته أكثر طفولة مما هو خلال هذه الأسابيع الأخيرة –، علماً بأنّه قد يكون، من ناحية أخرى، فعلاً أصغر سناً ممّا ظننتُه أنا؛ فلاحظتُ بالمناسبة أنّي لا اعرف كيف أقيّم أعمار الاطفال ولا حتى أعمار الناس بعامة، كما أنّني ايضاً لاحظتُ، هذا إذا استثنيتُ أولئك اللواتي أعرفهنّ، أمثال «كلير بايز» بالذات، إنّ رغبتي في النساء ازدادت في حين قلّ استعدادي لمعرفتهن عن كثب، فأرغب فيهنّ دون أن أتساءل عنهنّ، تماماً كما لم أتساءل عن «موربيل» عندما رغبتُ فيها، ولا أتساءل عن مضيفات «براونز» الجذابات عندما أرغب فيهنّ، ولستُ أعرف إن كان هذا يعني شيئاً – إنها مسألة جديدة –، علاوة على عدم اتزاني. عن «كلير بايز»، بلى أتساءل، فكلّما قلّ لقائي بها كلّما زاد تساؤلي عنها وبالتالي زادت محاولتي أن أحزرها، وإلاّ لَما كنتُ هنا الآن أزور الـ«أشمولين»، ناسياً «فان دن فينغيرديه»، وكان هو سبب مجيئي إلى المتحف (أحتفظُ بالمعلومات المتعلقة به في جيبي)؛ رفعت صوتها عندما أخذت تتكلّم عن المنحوتة لكي أفهم أن كل مَن يمضي وقتاً طويلاً في المكان الذي لم يأتِ منه أصلاً، ينتهي به الامر إلى

عدم انتمائه إلى أي مكان على الإطلاق، ينتهي به المطاف صينيَ الوجه وأزرقَ العينين، على غرار «ماركو بولو» في هذا التمثال. لكن لم أمكث بعد وقتاً طويلاً هنا، أنا لستُ منفياً ولا مهاجراً، وإضافة إلى ذلك، أغادر قريباً، ومن الجائز جداً أن أذهب هذا الصيف إلى «سانلوكار دي بارّاميدا»، فأحببتُ كثيراً هذا المنظر مع الوادي، والصرح، وكنيسة «مايور»، وقصر الدوق، والجمرك، هذا المنظر الذي عمره أربعة قرون ولم يعد موجوداً ولم يكن يوماً، إذ وجهة النظر المتبنّاة في اللوحة خيالية، كما هي وجهة نظري حول مدينة أوكسفورد». وأضفتُ إلى تفكيري: «هي كذلك تعرف هذا، تعرف أنّني أغادر قريباً جداً، قد تكون قامت بالحسابات، فبعد ثلاثة أسابيع تقريباً ينتهي فصل «ترينيتي»؛ لكن على الرّغم من ذلك ما زالت تقول لي - انّما لا باليد ولا بالإيماءة، ولا بطريقة عرضية كما فعلتْ في صالة المدخل، بل بكلمات سريعة - أن أبتعد، أن أخرج، أن أختفيَ فحسب، حالاً، من أوكسفورد ومن حياتها، حياتها حيث لم أكن موجوداً كثيراً. يمكنني أن أذهب، وصفوفي تكاد أن تنتهي، وربّما حان الوقت، قبل أوانه؛ عليّ أن أتكلّم معها، إنّما ليس عبر الهاتف ولا بطريقة خاطفة كما كنّا دائماً نفعل منذ اللحظة الأولى، وكأننا على وشك الانفصال؛ عليّ أن أراها، يجب أن نجد وقتاً لذلك، أن نلتقي من دون استعجال، من دون دق الأجراس؛ ما من شيء سيمنعني من ذلك، ولو مرّة على الاقل».

لم يبقَ تقريباً أحدٌ في المتحف، وكان ثمة زائرٌ متلهّفٌ وتائه يطلّ على صالةٍ ليخرج منها على الفور دون أن ينظر إلى شيء، والحرّاس

النعسون جالسون على كراسيهم كما يجلس الجيران الأندلسيون في حدائقهم وهم مستغرقون في تأمّلهم، بعد القيلولة، الحراس فقط والعائلة التي تجمع ثلاثة أجيال بالإضافة إلى شخص واحد هو الاجنبي الذي لم يعد ربّما يبدو هكذا بعد إقامةٍ غير طويلة في أوكسفورد – أو كان ربّما يمشي كرجلٍ إنكليزي لكنّه ينظر بعينين جنوبيتين – كان هذا الاجنبي وراءهم، على بعد أمتار، ينظر بشكل آلي إلى ما رأوه وربما نسوه على الفور. هذا الأجنبي الذي أصبح واحداً من أسياد أوكسفورد (إنّما ليس تماماً) تعقّبهم أيضاً خارج المتحف، ومشى خلفهم خلسةً عبر الشوارع الرمادية والمحمّرة، ودخل المطعم عينه حيث دخلوا هم – كان الوقت مبكّراً، إلاّ أنّ الأطفال يجوعون في أي وقت، ويتناولون الغداء باكراً –، وجلس وحيداً إلى الطاولة المقابلة، مواجهاً الوالد والابنة والحفيد، متمنّياً ألاّ يجلس أحد إلى الطاولة الفارغة التي بينه وبينهم فيمنعه من رؤية الوجوه المتشابهة – وقد أعتاد الآن رؤيتهم ومراقبتهم.

جلس الطفل «إريك» مديراً ظهره له، أي قبالة والدته وكان الجدّ إلى يسار هذه الأخيرة، وعلى الأرجح قد توزّعوا هكذا لأنّ «كلير بايز» كانت لا تزال تنوي التوجّه بشكل أساسي إلى ابنها (أما الدبلوماسي «نيوتن» فلم تكن تعيره أية اهمية، لم تكن تحترمه، أو يمكن القول ببساطة أنّها كانت تسيء معاملته – بعدم التوجّه إليه–). الآن أصبحتُ أسمع حديثها بشكل افضل، على الرغم من أنّ ما يقولونه لم يكن حديثاً كاملاً، إنّما تعليقات متفرّقة ومتقطّعة تبادلوها بينما كانوا منشغلين في النظر إلى قائمة الطعام ومن ثَمّ، بينما كانوا

يأكلون. «سوف اطلب مقانق»، وللمرّة الاولى سمعتُ صوت الطفل. «لا أنصحك بأكل المقانق هنا، إريك»، قالت له «كلير بايز»، «فليست أفضل من التي في البيت، في حين أنّ لديهم فعلاً أشياء أخرى أفضل مما لدينا. لماذا لا تطلب هليوناً أولاً؟ لقد احببتَه مرّة في بيت العمّة. نكاد لا نأكله إطلاقاً في البيت، كذلك في بريستول لا أعتقد أنك تأكل منه كثيراً». «لا أرغب في أكل الهليون الآن. هل أستطيع أن آكله بأصابعي؟» رأيتُ كيف كانت «كلير بايز» تنظر إليه بشيء من التأنيب غير الجدّي وسمعتُ كيف قالت له بتردّدٍ مفتعلٍ: «أجل، أعتقد أنك تستطيع». «بل أنا سأطلب الهليون المخلوط مع البيض»، قال الديبلوماسي «السيد نيوتن»، «ألا تحبّهم أكثر هكذا، «إريك»؟ ويحتوي أيضاً على سمك السلمون؛ هل تحّب السلمون؟» «لا أعرف»، قال الطفل «إريك»، وعاد فاطّلع على قائمة الطعام. طلب الديبلوماسي المتقاعد نبيذاً أبيض، وطلبت «كلير بايز» ماءً. في ما بعد، وكانوا قد بدأوا طبقهم الأول وأنا كنت لا أزال أنتظر طبقي (خليط السلمون والهليون)، سألتْ «كلير بايز» ابنها: «ما هو الشيء الذي نال إعجابك أكثر من غيره في المتحف، «إريك»؟ ما هو الشيء الذي قد تأخذه إلى البيت لو استطعتَ؟» «قطع النقود»، قال الطفل «إريك»، «والتماثيل الصينية الملوّنة. ففي المدرسة صبيّ يهوى جمع النقود، لكن التماثيل لا يمكننا جمعها، أليس كذلك؟» «إنّها أشياء مكلفة جداً، قال الديبلوماسي «نيوتن» وهو يضحك ضحكة الشيوخ التعبة كاشفاً عن أسنانٍ وكأنها أسنان «كلير بايز» بالذات (لكنّها أقلّ بريقاً وربّما هي مُكَبْسَلَةٌ كأسنان السيدة ألاباستر أو

اصطناعية كأسنان «توبي رايلندز»، كما أنّها أصبحت نادرة أكثر فأكثر. «إذاً أنا أيضاً سوف أجمع القطع النقدية؛ لماذا لا تعطيانني واحدة لأبدأ الآن مجموعتي؟» قال الطفل «إريك»؛ فأخرج كل من «كلير بايز» ووالدها قطعة نقدية، كلٌّ على حدة، هو من جيب سترته وهي من حقيبتها بعد أن بحثت فيها، وكانت قد رمتها عشوائياً كالعادة، (وكانت أحياناً تقلبها) كما ترميها في غرفتي أو في غرف فنادق «لندن» أو «ريدنغ»، أمّا أنا فتذكّرتُ قطعة النقود التي كنتُ قد رميتها لبعض الأطفال الذين لم يكونوا «إريك» (حينها لم يكن مريضاً، كان غائباً) وكان ذلك يوم «غي فوكز» وكنت أعطي الدرس نفسه، في الخامس من تشرين الثاني من السنة الماضية، رميتها من مكتب «كلير بايز» في «أوْل سولز»، في «كاتيه ستريت»، قبالة «رادكليف كاميرا»، وكان قد مضى تسعة أشهر على تعارفنا. ومنذ ذلك اليوم حتى تاريخه مرّت سبعة أشهر، وما من شيء تغيَّر: وقد مرّ وقت طويل على معرفتي بـ«كلير بايز» ولم يتغيّر شيء على الإطلاق، أقول «وقتٌ طويلٌ»، ولو أنّي لم أعد أراها الآن، إضافة إلى أنّي قريباً سأودّعها. لَما همّني أن أعطي أنا أيضاً هذا الطفل قطعة نقدية. «لكن لا تنفقها»، نبّهه جدّه؛ «إذا كنتَ قادراً على الاحتفاظ بها وعلى جمعها بجدّية، سوف أجلب لك من لندن نقوداً إيطالية ومصرية وهندية». ثمّ أدار وجهه نحو ابنته وأضاف: «أعتقد أنّني لا أزال أحتفظ ببعض منها في البيت. كنّا نسافر كثيراً، أليس كذلك؟ الآن لم أعد أسافر». لكن «كلير بايز» لم تجبه، وظلّت تأكل هليونها المخلوط بالسلمون. وعندما كانوا على وشك الانتهاء من طبقهم الثاني وأنا

كنت قد بدأته، قالت «كلير بايز»: «والأحد، مجدّداً إلى بريستول. هل ضجرتَ كثيراً لبقائك طول هذا الوقت معي هنا؟» «لا»، أجاب الطفل (الذي لا يزال على الأرجح يجهل اللياقة)؛ ولأنه لم يُجب أكثر من ذلك وواصل أكل نقانقه، فكّرتُ أن سؤال «كلير بايز» قد يكون هذه المرّة ومجدّداً موجهاً إليّ، وأجبتُ ضمناً: «أجل، ضجرتُ كثيراً هنا كل هذا الوقت بدونها».

وخلال هذا الغداء في المطعم الذي أخذ يمتلئ، ولأنّ الطفل «إريك» كان طفلاً وقصيراً، سمحت لي قامته بأن أرى وجهَ أمّه كاملاً من فوق رأسه المرئي من الخلف – وجه «كلير بايز» قبالتي تماماً، لكنّها لم تكن تنظر إليّ اطلاقاً –، كذلك وجه الجدّ كان مرئياً كلياً، إذ كان جالساً إلى يسارها كنّا كلّنا جالسين – لكنها لم تكن تنظر إليّ إطلاقاً وكنتُ أراهم أفضل مما رأيتهم في مدخل المتحف أو في سائر الصالات، وقوفاً أو تنقّلاً. وكنتُ قد بدأتُ أعتادُ الشبه المذهل عند نهاية الغداء – الشبه المخيف بين الأب والابنة وعنق الحفيد الذي كان يغطّي عنقها – عندما وقف الطفل «إريك»، قبل ان ينهي طبق التحلية وبعد الاستئذان (كان الطفل «إريك» مهذّباً)، استدار ومرَّ بقربي متوجهاً إلى المغاسل. كانت قليلة – أربعاً أو خمساً – الخطوات التي قام بها قبل أن يتجاوزني، لكن خلال الوقت الذي استغرقَتْه تلك الأربع الخطوات أو الخمس – واحدة، اثنتان، ثلاثاً وأربعاً أو خمساً – استطعتُ أن أرى، بوضوح وعن قربٍ في آنٍ واحدٍ، الوجوه الثلاثة المتشابهة، وجه الجدّ ووجه الأم الجالسَين ووجه الابن وهو يمشي. نظر الطفل إليّ وهو يخطو هذه الخطوات، كما كان قد نظر

عندما استدار في مدخل المتحف، ولا شك أنه عاد وربطني بالشخص الذي من المفترض أن يربطني به (لكنه من غير المحتمل أن يقول شيئاً لأنه كان مهذّباً وفاتراً)؛ وبينما كانت والدته وجدّه يتابعان،كلٌّ من خلال نظرته، المسار الذي قد تتبعه نظرة ابنها وحفيده، حطَّ الاثنان عليّ عيونهما غير المحجّبة (هي للمرّة الأولى منذ أن دخلنا المطعم، وهو للمرّة الأولى في حياته)، وخلال لحظات نظر إليّ الثلاثة في آنٍ معاً ومن دون حجاب (شعرتُ بذلك لكنني لم أرَه، إذ كنت أنظر فحسب إلى الطفل «إريك» المتوجّه نحوي بخطواته الأربعة أو الخمسة). حدث ذلك خلال ثوانٍ قليلة (الوقت الذي تستغرقه هذه الخطوات عندما يقوم بها طفل، فالأطفال لا يعرفون المشي ببطء)، لكنها كانت كافية لأن أرى عندئذٍ (وليس في مدخل المتحف) في الطفل ذلك الشيء الذي لم يتجلَّ معناه سوى في تلك اللحظة: في عينَي الطفل «إريك» القاتمتَي الزرقة رأيتُ الإحساس بالإحباط الذي يشعر به كل الرجال عاجلاً أم آجلاً. «لا علاقة لذلك بالعمر، على وجه التحديد»، كان قد قال «توبي رايلندز» (وكان قد قال ذلك قبل نهاية فصل «هيلاري» وقبل أسبوع الآلام، أي قبل أن يبدأ فصل «ترينيتي» وأن يمرض الطفل «إريك» ويأتي إلى أوكسفورد ولم يكن حان بعد موعد قدومه)، «فثمة من يشعر به وهو لا يزال طفلاً، أي انَّ ثمة مَن يشعر به منذ طفولته». هكذا كان قد قال؛ هذا تحديداً. وهذا تحديداً ما رأيته أنا عندئذٍ، خلال تلك الخطوات – فهو طفل بات يشعر به –؛ لكن لم أرَ هذا الإحباط فقط في وجه الطفل، إنّما أيضاً – بفعل التطابق والتماثل والقرابة والشبه المذهل، بل المخيف

بالنسبة لي – في وجهي العجوز والمرأة التي كنت أعرفها تمام المعرفة (والذي لم أدركه فيها يوماً ولم أرَه) والتي كنت قد قبّلتُها وكانت قد قبّلتْني كثيراً. أولئك الأشخاص الثلاثة، كما سبق أن قلتُ، كانوا قد تناقلوا تعابيرهم وملامحهم دون إهمالِ أي تفصيل، كما أنّهم كانوا قد تناقلوا الإحساس بالإحباط، «الإحساس بالإحباط الذي يشعر به الرجال كلّهم عاجلاً أو آجلاً»، فكّرتُ وتذكّرتُ وعدتُ وفكّرتُ. «تقبيل الطفل وتقبيل العجوز»، فكّرتُ. «قبّلتُ الطفلَ الذي أيضاً قبّلني كذلك الأمر بالنسبة إلى العجوز، وهذه إحدى الأفكار التي تستطيع، حسب «آلان ماريوت»، ان تترابط أو ألا تترابط، لكنّها إذا ترابطت فهي توحي بالرعب وتُسبّب الذعر: فكرة الطفل والقبلة والعجوز. فمثيل العجوز المرعب هو الطفل. ومثيل الطفل المرعب هو العجوز. مثيل القبلة المرعب هو الطفل ومثيل الطفل المرعب هو القبلة، ومثيل العجوز المرعب هو القبلة، قبلتي أنا (إنها ثلاث أفكار، إضافة إلى فكرة «كلير بايز» التي تبقى في الوسط)، إنها قبلة أشخاص متداخلة إنّما ليست قبلة وجه متداخل، إذ الوجه هو نفسه على الرغم من إختلاف الأعمار واختلاف الأجناس، حيث يحلّ التجسّد، أو التمثّل، أو التصوير، أو التجلّي. قبلة الثلاثة هي قبلة مَن سبق له أن تبنّى شعور الإحباط الذي يعرفه كلٌّ من «رايلندز» الجهنّمي – awesome – و«كرومر–بلايك» المريض؛ أمّا أنا فلا أعرفه (شعور الإحباط الذي يعرفه «رايلندز» منذ اربعين سنة، و«كرومر–بلايك» منذ وقت لا أدريه، وكذلك الشحاذون، و«ساسكيا» تحت غطائها؛ أمّا أنا فلا أعرفه). إنّها قبلة مَن يسمح منذ سنوات للموت بأن

يقترب، كما قال «رايلندز»، أو قبلة مَن يعرف أنه سيأتي يوم لن يستطيع أن يحلم فيه بما هو آتٍ، كما قال أيضاً «رايلندز». من الطبيعي أن يعرف هذا، السيد الديبلوماسي العجوز «نيوتن»، كما أنّه من الطبيعي أن تعرفه «كلير بايز» التي كانت قبلاً «كلير نيوتن»، إنّما اللافت للنَّظر هو أن يعرفه الطفل «إريك» أيضاً وهو لا يزال في التاسعة أو الثامنة او السابعة من عمره، واسمه «إريك بايز». في تلك العيون القاتمة الزرقة التي لدى الثلاثة، عندما رأيتها للمرّة الأولى، رأيتُ المياه الزرقاء، مياه ذلك النهر البرّاق والصافي ليلاً، نهر «ياموناً» أو «خومنا»، والجسر الحديد الطويل ذا القضبان المائلة والمتداخلة، وقطار البريد القادم من «موراداباد» بعرباته غير الثابتة والملوّنة بألف لون، ورأيتُ الأب الديبلوماسي والصامت (والكئيب، ولم يكن عجوزاً آنذاك) الذي ينظر إلى ابنته وهي تنظر إليه وكان في الثياب الرسمية مستعداً لمأدبة العشاء، والكوب في يده، وينظر إلى إحدى المربيات تهمس في أذن الطفلة «كلير» («كلير نيوتن» اسمها) أو تغنّي إحدى الأغنيات التي لا معنى لها؛ وقد يكون انعكاس تلك المياه الزرقاء (أو السوداء، إذ كان الوقت ليلاً) هو الذي يحمل معه الشعور بالإحباط أو بالشحنة، أو بالدوخة أو السقوط أو الثقل أو الوزن، الشعور بسمنةٍ وهمية وبالإنهاك. تواجَد هذا الشعور في النظرة التي رأيتُها، في النظرة التي نظرتُ إليها أثناء دقيقة واحدة من خلال طاولة أخرى في إحدى العشاوات المرفوعة منذ تسعة أشهر زائد سبعة (علماً أن هذا الشعور لم يكن في نظرتي)، لكنّني كذلك رأيتها حينها وكذلك نظرتُ إليها أثناء الدقيقة نفسها منذ ستة عشر شهراً والتي

كانت تعكس صورة أربعة أطفال يمشون مع خادمة عجوز في شارع «خينوبا»، أو شارع «كوبارّوبياس»، أو «ميغيل أنخيل». إنني مضطرب جداً ولو أن اضطرابي لم يتخلَّ يوماً عن المرونة وعن المنطق، فاضطرابي خفيف ومنطقي ومرِنٌ، وهو موقّت، لكنّه الآن اكبر من اي وقت مضى لأنّني افكّر في كل هذا، في الطفل والعجوز والقبلة والنهر، نهر «يامونا» او «خومنا» العريض الذي يجتاز «دلهي»، وفي نهر «تشرويل» الذي يقيم في محاذاته «رايلندز» والذي يرى فيه مرور الوقت، وقته، وفي نهر «إيفنلود» ونهر «ويندراش» اللذين يتوسطهما «ويتشوود فورست» أو ما كان يوماً غابةً، وفي نهر «آيفون» الذي يدرس «إريك» على ضفافه، وفي نهر «غواد الكبير» Guadalquivir الذي يصبّ في «سانلوكار»، وفي نهر «إيزيس»، الذي قد أتقيأ فوقه وهو الأقرب. كم هو متعب أن نكون مضطربين، فيتعبنا وينهكنا أن نفكّرَ باضطرابٍ وأن نفكّر كل هذا التفكير لأجل ذلك، والجنون هو دائماً جنون التفكير الذي يصنع القوافي والذي يتردّد ويدوّن اعتباطياً، لذا عليّ أن أتوقّف عن التفكير، وعلى العكس أن اتكلّم لكي أرتاح من تفكيري الذي يجمع ويضمّ ويقيم روابط عديدة، أن أتكلّم مع «رايلندز» أو مع «كرومر-بلايك» أو مع «كافاناخ» أو مع الـ«ماتاريفيه»، أو مع «موربيل» (لكنّني لم أسألها عن رقم هاتفها). أن أتكلّم مع «كلير بايز»، وأن أقترح عليها شيئاً، أن لا نودّع بعضنا البعض، ألاّ نفترق، أن تسمح لي بأن أجعله شعوري أنا هذا الشعور بالإحباط الذي يشارك فيه الجميع أنا لا أزال أجهله، أو ربّما بعبارة أسهل، الذي لم أحْضَره».

عندما عاد الطفل «إريك» من المرحاض، سمعتُ فقط خطواته السريعة ولاحظتُ احتكاك الهواء بقربي، إذ أنّي لم أعدْ أنظر إلى احدٍ في تلك اللحظة وكنتُ أدفع الحساب، ولم يكن النادل قد نزع بعد عن الطاولة طبق النقانق الذي لم أنهه: كنتُ قد أقلعتُ عن التحلية وكنتُ أعلم أن نهر «إيزيس» لم يكن بعيداً، في حال لم يكن لديّ الوقت الكافي لكي أصل إلى البيت وإلى سلّة المهملات.

في اليوم التالي، قرّرتُ أن أناقش أولاً مع «كرومر–بلايك»، وهو أفضل أصدقائي أو لنقُل صديقي الوحيد، ما كنتُ أنوي اقتراحه على «كلير بايز»، فمع الأصدقاء نختبر قوة فصاحتنا، وكتجربة أوّلية قبل أن نقوم بالتجربة الحقيقية؛ هم اللذين نبلغهم مسبقاً عن المشاريع التي لا نكون واثقين منها (وذلك كي يخفّفوا من وقع الصدمة في حال فشلنا)، وهم اللذين نتوقّع منهم التشجيع الذي نتمنّى أن نسمعه في ما بعد، والذي قد لا نسمعه عندما نصبح أمام التجربة الجديّة.

ذهبتُ لأراه من دون أن أعلمه بزيارتي؛ عند خروجي من صفّي الصباحي مررتُ بالكولدج حيث يعلّم، كما فعلتُ مراراً، على اعتقادٍ منّي أنّه في غرفته، أو في أسوأ الاحوال، أنّه منشغل بإعطاء أحد الطلاب درساً، ويمكنني عندئذٍ أن أنتظره وراء الباب، إلى أن ينتهي. وبينما كنت صاعداً إلى طابقه، وأنا لا أزال على الدرج – في الطابق الثالث – سمعتُ صوته، وأعتقدتُ أنه قد يكون فعلاً يعطي درساً طالباً جالساً أمامه، على الكنبة، وقد تغلّب عليه النعاس، وهو يتظاهر بأنه يؤيّد مقالاته حول «تيرانو بانديراس» Tirano Banderas أو «أَوتوموريبوندیا» Automoribundia. فلهذا السبب لم أطرق الباب على الفور، ليس بقصد منّي التجسّس عليه أو التنصّت على ما يقوله؛ لقد استمعتُ لكيّ أتحقّق فحسب إن كان مشغولاً وفكّرت، خلال برهة، إن كان الامر يستحق العناء أو إن كان يناسبني أن انتظر

هناك – وراء الباب – حتى نهاية درسه، أو أن أفتح الباب وأقول له إنّني بحاجة ملحّة للتكلّم معه وإنّني سأعود اليه في ما بعد، ثم أغادر لأتسكع قليلاً. إلّا أنّ الجملة الأولى التي سمعتها بكل وضوح وكنت قد أصبحتُ أمام الباب (ولم تكنِ همساً) تركتني حائراً وجامداً خلال ثوانٍ، أي ما يكفي من الوقت لأن أنتبه من ثَمّ (عند انقضاء تلك الثواني: واحدة، اثنتان، ثلاث واربع؛ او خمس) إنه فات الاوان لأن أتّخذ أي قرار ولأن اقوم بأية خطوة، لا نحو داخل الغرفة ولا نحو الدرج.

ثمة فعل في الإنكليزية لا نستطيع أن نترجمه إلى الإسبانية سوى بشرحه، وهو to eavesdrop (هذا هو الفعل) الذي يعني (هذا هو الشرح) استراق السمع بفضولٍ وبدون تحفّظٍ، سراً، وخلسةً، وعنوةً وليس اعتراضياً أو من غير قصدٍ (ففي هذه الحال، تُستعمل كلمة to overhear)، والمفردة تتكوّن من مفردتين معاً، مفردة eaves، التي تعني «إفريز»، ومفردة drop، التي يمكنها أن تعني أشياء مختلفة لكنّها وبشكل خاص تتعلّق بـالنُقَط والتنقيط (الشخص الذي يستمع يقف عند مسافة معيّنة، أدنى مسافة ممكنة، من البيت: يقف حيث الإفريز ينقّط بعد المطر، ومنه يستمع إلى ما يُقال في الداخل). حول المستعمرات، فكّر مرّة «فلاديمير فلاديميروفتش» في وسيلة الـeavesdropping الموجودة في روايات القرن التاسع عشر وتحديداً في رواية «بطل من عصرنا»، وحتى لو لم يكن «نابوكوف» طالباً في أوكسفورد، بل في كامبريدج، ليس عندي أدنى شك أنه تسنّى له هناك، في العشرينيات، أن يكتشف الشيء عينه الذي اكتشفته أنا في

أيامي في أوكسفورد وهو: أنّ الـeavesdropping لم يكن فقط، ولا يزال، ممارسة سارية المفعول في المدينتين على حدّ سواء، إنّما هو دائماً الوسيلة الفضلى (ولو بدائية) للحصول على المعلومات الدقيقة لكي لا يصبح المرء هناك هامشياً ككل من لا يملك ولا ينقل أية معلومة. ففي أوكسفورد (كما في كامبريدج على ما أظن) وكما قال «نابوكوف» مستشهداً برواية لـ«ليرمونتوف» Lermontov يتحوّل الـeavesdropping إلى «رتابة المصير التي بالكدّ نشعر بها». فقد رأيتُ أسياداً متحفِّظين ومتكلّفين في رصانتهم، راكعين (وقد تغبَّر سراويلهم) يتجسّسون من خلال ثقب قفلٍ في أحد ممرّات الـ«تايلوريانا»، أو منبطحين على السجادة في أحد الكولدجات (وهم يفعلون تماماً كالهنود، الثوب الجامعي متناثر ومبعثر كلطخةِ الحبر وهي تتسع) وآذانهم ملتصقة بشقِ الباب، ورأيتهم أيضاً يمشّطون ما حولهم بالمنظار (ياباني الصنع ومن ماركة مشهورة) من عند نافذة غوطية؛ أو يهملون حديثهم في صالون الشاي في فندق «راندولف» بغية اصطياد جملةٍ وقد فلتت من طاولة أخرى وتناهت اليهم، أو يشرئبّون بأعناقهم من دون تردّد وهم على إحدى الـ«طاولات العالية» (بالأحرى عندما يحين وقت التحلية، وتكون فوطة السفرة قد اتّسخت جداً). لكن أنا لم أفعل هذا يوماً، أي الوقوف تحت الإفريز. وما فعلته حينها كنت أفعله للمرة الأولى؛ ولأنّني فعلت ذلك، شعرتُ (تقريباً في النهاية، وموقتاً) بأنّي اندمجتُ أكثر في هذا المجتمع؛ وعلى الرغم من أنّي أعتقد، وذلك لمزيدٍ من الدقة، أن أوّل جملة واضحة بلغت أذنيّ من شفتَي «كرومر-بلايك»

الشاحبتين كانت overheard، وليس شيئاً آخر. لكن أعترف أنّني سرعان ما ارتكبتُ الـeavesdropping.

«هيّا، كن لطيفاً وضاجعني»، تلك كانت الجملة أو الجُمل الأولى الواضحة لـ«كرومر-بلايك»؛ وأثناء الثواني التي تلت والتي بقيتُ خلالها من غير حركةٍ، أضاف صديقي: «هذه المرّة فحسب؛ مرّة أخرى بعد؛ أرجوك، وأعدك بأنها ستكون المرة الأخيرة». الصوت الذي أجاب كان صوتاً شاباً، بل شاباً جداً، ومزعجاً، ومشقّقاً بعض الشيء؛ فأجاب صوت الـ«كونتراتينور» هذا من دون غضب، بهدوء وصبر، بثقة، وكأنه صديق قديم: «لا تصرّ أكثر من ذلك، قلتُ لك لا، وأنتهى الأمر. ثم «ديانانـد» يقول إنك مريض ويجب ألاّ تقوم بمجهود، إذ يقول أن هذا خطير عليك، وعليّ ايضاً. هذا ما يقوله». لم يكن نُطقُه مهذّباً جداً، ولم يختلف كثيراً عن نطق «موريـل»، بل كان شبيهاً بنطق الميكانيكي «بروس» (لكن لم يكن «بروس»، إذ هذا الأخير صوته عريض)؛ ظننتُ بسرعة أنّ هذا الشخص لا يستطيع أن يكون طالباً (الشّاب «بوتوملي»، ظننتُ في اللحظة الأولى): وذلك، بسبب نطقه الشعبي أو السوقي، ولعدم استطاعة «كرومر-بلايك» يوماً أن يقوم بحماقة كهذه، حتى لو كان مغرَماً أو يائساً؛ فليس ثمة في أوكسفورد أسوأ من توجيه تهمة الـsexual harassment أي التحرّش الجنسي الذي يمارَس بحق الطلاب، أو ما هو أسوأ من ذلك، تهمة بالـmoral turpitude أي التصرّف غير الأخلاقي، وهذه رطانة لاتينية أخرى (ولو على الطريقة الإنكليزية)، وهو المَجاز الرائع، بكل صراحة، للعملية الجنسية. «آه، يقول «دايانانـد»، دوكتورُنا الكلّي

المعرفة»، علّق «كرومر–بلايك» (ربما بينه وبين ذاته) بنبرته المموّهة والمتهكّمة التي كان يتميز بها أكثر مما يتميَّز بالنبرة المتوسّلة: أحزنتني هذه الاخيرة كثيراً لدى سماعي إياها. «داياناند» لا يعرف شيئاً عن صحتي، ويقول هذا ليبعدك عني، ليلغيني، ومنذ قرون لم يعد يراني بصفته طبيباً، وكأنّي أقول لك الآن مثلاً أنّه هو المريض. أن نقول عن شخصٍ ما إنّه مريض هو نوع من الإهانة. إنّها طريقة للقضاء على الناس. صحيح أنّني مرضتُ قليلاً، لكنّي أصبحتُ الآن في حالة جيدة، لقد شفيت؛ هل أبدو لك كرجلٍ مريض؟ «كنت قد رأيتُ «كرومر–بلايك» قبل يومين أو ثلاثة، وبدا لي جيداً، كما كان على الأرجح يبدو، على ما تصوّرتُ، في تلك اللحظة، في الجهة الأخرى من ذلك الباب. تساءلتُ إن كان الشاب الذي يتكلّم هو «دجاك»، وكان ذلك الاسم قد فلت من «كرومر–بلايك» ذات ليلة، قبل أشهرٍ، بعد أن كنت قد رأيت «كلير بايز» للمرّة الأولى (وجهها وتقويرة فستانها الأنيقة جداً)؛ وتوقّعتُ أن أسمع نداءً بليغاً طالعاً من فمه – فم «كرومر–بلايك» – لكي يتّضح لي من هو هذا الشخص، لكن يمكنني القول إن هذا لم يحصل طوال الوقت الذي قمتُ فيه بالـeavesdropping.

«لا، بل تبدو في صحة جيدة»، قال صوت الشاب، «لكن هذا لا يغيّر شيئاً في الأمر، وأنتهى الموضوع؛ هذا لا يجوز أن يستمرّ. علاوة على ذلك، قد يحزن «داياناند» في كل الأحوال». «أما أن أحزن أنا فهذا لا يهمّ!». لانَ الصوتُ المشقّق لحظةً: «بل هذا يهمّني، لكنّه أقلّ أهمية من غيره، والأمر على هذه الحال». وهنا كان ثمة

استراحة بضع ثوانٍ (ربما استراحة القبلة، فالقبلات تفرض السكوت)، ثم عاد الصوت يتكلم، وهو يعترض الآن بخشونة (ولكنّه أصبح الآن أكثر صبىً وأقلّ لطفاً): «اتركني! توقّف، توقّف! إنك تؤلمني!». «إنّي أعتذر»، قال «كرومر–بلايك»، وعاد فتبنّى نبرة المطالبة والإصرار: «لكن أرجوك، أتوسّل إليك، أقسم لك أنّه لن يكون خطيراً، وليس من الضروري أن يعلم «دياناند» بذلك. كلّ ما أريده هو أن نتمدّد وأن أضمّك قليلاً، فمنذ وقت طويل لم يضمّني أحد». «إذاً اذهب وابحث عن غيري»، قال الصوت بشراسة (كصوت السيّد الذي يرفض إعطاء الحسنة فيهرب من الشحّاذ). في تلك اللحظة شعرتُ بحرارة في وجهي، ذلك المزيج من الخجل والإهانة، وكأن هذا الشاب، اياً كان، يهينني أنا، لأنه يسيء معاملة صديقي «كرومر–بلايك» ويرفضه، بينما الأخير يتوسّل إليه. لكنّني بقيتُ هناك، واقفاً، أمام ذلك الباب. كان للباب مسكة ذهبية وكان مغلقاً، لكن على الارجح من غير قفلٍ ولا مفتاحٍ، وربّما كان يكفي أن نحرّك المسكة وأن ندفع الباب لكي يفتح، إذ هكذا اعتاد «كرومر–بلايك» أن يتركه عندما يكون في الداخل، أي من غير قفل ولا مفتاحٍ، وكان ثمة لوحة بارزة أمام عينيّ تقول: «د.ب–أي «كرومر–بلايك»»؛ اسمه «كرومر–بلايك». حصلت استراحة جديدة، وكأن «كرومر–بلايك» بقي لحظات عاجزاً عن أي ردٍّ، عاجزاً عن تهكّمه وغضبه الاعتياديين. سمعتُ صرير الباب الآخر، باب غرفة النوم؛ قد يكون «كرومر–بلايك» دخل غرفة النوم، ولم أستطع أن أعرف ما إذا دخلها بمفرده أو مرافقاً؛ لكن سرعان ما تكرّر

الصرير، وقد يكون «كرومر–بلايك» جلب شيئاً ثم عاد إلى غرفة الاستقبال. قال: «حسناً. لكن جهّزْ لي الصور الفوتوغرافية، فليس في ذلك من خطر ولا من إزعاج ممكن، أليس كذلك؟» الآن كان قد استعاد نبرته المتهكّمة قليلاً، على الرغم من أنه كان لا يزال يطلب (لكن لم يعد يطلب أن يضمّوه). تساءلتُ حول صديقه «بروس»، وحول تلك العروضات الأكثر إغراءً، وتلك الأساليب الفضلى في الإغواء التي كان قد ذكرها تلك الليلة؛ تساءلتُ حول الوجوه الجميلة أو الاجسام الرياضية التي كانت، كما قال، في غرفة نومه وتحت تصرّفه أحياناً. كان «كرومر–بلايك» رجلاً يقظاً، ولكنّه، من خلال ما كنت أسمعه تحت الإفريز، بدا لي أنّه بدأ يلقى صعوبات حتى في الاستفادة من فطنته، وكأنه شاخ قبل أوانه بكثير، وقبل أن يتسنّى له اللجوء إلى ذكرياته، «المفبركة» والمخزّنة، آملاً بذلك أن يجد من خلالها قليلاً من التسلية في شيخوخته، في الوقت الذي كان لا يزال فيه في طور «فبركة» وتخزين هذه الذكريات للمستقبل. واعتقدتُ أنه لا يمكن أن يكون المرض هو السبب، أياً كان هذا المرض الذي لم يُشفَ منه بعد: ثمة أمور لا يردعها أي خطرٍ. فـ«كرومر–بلايك» كان يطالب بأن يضمّوه، على الرغم من أنّه، قد لا يناسبه القيام بأي مجهود. كان «دياناند»، إذ تذكّرتُ، رجل حَذِر ومحتاطاً حسبما استطعتُ أن أرى في نظرته المتّقدة خلال تلك «الطاولات العالية».
كان «دياناند» يتمتع أكثر من «كرومر–بلايك» بالإرادة والقوّة اللتين تخوّلانه الحصول على ما يتوق إليه، فليس من وشاح في عينيه كونهما قادمتين من الجنوب، كما هي الحال بالنسبة إلى عينيّ؛ فكان

شيطان الطبيب الهندي داخله، مثل «توبي رايلندز»، الذي كان ربّما يوماً جنوب-أفريقي، ومثل «كلير بايز»، التي أمضت طفولتها في بلدان بعيدة وجنوبية، وعلى الأرجح أيضاً مثل الميّت «غاوزوورث»، الذي عاش في تونس والجزائر، في إيطاليا ومصر، وفي الهند (ولو أنه لم يكن في ريدوندا)؛ ومثلي أنا من دون شك، الذي كنتُ ولا أزال وسأكون من مدريد (الآن أدركتُ ذلك). دمي ساخن، أو فاتر، أو بارد. لكن أنا ايضاً كنت أنوي أن أصرّ وأن أتوسّل، وجهاً لوجه، ما إن سنحت لي الفرصة؛ ما إن تسنّى لي ذلك. وهذا ما كنت أفعله منذ أسابيع وعن بعد: أتوسّل إلى «كلير بايز».

«حسناً»، أجاب صوت ذلك الشاب، الصوت الذي طالت مدّة تبدّله نحو الرجولة؛ «لكن فلنستعجل». «هل ستجهّزها؟»، قال «كرومر-بلايك» بامتنان صريح وفجائي، وبارتياح. «لحسن الحظ، في هذه العلاقات عبر الوكالات ينتهي بهم المطاف دائماً إلى المطالبة بالصور. فلا تستطيع أن تتخيّل كم أنا ممتن لك، فمن دونها لا يمكننا أن نفعل شيئاً، وإن لم تفعلها أنتَ لستُ أعرف مَن يستطيع غيرك. لا يمكنني أن أطلب ذلك من «بروس». «تعال، استَعِدّ، فمن الأفضل أن نبدأ باكراً وننتهي باكراً»، قال بشفقةٍ، الصوتُ المكسور. قد يكون «كرومر-بلايك»، كما فكّرتُ، ينوي تصوير ذاته في صور خاصة لإرسالها إلى إحدى تلك الوكالات الخاصّة، أو إلى شخصٍ ما قد يكون أقام إتصالاً معه عبر تلك الوكالة بالذات. وبدأتُ أتساءل، بينما ساد الصمت ولم اعد أسمع حواراً، بل جملاً متفرّقة إضافة إلى الكبسة المعروفة لآلة تصوير البولارويد (كان «كرومر-بلايك»

يقول: «هل هكذا جيدٌ؟»، «ركّز هنا جيداً»، «هذه اللقطة عالية جداً، أليس كذلك؟». «كْلِيك»، كانت تفعل البولارويد) ما هي هذه المواضع التي كان هو فيها فيلتقطها صوراً، والتي لا «بروس» الميكانيكي، ولا «كلير بايز» مثلاً، ولا أنا كذلك يمكننا أن نلتقطها له؟! وما أن أخذتُ أفكّر في هذا، حتى شعرت بحرارة تزداد حدّة في وجهي (هناك خلف الباب)، لكنّي أعرف أن تلك المرّة كانت مجرّد خجل فحسب. وحتى لو لم يكن هناك أحدٌ يرى خجلي هذا (فالشيء الوحيد الذي كان ينظر اليّ هو تلك اللوحة البرّاقة التي تحمل اسم كرومر–بلايك غير المكتمل)، أعتقد أن ليست ظنوني هي التي سبّبت خجلي، إنما ردّة فعلي، أو ردّة فعل ضميري (أي ما تبقّى منه). إذ حينها فقط شعرتُ بالخجل بسبب ما قمتُ به من eavesdropping.

بكثير من الحذر والسرّيّة، السريّة التي لم ألجأ اليها أثناء صعودي الدرج لأنّي حينها لم أكن قدّ أصبحتُ بعد كاشفاً للأسرار وخبيثاً ومتسلّلاً، استدرتُ نصف استدارة وأخذتُ أنزل الدرج على رؤوس قدميّ بينما كانت لا تزال تبلغ اذنيّ (الآن أصبحتُ في عملية الـoverhearing، إذ لم تعد أذنايَ تريدان أن تسمعا أي شيء) جملةٌ أخيرة: «من المهم ان يُرى من فوق»، كان يقول «كرومر–بلايك». «كْلِيك»، كانت تفعل البولارويد. وفي الوقت ذاته لم أستطع، بعد أن هبطتُ بعض الدرجات، سوى أن أبتسم ولو بشيء من التهكّم (كما لو كنتُ «كرومر–بلايك»)، وأنا افكّر في المشهد المحتمل الذي لم أره. ولكنّي سرعان ما محوتُ الابتسامة، لأنّي تذكّرتُ فجأة لماذا

كنت قد ذهبتُ هناك، وأدركتُ أنّي لن أتمكّن بعد الآن من استشارة «كرومر–بلايك» حول ما كان يقلقني، ولا أستطيع بالتالي أن اتوقّع منه أن يخفّف عنّي مسبقاً صدمتي المحتملة، ولا أن أسمع من شفتيه التشجيع والجواب اللذين كنت أتمنّى سماعهما لاحقاً، هذا في حال نويتُ تطبيق خطّتي فعلاً، إذ سمعتُ عدم التشجيع والجواب هذين اللذين لم اتمنّهُما، سمعتهما من شفاهٍ أخرى لا أعرفها ومن صوت مشقّق.

ذهبنا «كلير بايز» وأنا إلى «برايتون» (وجوّ من الوداع يخيّم علينا)، وكان الطفل «إريك» قد غادر، ووافقت هي على مقابلتي مرّة أخرى (على انفراد) وسماع اقتراحاتي، والتكلم معي من غير استعجالٍ ولا منبِّهٍ أو أجراس تدقّ كل ساعة ونصف ساعة وربع ساعة، وتعود أيضاً لتدقّ عند الغروب (وسوف تظلّ تفعل هكذا إلى دهر الداهرين، حتى عندما لن أعود أسمعها). ذهبنا إلى «برايتون» في نهاية الأسبوع، وكان يوم سبتٍ، لقضاء ليلة واحدة هناك، الليلة الأولى والأخيرة التي قضيناها معاً، إذ معها لم أنم إطلاقاً كما نمتُ ليلةً مع «مورييل» (كان الطفل «إريك» قد عاد إلى بريستول و«إدوارد بايز» كان في سفرة في القارة). لكن بالكدّ خرجنا من الفندق في «برايتون»، وهو فندق مختلف وأقلّ تقليديةً من فنادق لندن و«ريدنغ»، وحيث نرى من نوافذه المتقابلة المنارات والقبب المتصدّعة لـ«رويال بافيليون» Royal Pavilion المشهور جداً بهندسته شبه الهندية المضحكة، وحيث كنّا أيضاً نرى الشاطئ من الجهة الأخرى (كانت هذه المرّة الوحيدة التي كلّف فيها وجودنا معاً غالياً: فالخيانة الزوجيّة عادة ما تكون قليلة الكلفة). ليس صحيحاً أننا لم نخرج قطُّ، لكن لا أستطيع التخلص من الشعور بأنّي دائماً منعزل داخل غرفة مع «كلير بايز»، في أوكسفورد وفي لندن وفي «ريدنغ» وفي «برايتون». لم نذهب في القطار إلى «برايتون»، إنّما في

سيارتها، وكان لهذا الأمر طابع تدشينيّ وجديد (على الرّغم من أنّه كان يختتم ولا يدشّن): أن نذهب في سفرةٍ، جالسَين الاثنين معاً في سيارّتها المتجهة إلى الجنوب، تاركين وراءنا لندن و«ريدنغ» لأوّل مرّة، بحيث يرافقني أنا انطباع (وهمي) بأنّي أقود السيارة وأنا جالس الى اليسار، وهي يرافقها الانطباع عينه (لكن الحقيقي) بأنّها تقود السيارة بي. لكن كلّ شيء كان وهمياً، كما أعتقد (أي في ما يتعلّق بنا، وليس ما يتعلّق بالآخرين أي بمَن مات قبل ثلاثين سنة في بلد بعيد وبمَن لم يمت ولكن كان عليه أن يموت، هناك وحينها). كان يخيّم علينا جوّ الوداع الذي رافقته رائحة خاصّة ومكثّفة، ومع ذلك تظاهرنا بأن هذين الوداع والفراق لم يكونا محتّمَين،كما كان الأمر متوقّعاً منذ بداية العلاقة (كان مشروعنا وقرارنا أن يكون لدينا ما يُسمَّى حبّاً في مكان موقت وعابر، أي أن يكون لدينا شخص نفكّر فيه)، بل كان هذا الوداع والفراق رهن ذلك اللقاء أو رهن نهاية الأسبوع، وأنّه يمكن، أو لا، أن نقررهما في المدينة وفي غرفة فندق في «برايتون». وأنا اختبرتُ التعزية الكبرى (أو هي ربّما اختبرت اللذّة العارمة) في أن أقترح ما هو مستحيل، أي ما أدركتُ مسبقاً أنّه سيكون مرفوضاً: إذ إنّ هذا الاستحالة بالتحديد والرفض الأكيد (الرفض الذي لا يعرف أن ينتظره سوى مَن يقترح أولاً ومَن يبدأ بالكلام)، جعلاني أتكلّم بثقة أكبر وأعبّر عن رغباتي، وذلك ليقيني أنّه لا يوجد احتمال أو خطر بأن تقبل اقتراحي. وتظاهرت «كلير بايز» بتصديقي – أعتقد ذلك –، وأخذتني على محمل الجدّ، وأخذت توضّح لي وكأنّني بحاجة إلى كل هذا التوضيح، أو كأن كلمة «لا»

وحدها لا تكفي، وهي تبحث عن طريقة كي لا تجرحني، أي كأن ما يهمّ هو أن أفهم (تصرّفتْ بلطف كبير). في كل حال إنه الإجراء الذي يجب أن تتّسم به تلك العلاقات غير المتصلة بقرابة الدم لكي تسمو، فهي غير مثمرة وغير مثيرة، ومع ذلك تبدو لنا ضرورية جداً للفكر، لكي يحلم هذا الفكر بما هو آتٍ فلا يكتئب، أو لا يسقم، ولا يصاب بالأسى.

إلاّ أنّنا لم نتطرّق إطلاقاً إلى هذا الامر - أنا احتفظت بخطابي الصغير، وهي احتفظت بجوابها الكبير - سوى بعد نهاية العشاء والنزهة على الشاطئ اللانهائي، أي عندما عدنا إلى غرفة الفندق مدركَين أنّه كان علينا أن نقوم حينها بالمجهود الأعظم - التمثّل والتصوير -. لذلك كنّا قد اقتصدنا طاقاتنا (الكلامية) خلال الرحلة في السيارة، وخلال زيارتنا إلى ذلك القصر المشوّه أو الـ«رويال بافيليون» بشرفاته وقببه ونوافذه ذات الطابع الجنوبي، وخلال التبضّع في المدينة (دائماً تنتظرني مكتبة كتب عتيقة في جميع أنحاء إنكلترا، ودائماً أكياس لـ«كلير بايز» وهدية للطفل «إريك»)، وخلال العشاء (ونحن ننظر إلى الشاطئ والأمواج)، كما خلال النزهة وكنّا حافيَين، فأنا أيضاً كنت هذه المرّة حافياً وفردتا حذائي متدليّتان من إصبعيَّ، الوسطيّ والسبّابة (بدون قُفّاز). وعندما صعدنا، بعد جُملٍ متفرّقة وكثيرة تخلّلتها فترات من الصمت (إلّا أنّ الوقت لم يكن متأخّراً، لأنّنا كنا نعلم أنّه لا يزال أمامنا ساعات طوال قبل نهاية ذلك النهار وقبل محاولة النوم، وربّما لم نكن نريد أن نجعل كل هذا متعباً جداً أو حقيقياً جداً)، عادت هي وخلعت حذاءها كعادتها، أما أنا

فلم أفعل، على الرغم من أنّ الرمل ملأ جواربي، وتمدّدتْ على السرير وتنّورتها ارتفعت كما كانت اعتادت أن تفعل دائماً لكي تُظهر جيداً ساقيها الصلبتين غير العاضلتين كما قد يبدوان لآخرين كثر، إنّما الرشيقتان وشبه الطفوليّتين في حركتهما. كنّا نستطيع، في تلك الليلة، أن نطيل إلى ما لا نهاية مضمون وقتنا، أو أن نشعر بأننا نطيله، إنّما لم نستعجل في أي شيء، حتى في استئناف الكلام، أو في التقبيل. كانت ليلة الربيع تلك حقاً ربيعية، وإحدى نوافذ الغرفة - التي تسمح لنا برؤية المنارة غير الأنيقة أو القبّة المتصدّعة وكلتاهما مضاءتان - كانت مفتوحة. أدرتُ ظهري لها. اتكأتُ على إطارها. ومن هناك كنت أرى الشاطئ والماء من خلال النافذة المقابلة لهما. أشعلتُ سيجارة. قلتُ:

«كلير» أنا لا اريد أن أغادر. لا أستطيع أن أغادر الآن - واعتقدتُ أن هاتين الجملتين الشبيهتين جداً كانتا كافيتين لأن تبادر هي بالكلام ولأن تكون مجبرة على الردّ، على الإجابة بأي شيء (وعلى الفور فكّرت أيضاً أنّه على الرغم من انّها كانت بدأَتْ بالكلام كنت لا أزال أفكّر ولم استرح). أخذت تتكلّم، لكنّها لم تجب (لم تجب حقاً، لم يكن هذا بجواب).

- تعني أنّك لا تريد أن تغادر أوكسفورد.

قلتُ:

- صحيح؛ بلى. أريد مغادرة أوكسفورد وخصوصاً أنّه ليس عندي حلّ آخر، فالعقد يشارف على نهايته. فالمهّم ليس أوكسفورد، إنما أنتِ. لا أريد أن أفترق عنك. اشتقت إليك كثيراً خلال هذه

الأسابيع اللانهائية، ولا اريد أن أفترق عنك لأسباب جغرافية محضة، اذ هذا أمر حقاً تافه – وفكّرتُ أنّي مع هذا الكلام، كنتُ قد فسّرتُ كفاية، كما هو مفترض دائماً في الحوارات الجدّية بين العشّاق، تلك الحوارات التي يجب أن تجري على مساحة مسطّحة في الشفافية وفي المستقبل.

– الجغرافيات هي من الأسباب القادرة جداً على الفصل بين الناس. وهي احياناً بلا جدوى. أنتَ لا تريد أن تغادر، وفي الوقت عينه تريد ذلك؛ أنت بالأحرى لا تعرف حقاً ماذا تريد. أنا اعرف أنّني لا أستطيع، ولا أريد أن أغادر إلى أي مكان. لكن أيضاً ألا تعرف أنت هذا، لا يهمّ، إذ عليك أن ترحل في أي حال، وسوف ترحل. فلا جدوى من أن نتكلّم في ما لا يحتمل أي شكٌ.

قلتُ:

– لكن يمكنكِ أن تأتي معي – وظننتُ أنّني مع هذا الكلام كنتُ قد قلتُ تقريباً، ولدهشتي، كل ما اعتبرتُه أساسياً لأن أقوله (وكان عليّ أن أكون واضحاً وصريحاً) في ليلة حزيران تلك، ليلة سبتٍ في مدينة «برايتون» (كذلك فكّرتُ أنّ «كلير بايز» قد تقول أن هذا مستحيل).

– إلى اين؟ إلى مدريد؟ هذا غير معقول. مستحيل.

قلتُ:

– لكن، هل كنتِ أتيتِ معي لو كان هذا ممكناً؟ – وفكّرتُ أنّني هكذا قدّمت لها ايضاً الفرصة لكي تقول إنّها قد تفعل ما نعرف نحن الاثنين أنّه لن يحصل: لكنّها لم تغتنم هذه الفرصة، إذ لم يكن هذا

دورها، إنّما دوري أنا.

– أودّ أن اعرف كيف، من باب الفضولية.

قلتُ:

– لستُ أعرف كيف، فعلينا إيجاد وسيلة، إذ ثمة دائماً وسائل عندما ننوي إيجادها. لكن قبل كل شيء يجب أن ننوي البحث عنها، لذا أنا بحاجة لأن أعرف إن كنتِ تريدين ذلك، او إن كنتِ مستعدّة، إن كنت ستسمحين بأن تمرّ مجدداً أسابيع أربعة كتلك المنصرمة. كذلك لا أريد، إن التقيتُ ابنك، أن يرمقني بنظرة غريبة، إنّما أن يتعرّف اليّ ويعيش معنا إذا عشنا معاً، أن يكون ابني أنا ايضاً، او ابني بالتبني. لا أستطيع أن أعيش من دونكِ، على الرغم من أنّي انتبهتُ إلى ذلك ربما متأخراً جداً، اي عندما اصبحتُ على وشك وجوب العيش من دونك. لكن هكذا تجري دائماً الامور – وفكّرتُ أنّني أبالغ في الجرأة عندما تسرّعتُ وقلتُ ما لم أكن مستعداًّ له وما لم أكن واثقاً بأنّني أرغب في قوله، في البداية ولا حتّى في النهاية ربّما (كلمة معاً، كلمة ابن، كلمة ابن بالتبنّي)؛ – وظننتُ أيضاً أنّ الجُمل الأخيرة، وخصوصاً الجملة الأخيرة، كانت مقبولة ضمن الحدّ الادنى من التنوع الذي نحتاجه للتصرّف في العلاقات التي لا تنتمي إلى قرابة الدم. وكان دور «كلير بايز» يكمن عندئذٍ في أن تُفاجأ، ولو قليلاً، علماً بأنّه كان عليها أن تتصنّع في مفاجأتها. إلّا أنّ تصنّعها هذا إقتصر على ألّا تفاجأ، وكانت هذه طريقة لرمي عنصر المفاجأة (أو طريقة التظاهر بها) في ملعب الفريق الآخر.

– لا، المسألة ليست مسألة تأخيرٍ – قالت، وأشعلتْ سيجارتها

الاولى في السرير (التهديد الاول لجواربها): بالكدّ كانت قد دخّنت خلال العشاء وخلال النزهة، وكأنّها أرادت أن تستبقي نفسها للليل وللغرفة –. المسألة ليست مسألة وقت، إذ لم يكن يوماً لهذا الامر وقت محدّد. كان خارج كل الأوقات، ولم يكن يوماً وارداً ولا يزال، بل الآن أكثر من قبل. أنت ستعود قريباً إلى مدريد، وحسناً ما فعلنا أنّنا لم نرَ واحدنا الآخر خلال الأسابيع الماضية، فَرُحنا هكذا نعتاد شيئاً فشيئاً، فأنا قد بدأت أعتاد. في مدريد لن تشتاق إليّ كما تفعل هنا، فأنتَ وحيد هنا. وكلّما مرّ يوم هناك ستراني بعيدة ومتلاشية. فلا جدوى من أن نتحدّث في هذا الموضوع. فلنمضِ نهاية هذا الأسبوع على افضل ما يمكن وليكن الوداع غداً. أن نلتقي على انفراد هو أكثر من كافٍ.

قلتُ:

– بهذه السهولة – وفكّرتُ أنّها أخيراً أخذت على عاتقها الكلام وقد يمكنني حتى ألاّ اتكلّم، بل أن أستمع واستريح.

– لا، ليس سهلاً على الإطلاق، لا تظنّ أنه سهل.

فكرتُ فيكَ مراراً عندما كان «إريك» في البيت، وساظلّ أفكّر مراراً بعد أن تغادر.

قلتُ:

– أما أنا فسأفكّر فيكِ باستمرار، كما فكّرتُ باستمرار خلال هذه الأسابيع الماضية. وإذا كنتِ لا تريدين أن تأتي معي، فعليّ أن اجد في هذه الحال طريقةً ما لأبقى هنا، حتى لو اضطررتُ أن اعمل في وظيفة أخرى – وفكّرتُ أنّني لم اكن أريد أن أبقى في أوكسفورد

لأعطي دروساً في الإسبانّية في الأكاديميا، ولا في لندن لأعمل في الإذاعة (كان هذا الشيء الوحيد الذي خطر في بالي، في تلك اللحظة)، ولا أن أُنهي أيامي هنا بملامح صينية وعينين زرقاوين، كما حصل معها لأنّها قضت طفولتها بعيداً، في «دلهي» وفي «القاهرة».

– لن تتحمّل البقاء هنا وقتاً أطول، فلستَ ناسياً بلدك كما تظن.

وإن بقيتَ هنا فلن أكون معك، أو لن أكون بغير الطريقة التي كنتها معك حتى الآن. سوف نظلّ نلتقي هكذا، في الفنادق، أو بعض الوقت في منزلينا بين صفّين من صفوفي. ثم ما من مرّة تكلّمنا على ذلك، وأظنّ أنّنا لم نفعل من باب اللياقة المتبادلة ولأنّه من النافل الكلام فيه. فلم نكن بحاجة إلى هذا الكلام؛ وأيضاً بسبب ضيق الوقت، ولكي لا ندمّر احتفاءاتنا الوجيزة. ما من مرّة تكلّمنا كثيراً على أي شيء. فلم يكن يوماً بيننا تواصل أو حوار حقيقي؛ لذا لن أفترق عن «تيد» إطلاقاً.

من بين الخطوات التي يجب أن نقوم بها في الحوارات الشفّافة حول المستقبل (الخطوات التي ليست سوى إجراءات) كان أمامي وقتها خياران: كان يمكنني أن أسأل (نظرتُ نحو الشاطئ) إن كانت لا تريد الفراق لأنّها تحب زوجها على الرّغم من كل شيء (لكن في ليلة حزيران تلك، ليلة السبت تلك في مدينة «برايتون» لم أكن أريد المخاطرة في سماع هذا النوع من البوح كما لم أكن أريد أن أسمعها تنكر ذلك، أو تحاول نكرانه، من خلال لجوئها الأكيد إلى التبجّح)؛ أو أيضاً – وأنا أتظاهر بأنّني لم أفكّر في احتمال كهذا – يمكنني أن ألومها على غياب الجرأة التي لديها وعلى رضوخها للمعطيات

القائمة (استدرتُ ونظرتُ نحو القبب: رميتُ السيجارة من النافذة – وكأنها قطعة نقود معدنية – وكلّمتُها مديراً لها ظهري)، المعطيات التي لم أرَها ولم أعشها والتي لم أكن اشعر بمسؤولية تجاهها ولا أحترمها. لكنّها كانت غير مبالية إزاء اختياري للاحتمال الثاني إذ أجابت وكأنّني اخترتُ الأول.

– لا أقول لك الآن أنّني مغرمة بـ«تيد»؛ فلستُ أعرف أن كنتُ حقاً مغرمة؛ وبأية طريقة أنا مغرمة، لكنّني أعرف أنّني لم أعد كما كنتُ قبل سنوات، عندما تزوّجنا وقبل الزواج، وفوراً بعده. الحقيقة أنّني لا أتساءل كثيراً، لم اعتدْ يوماً التساؤل حول الموضوع. لكن حتى لو كنتُ حقاً مغرمة ومقتنعة بغرامي، لستُ مستعدّة لأن أبوح لك به. فمن السخرية أن تقول امرأة لعشيقها كل هذا، أو رجلٌ لعشيقته، وخصوصاً لعشيقٍ لم تلتقِه مرّة فحسب، ومصادفةً، إنّما لعشيقٍ تعرفه وتحبّه فعلاً منذ وقت غير قصير. لا أستطيع أن أبوح به لك، مهما كنت أكيدة من حبّي لزوجي. لكنّنا لسنا بحاجة إلى ذلك. يكفي أن أقول لك بأنّني أحبّ أن أعيش معه، وهو أمر تعرفه. فليس لطيفاً وممتعاً فقط العيش معه، لكنّها أيضاً مسألة عادة. إضافة إلى ذلك، فأنا اخترتُ هذه الحياة، ولا أزال أختارها بين كل الحيوات التي قد تتوافر لي، لأنّ المستحيلة منها، طبعاً غير واردة. أن يكون لي عشيق لا يتناقض مع هذا، حتى لو قلتُ لك، كإمرأة بعض الشيء حمقاء، إنّني أحبّ «تيد» أكثر من أي شيء في حياتي.

قلتُ:

– العشاق يتمهّلون في علاقتهم، ويتمتعون بالإصرار

ويتحمّسون كثيراً، أليس صحيحاً؟- وفكّرتُ أنّني كنتُ أيضاً متمهّلاً ومصرّاً مع «موريل»، تلك البدينة التي لم تكن فعلاً بدينة من «ويتشوود فورست»؛ لكنّني لم أكن متحمّساً معها إطلاقاً.

– إنك احمق – قالت لي «كلير بايز» كما كانت قد قالت لي ذلك اليوم في الخامس من تشرين الثاني في مكتبها في كليّة «أوُل سولز»، في «كاتيه ستريت» قبالة الـ«رادكليف كاميرا»، وبالتالي كانت هذه المرّة الثانية التي تنعتني فيها بالأحمق (دون أن أشعر بالإهانة في كلتا المرّتين): كان قد أغاظها كلامي، وعلى الأرجح أغظتُها أيضاً لأنّني قاطعتُها عندما كانت قد صمّمت أن تتناول الكلام وان تتحدّث معي بطريقة طفولية، أي أن تخوض الموضوع بأكمله وبسرعة ومنذ بدايته: فتتناول طور التقرّب، أي تحقيق فعل التقرّب والابتعاد؛ تتناول كامل سعادتنا، والنضال والشكوك أيضاً وما كان يقيناً بيننا، ولكن الغيرة والهجر والضحك أيضاً – إنك أحمق – قالت لي –. صحيح، أنتم العشاق تتمهّلون وتصرّون وتتحمّسون، لكن ليس لمدّة طويلة، وهذا هو المفترض في أي حال. هذه هي وظيفتكم وأيضاً سحركم. كذلك سحري كوني عشيقتك، لا تنسَ هذا؛ على الرغم من أنّك غير متزوّج. تكمن مهمّتنا في ألّا تدوم كثيراً، ألّا تبقى، ألّا تستمرّ، لأننا إذا استمررنا أكثر من المفترض، ينتهي عندئذٍ السحر ويبدأ العذاب وتأتي المآسي. مآسٍ حمقاء، مآسٍ يمكننا تجنّبها، مآسٍ بَحَثْنا عنها.

قلتُ:

– لا اعتقد أنّ مآسيَ كثيرة تحصل في هذه الأيام – وفكّرتُ أنّ

حصول المآسي بيني وبين «كلير بايز» كان مستحيلاً، إن كنّا في أوكسفورد، أو في لندن، أو في «ريدنغ»، أو في «برايتون»، أو حتى في محطة «ديدكوت».

– أن تحصل في هذه الأيام أو أن تكون حصلت في ما مضى، فهذا غير مهمّ. لم تكن يوماً الأزمنة مختلفة جداً، ولو بدت كذلك. مَن يعرف وقتاً أكثر من وقته؟ وقبل ثلاثين سنة، أي في شبابي، رأيتُ مأساة وكانت على الأرجح حمقاء، ومنذ ذلك الحين، أو ربّما منذ أن عرفتُ أنّي رأيتُها، احاول باستمرار أن أكون منيعة، أي أنّي تحصّنتُ بما ينبغي من التشاؤم والبرودة لكي أكون منيعة في وجه المآسي الحمقاء؛ لكي يصبح لديّ مناعة ضدّها، فلا أبحث عنها. أنتَ لم ترَ شيئاً فلا تزال تستطيع أن تسمح لنفسك بالكثير، أمّا أنا فلا أستطيع. لكنّني أيضاً لا أريد.

وعندئذٍ أبدتْ «كلير بايز» (كما لو كانت رجلاً) استعدادها لأن تتذكّر بصوت عالٍ الأشياء البعيدة، وهي ممدّدة على السرير، وأمامها الشاطئ والماء من جهة، ومن الجهة الأخرى، في خلفية المشهد، القصر شبه الهندي، وفي مقدّمة المشهد، الرجل الذي كان عشيقها فترة ستة عشر شهراً، والّذي كان على وشك أن يكفّ عن ذلك. وعندئذٍ توقّف أيضاً حوار العشاق ذلك في المساحة المسطحة، وفي الشفافية، وفي المستقبل، لكي ينتقل إلى المساحة الوعرة والخشنة، وإلى الغبش، وإلى الماضي. «إسمعْ»، قالت، وأشعلتْ سيجارة جديدة وأسندت رأسها إلى يدٍ، ومِرفقها اسندتْه إلى وسادة السرير الطويلة، السرير العريض (إتّخذت هذه الوضعية لتسرد لي تلك الحادثة

الميلودرامية المتعلّقة بموتٍ أحاطه شهود عيّان عديدون، على الرغم من أن الذي بقي على قيد الحياة منهم لم يعد قادراً على تذكّر تلك الحادثة). «إسمعْ»، قالت، وأنا استدرتُ مجدّداً عندما قالت هذه الكلمة، مديراً ظهري إلى النافذة مرة ثانية؛ عندما استدرتُ نحوها وهي في وضعيتها تلك الجانبيّة وباتجاهي، لاحضت أنّ تنّورتها أصبحت أكثر علوّاً: بدت وكأنّها لم ترتدِ تنّورة. «كان لوالدتي عشيق دام طويلاً اسمه «تيري أرمسترونغ» ولست أعلم مَن كان وماذا يعمل في الحياة إذ لم أدرِ بهذا الموضوع سوى بعد حدوثه بوقت طويل، وكنت حينها في الثالثة. لم يترك هو أي اثرٍ.عندما اصبحتُ فقط في سنٍّ بدأتُ أتساءل فيه أكثر عن أمّي، استطعتُ عندئذٍ أن أسأل الآخرين، على الرّغم من أنّي لم احصل إطلاقاً على أكثر من حكاية (وجواب) اضطررتُ إلى أن أعتبرها الوحيدة والحقيقية لأنّي لم احصل على سواها. أما والدي فعاش باستمرار صمتاً مؤلماً، وربّما ليس لأنه لم يكن يريد الكلام فقط، إنّما، كما أفكّر أحياناً، لأنّه ربّما لم يعرف القصة كلّها؛ فلا يستطيع بالتالي سرد الحكاية بأكملها. والشخص الوحيد الذي قَبِل بسردِها لي، وذلك بعد مرور زمنٍ طويل، هو «السيدة مونشي»، أعني «هيللا» Hella، مربّيتي التي كانت تعتني بي في «دلهي». أمّا والدي فكان يرفض أن يجيبني كلّما سألته أو اتّهمته بأنه يخفي شيئاً عليّ، وهذا يعني أنّه من ناحية أخرى لم ينفِ يوماً، لم ينفِ أي شيء مما اخبرتُه أنا إياه وقتها على لسان المربّية. كل مرّة كنتُ أقارب هذا الموضوع، كان يترك مقعده ويخرج من الصالة وعلى وجهه تعابير غامضة، وكنتُ أذهب وراءه، وأصرّ عليه،

إلى أن نصل إلى باب غرفته حيث كان يغلق على نفسه ولا يخرج سوى بعد ساعات طوال لتناول العشاء، وكأن شيئاً لم يكن. إلاّ أن كل هذا التخبّط أصبح من الماضي البعيد، فالآن لم أعد أفكّر في الإصرار عليه وفي مطالبته بأي توضيح؛ لم أعد أتطرّق إلى ذلك إطلاقاً ولا أحاول حتى ذكر الموضوع، لا معه ولا مع سواه، و«هيللا» ماتت منذ سنوات، هنا، في إنكلترا، حيث كان أولادها وأحفادها مقيمين. إنّني لا أعرف إن كان عليّ أن أتكلّم معك أنت عن هذا، لكن الأمر سيّان، وفي أي حال فإنّك تغادر قريباً جداً»؛ فكّرتُ أنّه على الرغم من أنّنا لسنا بحاجة إلى كل هذا، كان لطفاً منها وبادرة مشرِّفة أن تعطيني «كلير بايز» كل هذه التوضيحات وكأنّها ضرورية في ليلة «برايتون» تلك؛ وفكّرتُ أيضاً: «هذا صحيح. فبعد أن أكون قد غادرت، كل ما يحدث الآن سوف يفقد من أهميّته. لن يبقى له أي اثر. على غرار «تيري أرمسترونغ». لكن بينما كنتُ أفكّر في هذا، ظلّت «كلير بايز» تتكلّم ونظرتها تزداد شروداً أو تركيزاً، كما تكون عادة نظرة التذكّر والسرد. «بحسب ما كانت تخبرني المربّية، فـ«تيري أرمسترونغ»، ذلك الذي لم تعرف عنه شيئاً سوى اسمه، كان متحمّساً وذا إرادة، مثله مثل كل عاشق حقيقي. كان من أولئك الرجال الذين يكتبون الرسائل والقصائد بجدّية وتهكّم كبيرين، وينقلون عدوى طاقتهم وحيويّتهم، ويُضحِكون ويُفرِحون كثيراً مَن يشعر بأنّه محبوب من قِبلهم. كان يَظهر ويختفي ولم يكن أحد يعرف متى سيظهر مجدّداً؛ كان في «كالكوتا»، وربّما في الهيئة الديبلوماسية أو ربّما يعمل لحسابه، والارجح هو الاحتمال الثاني، لأن اسمه لم

يكن مدرجاً في أرشيفات الهيئة التي كتبتُ إليها سائلةً، وفي تلك الفترة كان فضولي في أوْجِهِ. ربّما أيضاً لم يكن هذا اسمه الحقيقي، لستُ ادري؛ ربّما والدتي وحدها عرفته، أو قد تكون لم تعرفه هي أيضاً. في كل حال لا شك في أنّه أقام مدّة طويلة في الهند أو عاش فيها أيضاً قبل تلك الفترة، إذ كان يتكلّم مع المربّية في الهندية، وكانت هي تعتبر أنّه كان يفعل هذا إطراءً لها. كان يطري المربّية ووالدتي، وكما يبدو، فهذا كان شغله الأساسي. ولم يكن بالنسبة إلى المربّية أكثر من ذلك الحضور المطري وأكثر من ذلك الاسم، فلم يخطر في بالها يوماً أن تقوم بتحقيق، إذ لم يكن هذا من شأنها، فتكتفي بذلك: كان مستر «تيري أرمسترونغ» أو «أرمسترونغ سَهيب» (كما كان والدي «مستر نيوتن» أو «نيوتن سَهيب»، وأنا كنت «مِس كلير» طفلة البيت، وغير ذلك ما من شيء آخر كان يهمّها). دامت علاقة أمّي السرية بـ«تيري أرمسترونغ» وقت علاقتنا عينه، أي سنة ونصف السَّنة، وحتى لو تأخّر والدي في اكتشافها، فيبدو انّه في أي حال عَلِم بالأمر قبل نهاية العلاقة بكثير، وتساهل مع والدتي، أو تحمّلها، أو تظاهر بأنه يتحمّلها، ربّما في انتظار أن يعيَّن في بلد آخر، أو أن يُنقل «أرمسترونغ» ، هذا إذا كان ينتمي فعلاً إلى الهيئة الديبلوماسية (أو إلى أية شركةٍ). فالديبلوماسيون لا يبقون وقتاً طويلاً في أي مكان، كذلك الأجانب الذين لا يقيمون روابط زوجيّة، أنت أيضاً لن تبقى وقتاً إضافياً هنا. وعدم الاستقرار في مكانٍ ما يساعد كثيراً على تحمّل الأعباء، ومَن يدري فإذا كان «تيري أرمسترونغ» حينها في ذهاب وإياب دائمين، وإذا كان يسكن على بُعدِ مئاتِ الأميال، ويقطعها

فقط عندما يتمكّن من ذلك، فعلى الأرجح، والحال هذه، لم يكن الوضع بالنسبة إلى والدي سيئاً إلى حدّ لا يطاق، ما جعله ربّما مستعداً للأنتظار، كما قد يكون الأمر بالنسبة إلى «تيد» الآن في حال كانت لديه شكوك حولنا؛ فقدْ يكون بانتظار أن ترحل. ربّما أنا التي أنتظرك أن ترحل. لست أدري. منذ وقت طويل تخليت عن معرفة أي شيء من والدي، لكن في ذلك الحين عذّبته كثيراً، وقد يكون عاش في اضطراب كبير في حال كان صحيحاً ما اخبرتني إياه المربّية. وعلى الارجح كان صحيحاً.» «ماذا أخبرتك المربّية بعد؟» سألْتُها من عند إطار نافذتي، بينما بدأتُ أتفحّص إسم «تيري أرمسترونغ»، لكن من دون التجرّؤ على التفكير في أكثر من ذلك، في أكثر من الإسم. «تيري أرمسترونغ»، عدتُ وفكّرتُ. الأسماء تعني الكثير. «حَكَت لي المربّية أن والدتي حملت»، أجابت «كلير بايز»، «وأنّها اعتقدت أن الطفل الجديد قد يكون ابن «تيري أرمسترونغ»، على الرغم من عدم يقينها، أو ربّما كانت أكيدة، لكنّها قد تكون آثرت عكس ذلك. مهما يكن، فهذا الشك المصطنع أو الصادق كان كافياً لجعل والدي غير قادر على التساهل وعلى التحمّل. وأنا أكيدة من أنّ والدي عَلِم بذلك، لأنّ المربّية «هيللا» سمعت مقتطفات ممّا كان على الأرجح حديثه الأخير مع والدتي، بل شجارهما الأخير.» إستدارت «كلير بايز» وغيّرت وضعيتها: كانت ساقاها الآن فوق الوسادة، الذقن فوق اليدين، ومرفقاها الاثنان فوق قوائم السرير. فما أراه الآن كان الجزء الخلفي لفخذيها وبداية ردفيها المكسوَّين كلياً بجَورَبيها. وفكّرتُ: «تسمح المرأة بأن تُرى أجزاءٌ من جسدها بعيداً

عن النيّات والخلفيات، فقط عندما تكون ثمة إلفة وحميمية بينها وبين من ينظر، والذي غالباً ما يكون إمّا شقيقاً، وإمّا زوجاً؛ أي عندما تكون ضمن العائلة. أنا لست زوجها ولا شقيقها، إنما عشيقها الأجنبي في طور تخلّيه عن دور العاشق. لكن تلك الليلة أخذت تبوح لي بسرٍ عائلي». «ففي إحدى الليالي، وأنا في الثالثة من عمري، سمعَتْني المربّية «هيللا» أبكي، وكنتُ في فراشي منذ ساعات، وهي قد أوَت إلى فراشها قبل دقائق فحسب. نهضتْ وأتت إليّ، كما فعلتْ في ليالٍ سابقة، لتهدّئني وتواسيني وتغنّي لي أغنية تعيد النوم إليّ، لكنها سرعان ما أدركتِ السبب الوجيه الذي جعلني أستيقظ وأبكي: كان والدايَ قد عادا للتوّ إلى البيت، ومن غرفتهما المجاورة، كان يصدر صراخ، ومن وقت إلى آخر صوتُ خبطةٍ على الارض أو على الطاولة. فارتعبت المربية وأخذت تغنّي على الفور لكي تدفن الصراخ وتسيطر على خوفها، وكان لأغنيتها ولشهيقي معاً أن منعاها من سماع الحديث كلّه، على الرغم من أنّ الأصوات في بعض الأحيان كانت تعلو إلى درجة كانت تعود المربّية فيها إلى ارتعابها، فتضطّر إلى التوقف عن الغناء وإلى سماع جُملٍ متفرّقة بَلَغَتْها رغماً عنها. جُمل قليلة، تحديداً ثمانٍ، ثماني جمل مقتطعة كانت تأتي كل اثنتين معاً، وتلبيةً لطلبي ردّدتها عليّ عدّة مرّاتٍ، حتى بتّ أشعر وكأنّني أنا التي أدركتها بنفسي منذ البداية. في أي حال، لا شك في أنّي حقاً أدركتها حينئذٍ، إلّا أنّه كان من المستحيل أن أتذكّرها كما أنّه من المستحيل مثلاً أن أتذكّر والدتي. إنّما استطعتُ أن أتذكّر تلك الجمل التي في البداية دوّنتُها، ثم في ما بعد علقت في رأسي دون أن

أقوم بأيّ مجهود، وأعرف أن أحد ألاشياء التي قالتها والدتي تلك الليلة، كان بحسب المربّية: «لكني لستُ أكيدة «توم»، قد يكون كذلك ابنك». وأعرف ماذا أجاب والدي: «يكفي عدم اليقين هذا كي لا يكون أبني». وأعرف أنّه في لحظة من اللحظات قالت والدتي: «لستُ أعرف ماذا أريد، ليتني أعرف، لقد تعبتُ من عدم المعرفة». فأجاب والدي: «أمّا أنا فتعبتُ من معرفة ماذا أريد ومن عدم استطاعتي الحصول عليه». أمّا جملة والدتي الثالثة فكانت: «إن كان هذا ما تريده، فسأغادر غداً، شرط أن أصطحب الصغيرة». وأجاب والدي: «لستِ في وضعٍ يخوّلك أن تأخذي أكثر مما ترتدينه ومما تحملينه داخلك، وقد لا ترين «كلير» أبداً بعد الآن». ثمّ لم تلبث أن سمعت المربية آخر ما سمعتْه من والدتي: «إنّني شديدة الإرهاق، «توم»»، قالت والدتي وأجاب والدي: «وأنا من جهتي لم أعد أستطيع تحمّل كل هذا». غنّت المربّية «هيللا» إلى أن عاد النوم اليّ، وأخذت أغنيتها تنخفض شيئاً فشيئاً مع انخفاض الأصوات، وعندما أعادت لي نعاسي وبعد أن هدأت الأصوات، أخبرتني المربية أن باب غرفتي فُتح ورأت ظلّ والدي بين الضوء والعتمة. لم يتخطّ العتبة. «هل عادت ونامت الطفلة؟»، سأل. نظرت إليه المربية ورفعت السبابة إلى شفتيها، فأخفض والدي صوته ليضيف: «تسافر «السيدة نيوتن» غداً باكراً جداً. من الأفضل ألاّ تراها الطفلة وهي تغادر. لذا خذيها لتنام معك الليلة». أُغلق الباب مجدّداً، وبدراية كبيرة، وفي العتمة، ودون أن توقظني، راحت المربية تنفّذ الأوامر وحملتني في ذراعيها وأخذتني الى غرفتها لكي أمضي معها ما تبقّى من الليل.

أعطتني سريرها ونامت على كرسي، مستنفرةً». صمتت «كلير بايز» وتوقفت قليلاً. تركَت السرير العريض الذي كانت هي وحدها تشغله وذهبت إلى الحمام، فلم نكن حميمَين لدرجة تجعلها لا تغلق الباب. ولكن حتى هكذا استطعتُ أن أسمع سقوط السائل فوق السائل الآخر، وبينما كنت أسمعها (ولم اتقصّد ذلك) فكّرتُ مرّة أخرى بذلك الاسم: «تيري أرمسترونغ»، فكّرتُ، وهذه المرة فكّرتُ في شيء إضافي: «اسم «أرمسترونغ» رائج جداً، كذلك اسم «تيري»، الذي لدى الإناث يتحوّل إلى «تيريزا» (أي هو تصغير «تيريزا»)، ولدى الذكور هو «تيرنس». فـ«أرمسترونغ» رائج جداً، وثمة الألوف منه في إنكلترا، وهكذا دائماً كان، مثله مثل «نيوتن»، بل الأخير يفوقه عدداً، أو مثله مثل «بلايك» إلى حدّ بعيد؛ أما هذا الاسم المركّب «كرومر–بلايك» فهو نادر. و«تيرنس» أو «تيري» فهو أيضاً رائج جداً، ولو أنه أقلّ رواجاً من «جون»، أو «توم»، أو «تيد»، والأخير آتٍ من «إدوارد» ومن «تيودور». «أرمسترونغ»، فكّرتُ. «أرمسترونغ كان على الأرجح يعني الذراع القوية».

وعندما عادت «كلير بايز»، جلستْ على السرير وأسندتْ خاصرتيها إلى الوسادة المطوية، وظهرها إلى الحائط. أشعلت سيجارة أخرى وشبكت ساقيها والتنورة عادت وارتفعت. كانت قد بلّلت وجهها، ونظرتُها لم تعد جامدة، لكنّها لم تضيّع حبل أفكارها. «صباح اليوم التالي لم تعد والدتي موجودة في البيت، وقالوا أنّها سافرت وسوف تغيب بضعة أيام. أمّا المربية فظلّت معي، بل ومنذ ذلك اليوم لم تفارقني لحظة واحدة، دائماً بقربي خلال كل تلك السنوات التي

أمضيناها في دلهي، ولم ننتقل إلى مكان آخر، على الرغم مما حصل هناك. من ناحية أخرى لم تستطع الاتصال إطلاقاً بوالدتي ولا بـ«تيري أرمسترونغ» طبعاً، إذ لم تكن تعرف حتى أين تجدهما. أمّا والدي، فأخضعها، خلال تلك الأيام الأولى لغياب والدتي، لرقابة غير مباشرة، مجبراً إياها على أن تبقى معي في البيت كل الوقت، ألّا تتركني لحظة واحدة، وهذا ما فعلَته منذ ذلك الحين؛ فبقيت معي كلّ الوقت ولم تتركني لحظة واحدة، إلى أن غادرنا أخيراً دلهي بعد عدة سنوات وآثرتْ ألّا تأتي معنا. لم تعرف المربية «هيللا» قط ماذا حلّ بوالدتي خلال تلك الأيام الأولى، قد تكون لجأت إلى «أرمسترونغ» وقد تكون لاذت معه بإحد الفنادق أو في بيت أحد معارفه في دلهي، أحد الهنود، وبالتأكيد ليس عند أيٍّ من الجالية البريطانية، حيث كان من الصعب التفسير لرعايا هذه الجالية ما حدث. كان حملُ والدتي بدأ يبرز آنذاك، ثمة شيء بدأ يتغيّر، على حدّ قول المربية، ويتجلّى في ملامح وجهها وفي حجم جسمها وشكله، وربّما لذلك اضطّرت إلى التكلم مع والدي، إلى مصارحته، في تلك الليلة التي حسمت وضعها وأجبرتها على المغادرة. وكذلك لم تعرف قط المربية إن كان «تيري أرمسترونغ» في المدينة عندما غادرت والدتي البيت، تلك الليلة، وإذا انتظرها في صباح اليوم التالي في مكانٍ ما، أم اتى إليها لاحقاً، ما أن استطاع، بعد أن اتصلت به، وما إذا اضطرت والدتي بالتالي إلى أن تبقى في البداية وحدها. وكما كانت تخبرني المربية، لم يبدُ لها يوماً «أرمسترونغ» رجلاً عملياً، إنّما بدا رجلاً حالماً، هكذا كانت المربية تصفه، حالماً؛ هذه كانت الكلمة التي استعملتها. ممّا

كانت تتذكّره عنه وبشكل خاص، مزاجه الجيدّ ونكاته الدائمة. كانت تخبرني أنّه كان وباستمرار يسحب من جيبه قارورة معدنية مفلطحة، وفي غمرة الضحكات كان يقرّبها من شفتي والدتي حتى من شفتي المربية، وكانتا دائماً ترفضانها في مرحٍ، فيما كان يبدأ هو بخطاباته وأطنابه رافعاً القارورة إلى اعلى، ليشرب بفرح جرعات طويلة، نخب أسماء إنكليزية لم تكن تعني شيئاً للمربية، علماً أنها لم ترَه يوماً ثملاً. كانت والدتي تضحك دائماً، تضحك لكل شيء كما يضحك الشباب، وكذلك «أرمسترونغ»: كان دائماً في مزاج مازحٍ، كانت تقول المربية: «إنه عبارة عن ضحكة متواصلة». وبينما كانت «كلير بايز» تتكلم على الرجل الذي كانت تجهل عنه كل شيء باستثناء سمة واحدة من طباعه وإسمه، تركتُ أخيراً مكاني واقتربتُ من السرير، وجلستُ عند طرفه، أرضاً، لكي أسمع أكثر وأفكّر أقلّ. لكنّي كنت لا أزال أعير تفكيري الأهمية، والذي مع ذلك كان وجيزاً ومقتضباً، إذ كل ما استطعتُ أن أفكّر فيه (وأنا أقترب من السرير وألاحظ الرمل في جواربي) هو بكل بساطة اسمٌ فحسب: «تيرنس إيْن فيتون أرمسترونغ». «أربعة أيام بعد ليلة الشجار تلك، رأيناه؛ رأينا «تيري أرمسترونغ». رأيناه أنا والمربية وربّما والدي، علماً بأنه لم يعترف يوماً بذلك وأنا لا أستطيع تذكّره، مثلما لم أستطع من تلقاء ذاتي تذكّر جُمل تلك الليلة لولا تكرارها على لسان المربية، الجمل التي أبكتني وأيقظتني، أو قد أكون نسيتُ ما رأيتُه ولفترة طويلة، وفقط بعد وقت من الزمن، عندما علمتُ بالأمر (من المربية)، وكنتُ قد رأيتُ قبلاً ما رأيتُه، عادت وتشكّلت ذاكرتي (إلى حدٍّ ما)

حول الشيء الذي، على حد قول المربية، أنا ايضاً رأيته بأمّ عينيّ. فمن المحتمل أنه إذا كنت الآن أخبرُ هذا وكأنه ينتمي إلى ذاكرتي، فلأني أصبحتُ أعرفه وأنا أعيد تخيّله على مّر السنين؛ أي أنّني أتخيّله منذ أن أدركته. لكنّني لا أستطيع أن أتناسى، هل تسمعني؟، أعرف أنّني رأيته، وعلى الرغم من أنّني لم أفهمه حينها ولا أتذكّره بفضل الذاكرة، أعتقد أنّني الآن اتذكّره بفضل إدراكي». وبينما كانت «كلير بايز»، التي كانت قبلاً «كلير نيوتن»، تكلّمني على إدراكها أو على ذكرى «كلير نيوتن» الوالدة التي قد تكون حملت قبلاً كنية أخرى لا أعرفها (أو: بينما كانت الطفلة «كلير» تخبرني عن والدتها المتوفّاة)، أنا لم اكفّ عن التفكير باسم «أرمسترونغ»، وفكّرتُ هذه المرة (حين أخذتُ أسمعها تتكلّم على تلك الحادثة الميلودرامية على لسان أحد شهودها): «هذا مستحيل قطْعاً، فـ«أرمسترونغ» اسم رائج جداً، كذلك «تيري»، وثمة الألوف من «تيري» والألوف من «أرمسترونغ» والمئات من «تيري أرمسترونغ»، إضافةً إلى أنه من غير الممكن التحقّق منه إذ ما من أحد يعرف شيئاً عن «تيري أرمسترونغ» الذي لم يترك أثراً بعد عودته إلى «كالكوتا» في الخمسينيات (وبعد عودته إلى «فاستو» في آخر ايامه)، وربّما عاد إلى «كالكوتا» لحفلةِ مجونٍ أخيرة، راحت تتعقّد أكثر فأكثر، أخّرته، وربطته سنة ونصف (فكان ذلك أكثر من مُجونٍ كما تبيّن لاحقاً)، وأخذته إلى دلهي؛ حفلة مجون أخيرة، ولو أنه احتفل بها خمس عشرة سنة قبل موتها (الحفلة)». «كان قد مرّ أربعة أيام فقط، وكنتُ أنا في الحديقة مع المربّية، أنظر إلى النهر في انتظار قطارات المساء، كما سبق أن

أخبرتك، وهذا ما كنت أفعله دائماً منذ صغري، ولم أكفّ إلى أن غادرنا «دلهي». كان والدي في مكان أبعد، عند تخوم الحديقة، قرب البيت، لذلك فمن الممكن أن يكون قد رأى كل شيء كما أنّه من الممكن ألاّ يكون رأى شيئاً. أنا، بلى، رأيتُ ما أعرف أنّني رأيته، ولا أتذكّره اليوم ولم أتذكره في ما بعد، ولا في حينها، ولا حتّى على الفور بعد حصوله: ففي تلك الليلة، أي أربع ليال بعد أن غادرتْ والدتي، وبينما كنت أنتظر مرور قطار البريد القادم من «موراداباد» والذي يصل دائماً متأخراً جداً، ظهر شخصان، امرأة ورجل، يسيران على الجسر الحديد، فوق النهر». الجسر فوق نهر «يامونا» أو «خومنا» الذي وصفته لي «كلير بايز»، فكّرتُ. «الجسر الطويل بقضبانه المائلة والمتقاطعة، والذي في معظم الأحيان يكون فارغاً، معتماً، خاملاً ومتلاشياً، تماماً كما إحدى تلك الوجوه المتفانية والثانوية التي تملأ طفولتنا والتي تبتعد في ما بعد ولكنّها تعود إلينا نضرةً في نهاية العمر، للحظةٍ فحسب، عندما نحتاج إليها ونتذكّرها، لتضيع مجدَّداً وعلى الفور في عتمة وجودها المجهول او الذي نتجاهله، وتتبدّل بعد ان تُكمل مهمّتها الوجيزة أو بعد أن تكون كشفت عن السر الذي نطلبه منها فجأةً؛ تماماً كما المربّية «هيللا» أو الخادمة العجوز التي كانت ترافقنا أنا وإخوتي الثلاثة عبر شارع «خينوبا»، أو «كوبارّوبياس»، أو «ميغل أنخل»: المربّية الهندية «هيللا» والخادمة المدريدية العجوز اللتان تتبدّلان وتمرّان في حياتنا فقط كي يعبر إلينا، من خلالهما، ذلك الطفلُ كلّما احتاج إلى ذلك». وبينما كانت «كلير بايز» تخبرني عمّا رأته وعمّا تتذكّره فقط بفضل

الإدراك، رحتُ أفكّر في ذلك وأنا عند طرف السرير، وفي الوقت نفسه أنظر إلى ساقيها الرشيقتين والصلبتين، ساقيها من الجهة الأمامية، وطرفاً من لباسها الداخلي: «تنظر الطفلة الإنكليزية الآن إلى الجسر الأسود الحديد في إنتظار أن يمرّ القطار، فتراه مضاءً وصورته منعكسة في الماء، وهو أحد تلك القطارات ذات الألوان الحيّة، المشعّة والمليئة ضجةً غير مسموعة، والتي تقطع نهر «ياموناً» كل مساء، أو نهر «خومنا» الذي تنظر إليه بهدوء من بيتها، من عُلوٍّ، عندما يُقبل الليلُ. لكن هذا القطار لا يظهر، وبدلاً منه، يعبُر الآن الجسرَ الغارق في العتمة، شخصان متردّدان وخائفان، يتعثّران على الأرجح بالسكك الحديد، ويدوسان الحصى، شخصان هما «جون غاوزوورث» ووالدة الطفلة التي تنظر، و«كلير نيوتن» الوالدة هي امرأة شابة، بل أصغر سناً من ابنتها هذه الليلة في «برايتون». يسيران يداً في يدٍ، و«أرمسترونغ» هو الذي يدلّ الوالدة على الطريق، وهما يتكئان على قضبان الحديد المائلة والمتقاطعة، ويتمسّكان بها وهما يمشيان، وكأنّهما يخشيان الوقوع في الماء، ولو أنّه من المحتمل أن يكونا من أجل ذلك قد أخذا الجسر، من أجل أن يقعا ويغرقا، أو ربّما لا، ربّما أرادا بكلّ بساطة أن يجتازاه سيراً على الاقدام، ولو بصعوبة، وربّما ايضاً هما هاربان، أو مذهولان، أو مضّطربان، أو ثملان، أو مريضان، وقد لا يعرفان ماذا يفعلان. فسرعان ما تميّز الطفلة شخصَيها في العتمة لأن الاثنين يرتديان لوناً أبيض ولأنّ أحدهما هو والدتها (ولأن تلك التي ستكون «كلير بايز»)، لا تركّز نظرها سوى على هندسة الحديد التي تعلن وصول العربات المطلية

بألف لون). «ها هي ماما»، تقول الطفلة وهي تشير إلى الجسر، والمربّية لا تعيرها أهمية في البداية، فلا ترفع نظرها وتظل تدندن أغنية لا معنى لها بينما هي تخيط، أو تجلس فحسب، مشبوكة اليدين، وتراقب الطفلة التي أُوكلت بها. ترى الطفلة كيف أنّ الرجل، الذي هو ربّما «غاوزوورث»، يتقدّم نحو منتصف الجسر، ووالدتها تتبعه، على الرّغم من أن الطفلة لا تزال تجهل ذلك – سوف تهمس لها به المربّية خلال طفولتها، شيئاً فشيئاً، أما القصة بكاملها فلن تخبرها إياها قبل وقت طويل: لن تخبرها القصة إلى أن تطلبها منها –، إنّهما على الجسر الذي رمى نفسه عنه أكثر من عاشق يائس. لكنّهما قد لا يرميان بنفسيهما، على الرّغم من أنّهما قد أصبحا تلك الليلة، عاشقين يائسين؛ إضافة إلى أنّهما كانا ربّما على الجسر لسببٍ آخر، فمَن يدري؛ بل قد يكون «غاوزوورث» نفسه، والذي يدلّ الوالدة على الطريق، لا يعرف السبب الحقيقي. يُخرج «أرمسترونغ» قارورته المعدنية من جيب سترته البيضاء، لكنّه لا يشرب هذه المرّة نخب احدٍ، ولا يخطب، ولا يقرّبها من شفتي «كلير نيوتن» الوالدة التي كانت دائماً تضحك كثيراً (أي الشفتين اللتين قبّلهما كثيراً)، إنّما يشرب على عجلة بعض القطرات، خفيةً تقريباً عن المرأة التي تحبّه وتتبعه: وهي تنظر إلى الأسفل، بينما هو ينظر إلى الأعلى؛ فقد تكون تعاني من الدوار، ولا تستطيع بالتالي سوى أن تنظر إلى الأسفل، باتجاه النهر الازرق والعريض (أو النهر الاسود، إذ كان الوقت ليلاً)، إضافة إلى أنّها قد تكون الطريقة الوحيدة لكي تعتاد هذه المياه، إذ على الارجح أنّ الوالدة سترمي بنفسها؛ فمن الممكن أن تكون أكثر

إستعداداً منه وقد تتساءل ما إن كان «غاوزوورث»، أو «تيري أرمسترونغ»، سيقفز ايضاً، كما تواعدا ربّما وصمّما. ولا يُخفى على «كلير نيوتن» الوالدة أنّه لا يكفّ عن شرب جرعات من قارورته المعدنية، ربّما لكي يعتاد هو، شيئاً فشيئاً، السائل الذي ينتظرهما؛ كذلك لا يخفى على المربّية، التي أخذت الآن تنظر نحو الجسر لشدّة ما أصرّت عليها الطفلة («انظري، ها هي ماما مع رجلٍ»)، على الرغم من أنها تنظر دون أن تتفوّه بكلمة أو أن تفهم بَعد ما تراه. ربّما تواعدا وصمّما واتفقا في الليلة السابقة، الوالدة والرجل، أو خلال النهار، في غرفة أحد الفنادق، واتفقا على هذا المخطّط («كلير بايز» لا تعرف ذلك، ما من احد يعرف) إذ لم يخطر في بالهما حلٌّ آخر سوى وضع حدّ لكل شيء؛ فـ«غاوزوورث» من النوع التعس ويضلّ بسهولة، علاوة على أنّه غير جدّي ويحب المزح واللعب (هو شارد الفكر وغير حازم): في تعبيرٍ آخر، لا يستطيع أن يقبل أن تحاصره الحياة وتثقل عليه؛ فلا يتقبّل ملك «ريدوندا» أن يكون له ورثة ولا أن يتحمّل مسؤولية أي طفل، ولا حتى مسؤولية المرأة التي يحبّها والتي تحمل في أحشائها طفلاً منه؛ قد لا يستطيع كذلك أن يكون مسؤولاً عنها حتى لو كانت غير حامل بابنه. قد تكون «كلير نيوتن» اتفقت معه على هذا الحل («كلير بايز» لا تعرف هذا، وما من احد يعرف) لأنّها مرتعبة ويائسة، فأمضت ثلاث ليال واربعة ايام وحدها وبدون منزل وربّما بدون فلوس، في فنادق رديئة، أو ربّما أيضاً أمضتها متسكعة في المدينة التي اضحت الآن غير مضياف في نظرها، و«أرمسترونغ» يتأخّرْ ولا يبين وما من أحد ليهتمّ بها؛ ثلاث ليال

وأربعة ايام وهي خائبة، مرعوبة، غير قادرة على استيعاب ما يحدث لها: فهي شاردة الإرادة، غير قادرة على أن تتماسك، ولا أن تؤخّر - تؤجّل الرحيل، فإرادتها لم تعد لها على الإطلاق، وأضحت كإرادة مريضٍ أو عجوزٍ، أو مختلٍّ. هو يشرب، وهي تنظر إلى الماء. والاثنان يتوقّفان عند منتصف الجسر، يترنّحان. «غاوزوورث» يمدّ ذراعه نحوها - ذراعه القوية[٧] - ويحيط بها كتفيها، كما نفعل مع الأشخاص الذين نحبّهم ونحميهم، وبيده يتمسّك بقضيب الحديد المائل والمتقاطع مع قضيب آخر؛ أما اليد الأخرى فكان يمسك بها القارورة المفلطحة، دون أن ينتبه ما إذا فرغت أم لا. ينظر «أرمسترونغ» الآن إلى الأسفل، أمّا الوالدة فتنظر إلى الأعلى، في محاولةٍ منها أن تلمح حديقة بيتها الذي لن تعود اليه، أن تلمح ابنتها، متسائلةً إن كانت الأخيرة تنظر اليها، لكن في الوقت عينه متمنّيةً ألا تكون رأتها، وأن تكون المربية «هيللا» قد أخذتها إلى سريرها فتدندن لها أغنيةً، إذ قد يكون مرّ (في اعتقادها) قطار البريد القادم من «موراداباد» الذي يشير إلى نهاية النهار للطفلة (لكن «كلير نيوتن» الوالدة فاتها أن هذا القطار، اليوم أيضاً، سيتأخر كثيراً). يظلّ العاشقان اللذان أصبحا تعِسين من دون حركة ولا يتابعان سيرهما؛ لا يعبران الجسر كله. ولكن في هذه اللحظة بالذات يظهر وراء المنعطف قطار البريد القادم من «موراداباد»، القطار الذي تنتظره الطفلة الإنكليزية (وذلك كما كل ليلة من ليالي طفولتها، طفولة

(٧)- هنا إشارة من الكاتب، غير مباشرة، إلى اسم ARMSTRONG (ملاحظة ص.ز.)

الحاضر والمستقبل، طفولة الفتاة الأجنبية المقيمة في الشرق)، ذلك القطار الذي يصل دائماً متأخراً جداً (ما من أحد يستطيع أن يحسب موعد مروره، وهذه الليلة لم يحسبه أحد)، والذي لهذا السبب، وعلى الرغم من أنّه بدأ يقترب من محطته، لم يحاول يوماً أن يخفّف سرعته. يوجّه «غاوزوورث» نظره نحو القطار الذي ظهر فجأة أمامه، بينما تسمعه الوالدة يتقدّم (تسمع صوته إضافة إلى صوت الحديد الذي لا تسمعه الطفلة) ولا تحتاج إلى النظر إليه، بل تنظر مجدداً إلى الماء فحسب. القمر متحرّك ومتألّق. لكن «أرمسترونغ» يرفع عندئذٍ ذراعه التي كان يحيط بها كتفَي «كلير نيوتن» الأولى، فيحرّرها ويطلقها، وبيديه الاثنتين - باليدين اللتين قادتا الطائرات واللتين ستشحذان في ما بعد - يتمسّك بقضبان الحديد المائلة والمتقاطعة ويلصق جسده بها، وقد أفاق من سكره فجأةً، والقارورة فلتت منه ووقعت، وعيناه محملقتان ومذعورتان كما عَينا كلب «ألاَن ماريوت» عندما أخذوه ليقطعوا قائمته اليسرى، القائمة الخلفية، في محطة «ديدكوت». «كثيرة هي الأشياء التي تشدّنا إلى الحياة»، قد يكون فكّر «غاوزوورث» وهو متمسّك بقوّة بقضبان الحديد، «لكن كل شيء جائز». أو ربّما لا يفكّر في هذا، فهو يعرفه. قد تعرفه أيضاً الوالدة، ومع ذلك تتحمّل حتى اللحظة الأخيرة، وجسمها قريب جداً من السكّة - جسمها الذي بدأ يكبر حجمه، على الرغم من أن ما في داخله ليس بعد ولن يكون، الشقيق الأصغر لـ«كلير بايز» - ولا تفعل ما يفعل «أرمسترونغ»، فالعاشقان لا يفعلان الشيء عينه، وبدلاً من أن تتمسّك بقوة، وعلى غراره، بقضبان الحديد، تقع الوالدة أو

تقفز في الفراغ الذي بين تلك القضبان، ترمي نفسها في الماء بفستانها الأبيض (أبيض مثل شعر «كرومر-بلايك»)، وشعر «رايلندز»، ومثل ثديَي «موريل»، تلك السمينة من «يتشوود فورست» الّتي ليست في الحقيقة سمينة)، وكان اسمها «كلير نيوتن». وبينما تقفز «كلير نيوتن»، و«تيري أرمسترونغ» لا يقفز، يمرّ القطار ليحتلّ الجسر الحديد كلّه، من الطرف إلى الطرف، مضيئاً النهر بنوافذه الصغيرة (ورجال الزوارق يفقدون توازنهم وهم ينظرون إلى الأعلى)؛ وهذه الصورة الأخيرة للقطار المضاء هي التي عادةً ما تساعد الطفلة على النوم وعلى تقبّل وجودها في هذه المدينة التي لن تشعر بإنتمائها إليها إلّا عندما تكون غادرتها والتي لن يتسنّى لها في ما بعد تذكّرها جهاراً إلّا مع ابنها أو مع عشيقها، إذ العشّاق كما الأبناء يصلحون، بشكل أساسي، للإستماع إلى قصّتنا. تقع الوالدة ويرافقها شعور الهبوط، والحِمْل، والدوخة، والسقوط والحَبَل والوزن، والشعور بجسمها الذي بدأ حجمه يكبر وبوجهها الذي تغيّرت ملامحه، وبسمنتها التي ليست بسمنةٍ، والشعور بأساها. وترى عينَي «غاوزوورث» - وهما الآن مغلقتان وليس فيهما أية نظرة من أي نوع، وذلك منذ سنين - تريان كيف يقع ويغرق جسم التي كان يحبّها؛ وتتأمّل الطفلة «كلير» من الأعلى كيف يختفي في المياه الزرقاء، مياه ذلك النهر البرّاق والصافي ليلاً، جسم التي كانت تحبّها - أي والدتها التي لا تستطيع أن تتذكّرها هذه الليلة في «برايتون» (لا تتذكّرها من تلقاء ذاتها، إنّما من خلال قصة المربّية) - وربّما يلاحظ الوالد أيضاً، من عند طرف الحديقة، قرب البيت،

كيف يتأخر في العوم على سطح المياه، جسم التي كان لا يزال يحبّها، ولا يعوم. (الثلاثة يرون كيف تقتل نفسها المرأة التي يحبّونها.) أما المربية «هيللا»، التي كانت ترى كيف عجز رجال الزوارق عن العثور على الجسم المحبوب الذي جرفه التيار، فهي التي ستبوح بالسرّ، إذ لن يبوح به «تيري أرمسترونغ»، ولا الوالد، ولا الجسر الحديد الذي فوق نهر «خومنا». وبعد أن مرّ القطار، غَرُبَ عن ناظرَي «كلير بايز»، التي كانت آنذاك «كلير نيوتن»، القنديل المتأرجح في العربة الأخيرة التي ودّعتها بيدها، الوداع الذي لم تقم به لكي تتلقى رداً إذ إنّ الشخص الذي كان يستطيع الردّ لم يعد موجوداً، إذاً بعد أن مرّ القطار، بقي الجسر فارغاً، كما كان، ليغرق مجدداً في العتمة، وليعود إلى كسله وتلاشيه. بقي فوقه فقط، وخلال بضع ثوانٍ، الظلّ الأبيض الآخر، الذي ربما تقيّأ في نهر «يامونا» على غرار شحاذ أوكسفورد الذي تقيّأ في نهر «إيزيس»، قبل أن يبتعد راكضاً ومذعوراً، آخر ملوك «ريدوندا» هذا، أي الكاتب «جون غاوزوورث»، الكاتب الحقيقي الذي لن يعود إلى الكتابة ولن يترك أثراً له، أو قد يترك قارورة مفلطحة فحسب، قارورة ربما لا تزال هناك منذ تلك الليلة، إنّما مفلطحةً أكثر ممّا كانت، صدئة وفارغة، بين السكك الحديد».

وعندما انتهت «كلير بايز» من السرد، نهضتُ عن الأرض وعدتُ إلى نافذتي وللنظر من خلالها، وفكّرتُ: «لكن هذا لا ولن يجوز؛ هذا مستحيل».

هي تركت السرير واقتربت من مكاني، وأخذنا ننظر معاً

وبصمتٍ من خلال تلك النافذة حيث كنا نرى بعيداً ذلك التقليد الوهمي لقصور بلد طفولتها: كان القمر وكانت الغيوم؛ كان صدرها يلامس ظهري. ولامستْ «كلير بايز» بيدها عنقي، وأنا استدرتُ نحوها وتناظرنا وكأننا أصبحنا عيون واحدنا الآخر، العيون الساهرة والرؤوفة، تلك القادمة من الماضي والتي لم تعد تثير اهتمامنا إذ باتت تعرف كيف عليها أن ترانا، وذلك منذ وقت طويل: ربّما ننظر واحدنا إلى الآخر كأننا شقيقان راشدان فنأسف لأنّنا لن نستطيع أن نتحاب أكثر من ذلك. ولم أستطع في تلك اللحظة سوى أن أتذكّر بعض الأبيات التي كنت قرأتُها بمثابة مرجع وتنويه، أبيات كاتب إنكليزي آخر (وخلافاً لغاووزوورث) كنّا نعرف عنه الكثير، ما عدا ما يتعلّق بموته الغامض العنيف والأسطوري، وعلينا أن نتخيّله، كما نتخيّل موت «كلير نيوتن»: مات طعناً بالسكين، ولم يكن أكملَ بعد الثلاثين من عمره، خلال فصل ترينيتي، وتحديداً في الثلاثين من شهر أيار، وذلك قبل أربع مئة عام، في «دبتفورد» Deptford، التي قد تعني سفينة عميقة، قرب نهر الـ«تايمز»، وهو كنهر «إيزيس» الذي يعرفونه في كل مكان وزمان ما عدا عند مروره في أوكسفورد. وفكّرتُ:

“thou hast committed fornication: but that was in another country, and besides, the wench is dead.”

أو ما يعادله: «لقد ارتكبتَ الفسوق: لكن هذا حصل في بلد آخر، وإضافة الى ذلك، الشابة ماتت.»

في اليوم التالي، عندما أوصلتني «كلير بايز» في سيارتها أمام باب

بيتي في أوكسفورد (وعلى الرغم من أن الوقت لم يكن ليلاً فلم نعد نختبئ من عيون الناس)، رأيتُ في تلك اللحظة بالذات، أن بائعة الزهور الغجرية التي كانت تجلس، أيام الاعياد، قبالة نافذتي، كان قد أخذها زوجها اللامرئي في سيارته النظيفة والحديثة. هذا يعني أنّ النهار شارف على نهايته على الرغم من أنّ الشعاع الربيعي ظلّ ثابتاً، معلّقاً حيث هو وفاتراً، وعجلة العالم الهشّة أضحت على وشك أن تعود إلى حركتها، والسكون أوشك أن ينتهي. وفرحتُ عندما لاحظتُ أنّني لم أمضِ هذه المرّة يومَ أحدٍ آخر منبوشاً من الأزل.

مات اثنان من الثلاثة، منذ أن غادرتُ أوكسفورد، لكن لم تكن «كلير بايز» أياً منهما، إنّما هما «توبي رايلندز» و«كرومر–بلايك»، كما كان متوقّعاً. أمّا من كان بمثابة الأب والأم بالنسبة إليّ، وكان مرشدي في تلك المدينة، ومات بعد رحيلي بأربعة أشهر، فلم يعرف فصل «مايكلماس» آخر ولا أي فصل تدريسي آخر، وهكذا، أضحى فصل الـ«مايكلماس» الثاني والأخير بالنسبة إليّ وأيضاً الأخير بالنسبة إلى الدكتور «كرومر–بلايك»، على الرغم من أنّه امضى وقتاً أطول بكثير مني في ذلك الماء. مات «توبي رايلندز» بعد «كرومر–بلايك» بسنتين (وبالتالي فهو مات منذ شهرين فقط)، وهو الذي بلّغني الخبر من خلال رسالة مستعجلة، وكان قد احتفظ بيوميّات «كرومر–بلايك» التي لم تلبث، عند وفاته هو أيضاً وحسبما جاء في وصيته وبناء على رغبته، أن سافرتْ إلى الجنوب لكّي أكون أنا مَن سيحتفظ بها. كانت رسالة «رايلندز» مقتضبة جداً، وكأنّه لا يريد التكلم كثيراً عمّا حصل وعمّا كنّا فعلاً نتوقّعه، ولا عن الذي أصبح، بعد وفاته، المرآة التي لم يرد أن يرى نفسه فيها: كما لو أنّ «رايلندز» هو من لم يكن الآن مستعدّاً لزيارة «كرومر–بلايك» وقبره وتذكاره.

دُفن «كرومر–بلايك» في لندن، أي في مسقط رأسه في الشمال، ولم يضطروا إلى جمع التبرعات لتسديد مصاريف مأتم ذلك الذي لم يبلغ منصب الـbursar؛ لم يكونوا كثراً الذين حضروا المأتم، بل

أتى الزملاء فقط (وما أشدّ وفاءهم، ما أكبر نخوتهم) في الـ«تايلوريانا». كان الكاهن الذي صلّى عليه وقال العظة، قليل اللياقة عندما طلب من الأطفال الموجودين في كنيسة «ماربل آرش» Marble Arch الكاثوليكية أن يغادروها، وهم أولاد زميلين سابقين قد رافقوا أهلهم لإغتنام فرصة الخروج من البيت يوم السبت لقضاء بقية النهار في حديقة الحيوانات في لندن. حضر فقط من عائلة «كرومر–بلايك» (كان أبواه لا يزالان على قيد الحياة، وله شقيقٌ أعزب وشقيقة متزوجة) شقيقه «رودجر»، الذي خرج، كما يبدو، على عجلة من أمره في سيارة رياضيّة (ربما سيارة «أستون مارتن») ولم يبقَ في الكنيسة سوى مدة الصلاة، ولم يلق التحيّة على أحدٍ. أمّا صديقه «بروس» فلم يحضر؛ كذلك «دياناند» الذي كان «كرومر–بلايك» قد ابتعد عنه نهائياً في أشهره الأخيرة، وحسب ما جاء في يومياته التي قرأتُها كاملةً ولم أفهم منها سوى بعض المقاطع. ومن الكولدج حيث درّس، حضر بعض الأعضاء؛ إلاّ أنّ الـ«واردن» الـ«لورد رايمر»، الذي يدين له بخدمات جمّة – والذي كان يتفق معه كثيراً – فلم يحضر؛ أمّا عالم الاقتصاد «هاليويل» فقد أتى، لكن الجميع هربوا منه عند نهاية المأتم كي لا يضطّروا إلى الاستماع إلى الموضوع ذاته الذي دائماً يكرره. نُشر خبر موت «كرومر–بلايك» «في جريدتين وطنيتين، والاثنتان كانتا غير لطيفتين»، كما قال «رايلندز» بغموض. كان البروفيسور المتقاعد مقتضباً في رسالته، والواضح أنه كتبها على عجلة من أمره لكيّ ينتهي من هذا الواجب في أسرع وقت ممكن؛ لكنّه بدا منفعلاً. «كان «كرومر–بلايك» يعلم

بمرضه منذ سنة تقريباً؛ علِم في كانون الأول الماضي. كم كان شجاعاً. حمل حتفه أمام العالم بكل هدوء ولم يُظهر قلقه؛ هذا ما يقوله كل اللذين ظلّوا يرونه. فكم نفاجأ أحياناً بأناسٍ نخالهم ضعفاء لنكتشف من ثمّ أنّهم يتمتعون بجرأة كبيرة. كم هو أمر محزن. لا أكفّ عن التفكير فيه». هذا كل ما أتى في الرسالة المستعجلة حيث كتب لي فيها بعض العناوين في لندن كي أرسل، في حال رغبتُ في ذلك، هبةً إلى مؤسسة خيرية في ذكرى «كرومر-بلايك».

لم أرسل شيئاً على الرغم من أعتقادي بأنّي كنتُ سأفعل. الحقيقة أنني حاولتُ أن انسى موته منذ أن علمتُ به، واستطعتُ النسيان إلى حدٍّ ما، إذ ليس هذا بالأمر المستحيل عندما يكون الميت بعيداً، والحيّ قد بدأ ينتمي إلى الماضي. المرّة الأخيرة التي رأيته فيها كانت صحّته متأرجحة، أو بالأحرى سيئة. بكل لطفٍ، وهكذا كان دائماً يتصرّف، اقترح أن يرافقني في سيارته، مع كل ما كنتُ سآخذه من حقائب كبيرة جداً ومليئة كتباً، إلى المحطة التي كنت سأتوجّه منها إلى لندن ومن ثم إلى باريس، في القطار وفي الـ«هوفركرافت» وفي قطار آخر، ومن هناك إلى مدريد، أي نحو الجنوب. إلاّ ان حالته ساءت خلال الليلة التي سبقت سفري، فاتصل ليقول لي أنه يفضّل عدم الخروج في اليوم التالي من بيته. ما جعلني أترك تحضيرات السفر جانباً بعض الوقت، وأتوجّه الى الكولدج لأودّعه. على الرّغم من أنّنا كنّا في أواخر حزيران وكان الطقس بالتالي لطيفاً جداً، استقبلني ممدداً على الكنبة ومغطىً بحرام مقطّع على شكل مربّعات، كأنّه «ساسكيا» عينها: الحرام المقطّع، وثوب الأساتذة يتدلّى وراء الباب،

أسود وطويلاً جداً، كما يتدلى ثوبي الآن في بيتي في مدريد. كان قد فقد شيئاً من تنكّره التجميلي السابق. كان التلفزيون مُشعلاً: مشهد أوبرا من دون صوت. قال أنه يشعر بالبرد، وأنّ حرارته مرتفعة بعض الشيء، ولا أتذكّر عمّا تكلّمنا؛ نسيتُ كما تُنسى الأشياء التي لا نعيرها اهتماماً في حينها، الأشياء التي لا تهزّ مشاعرنا إذ عندما نقوم بها لا نعرف أن ما نقوله أو نفعله – أو ما نراه – ينطوي على معنى وعلى وزنٍ. وحينها، لم يكن ينطوي ذلك الوداع على أيّ منهما، أو ليس تماماً، لأنّني ربّما أردتُ أن أفكّر أن «رايلندز» كان قد بالغ في تنبؤاته بشأن صحة «كرومر–بلايك» (بدا لي «كرومر–بلايك» فعلاً غير قلقٍ على الإطلاق)، بل كان كل تفكيري في سفري وفي ما ينتظرني (في المستقبل المتألق والرتيب على حدّ سواء) أكثر من تفكيري في ما اتركه (أي الماضي وغبشه وتعثّره وانكساره). أتذكر فقط أنِ شحوبه الذي طالما لازمه كان تلك الليلة على أشدّه، لكنّه ظلّ يلقي نظرات لا ارادية على الشاشة حيث صوت «فالستاف» Falstaff يدوّي بصمتٍ؛ إلاّ أن هذا الأمر لم يكن استثنائياً: فعادة ما تكون وجوه الأسياد شاحبة خلال فترة الامتحانات. وكان لون وجهه تلك الليلة، وإلى حدّ ما، من لون شعره الذي شاب مبكّراً، والذي راح في كل مرة يزداد بياضاً. لم أُطلْ زيارتي، فالوقت كان متأخراً؛ كان عليّ أن أنهي التوضيب وربّما كان هو يرغب في الاستماع إلى «فالستاف».

آخر ما دوّنه في يومياته التي في حوزتي الآن، كان وجيزاً وغير متّقد؛ كان يكتب سطرين أو ثلاثة، كلّما كتب، وبالتأكيد لم يحصل

هذا كل يوم. ففي ٣ أيلول يقول: «اليوم عيد ميلادي. بلغتُ الثامنة والثلاثين. لم أعد شابّاً. قدّمت لي «كلير» كنزة صوف هي حاكتها. أما «ب» فلم يهدني شيئاً؛ نَسِيَ.» وبعد ثلاثة أيام، في ٦ ايلول، يستهلّ باقتضاب: «ب» يريد أن يقيم في لندن. في مدينتي؛ لا أفهم. هذا جنون. فلندن تبدو لي بعيدة جداً على الرغم من أنّها على مسافة ساعة فحسب». ثم لا يكتب شيئاً حتى ١٢ من الشهر عينه: «بدأتُ أقرأ اليوم مجدَداً «دون كيشوت»، وأرجو أن اتمكّن من إنهائه قبل نهاية الأسبوع القادم. وربّما يجب أن أبدأ بالجزء الثاني.» ثم في اليوم ١٤: «سبعة أيام وينتهي الصيف. تعبتُ من صحتي السيئة ومن الصيف». وفي ٢٠ أيلول يتكلم عني: «اليوم عيد ميلاد عزيزنا الإسباني. بلغ الرابعة والثلاثين، وفي الحقيقة هو كذلك لم يعد شاباً. اتصلتُ به في مدريد، لكنّه كان خارج البيت». (وهذا صحيح، فلم أكن في البيت في ذلك اليوم، ولا حتى في مدريد، إنّما في «سانلوكار دي باراميدا» مع «لويسا» التي أصبحت اليوم زوجتي، والتي قد تعرّفتُ إليها في مدريد قبل شهر من ذلك اليوم). يعود تاريخ التعليق التالي إلى ٢٩ ايلول ويبدو منسوخاً عن دفترٍ أو عن روزنامة، إذ كل ما يقوله: «سان ميغيل وجميع الملائكة. الأحد السابع عشر بعد عيد الثالوث (الأحد الثامن عشر بعد العنصرة). اليوم الأول للفصل الدراسي. الشمس تشرق في الساعة ٧,٠٢، وتغيب في الساعة ١٨,٤٧. البدر يطلّ في الساعة ٠,٠٨» ثم في الأيام اللاحقة لا يكتب شيئاً ليعود في ٧ تشرين الأول: «يطلع الهلال في الساعة ٥,٠٤. اتصل «توبي»، واخترعتُ له حججاً كي أثنيه عن زيارتي.

مسكين هذا العجوز، لا يفهم شيئاً». وفي ١٤ تشرين الأول: «الهلال في الساعة ٤,٣٣ . اليوم تبدأ «مايكلماس» والصفوف، ولا أستطيع أن أعطي دروساً. كان لطفاً كبيراً من قِبل «ديوار» و«كافاناخ» أن يقترحا عليّ أنهما سيعطيان الدرس مكاني إلى أن أتحسّن». أما التعليق الاخير فدوّنه في ١٧ من الشهر عينه قائلاً: «سانتا اثلدريدا» Santa Etheldreda، ملكة «نورثومبري» Northumbria رغماً عنها، هذه الحمقاء جداً. بعد بضع سنوات سيجدون دواءً لهذا المرض، حتماً، يا لها من حماقة! كم تعبتُ!» مات في ١٩ من ذلك الشهر، وكان الأحد العشرين بعد عيد الثالوث (الواحد والعشرين بعد العنصرة) وهو أيضاً يوم «سانتا فرايدزوايد» Santa Frideswide (أقلّه في أوكسفورد). أشرقت الشمس في الساعة ٧,٣٨ وأغربت في الساعة ١٨,٠١، وكان القمر هلالاً، وظهرَ في الساعة ٢٠,١٣. رأى «كرومر-بلايك» الهلال الأول والثاني، لكنّه لم يرَ هذا القمر.

حول ميتة العجوز المسكين لا أعرف الكثير أو تقريباً لا شيء، إذ لم يكن ثمة «كرومر-بلايك» ليخبرني، لم يعد ثمة أحد ليقول «كم هذا محزن!». أمّا «كافاناخ»، كونه أكثر ديناميكية وحداثة من «رايلندز»، فاتصل بي هاتفياً إلى مدريد قبل شهرين ليبلّغني النبأ، ولم يلجأ إلى الرسائل البريدية المستعجلة وإلى فكرة التبرعات، على طريقة «رايلندز». لكنّه من ناحية اخرى أرسل لي ايضاً يوميات الميت الأول. لكنّي أعلم أن «رايلندز»، وخلافاً لـ«كرومر-بلايك»، لم يدرك موته مسبقاً، إن كان لهذا الكلام أي معنى على الاطلاق. ما

أريد قوله هو أنّه لم يكن مريضاً؛ قبل ذلك لم يكن في المستشفى؛ إنّما في البيت، وتوقّف قلبه فجأة؛ هذا كلّ شيء. لم أعرف كم كانت الساعة وقتها، ولا أين كان، ولا ماذا يفعل. قد تكون «السيدة بيري» نادته لتناول الطعام، وعندما لم يأت إلى المطبخ، قد تكون «السيدة بيري»، وبشيء من الحدس، توجهت نحو حافة نهر «تشرويل» بحذرٍ، حيث قد يكون «رايلندز» كعادته جالساً على كرسي ذي مساند، بغية التمتع بشمس الخريف. أو ربّما لم تحتجْ إلى الاقتراب من النهر، اكتفت «السيدة بيري» الشديدة التيقّظ، ومن نافذتها، برؤية الجسد الضخم والمحدّب يتدلّى رخواً وبلا حراك على الكرسي. وقد تكون رأت كأس الـ«خيريث» مرمية على العشب ونظرته خالية من القوّة والألوان وكنزته الصفراء مجعلكة. لستُ أعرف، لا يهم، فهذا محزن جداً.

لم يمّر وقت كثير منذ أن غادرتُ أوكسفورد، لكن كل شيء يبدو الآن بعيداً. تغيّرت أشياء كثيرة، أو بدأت، أو انتهت، منذ ذلك الوقت (تقلقني الآن، وأيضاً تفرحني أشياء اخرى، كمشاريع المتعهد «إستيفيث» الكبرى، وزوجتي «لويسا»، وابني الجديد). أمّا «رايلندز» فلم ينشر أي كتاب حول A Sentimental Journey، ويبدو أن بين أوراقه كذلك لم يُعثر على أية مخطوطة قد يكون لها صلة بذلك النص الذي كلّمني عنه ذات يومِ أحدٍ من نهاية فصل «هيلاري». وبالفعل لم يجدوا له أي نص كُتب في السنوات الأخيرة ولا أية مخطوطة. فإمّا أنه أتلف تلك النصوص، أو أنّها لم تُكتب إطلاقاً، وقد يكون أمضى تلك السنوات، أي منذ تقاعده، دون أن

يكتب سطراً واحداً، وعاش ربّما في الخمول، يتأمل النهر الذي مثّل في كل العصور صورة مرور الوقت، وهو يشاهد أحد البرامج على التلفزيون، وينادي أوزّاته العقوقة، ويرمي فتات الخبز لبطاته اللطيفة، ويتسلّم عبر البريد رسائل الإعجاب والإجلال التي كانت يوماً بعد يوم تفتقر إلى الصدق. قد يكون كَذَب بشأن الكتاب ذلك الأحد عندما باح بكل تلك الحقائق. وربّما كذب في شأن كل شيء، لستُ ادري، وهذا لا يهمّ، فحياتي تجري الآن في إتجاهات أخرى وأعتقد أنّني لم أعد الشخص نفسه الذي كنته خلال سنتَي إقامتي في أوكسفورد. فلم أعد مضطرباً، علماً بأنّ اضطرابي لم يكن آنذاك مهمّاً؛ فكان طفيفاً وموقتاً ومرناً ومنطقياً، كما سبق أن قلتُ، أي كان من نوع تلك الاضطرابات التي لا تمنعنا من متابعة العمل ولا عن التصرف بطريقة عاقلة، ولا من أن نكون جدّيين، ولا من التعامل مع الآخرين كما لو أنّنا لا نعاني من شيء؛ كان إذاً ذلك النوع من الاضطرابات التي لا يلاحظها سوى الشخص الذي يعيشها، تلك التي تخالجنا جميعاً من وقتٍ لآخر. وكل هذا أضحى بعيداً جداً، وصِلتي الأساسية، الآن وقد مات أيضاً «رايلندز» بعد «كرومر–بلايك»، ومع «كافاناخ» و«ديوار» لا مجال للمراسلة، صلتي الوحيدة هي الاشتراك الذي لا أزال أدفعه، وأنا في مدينتي، لـ«ماشن كومباني»، ومقابل هذا الاشتراك مع ما أدفعه من مصاريف إضافية، لا أزال اتسلّم كل بضعة أشهر نسخة من المجلّة، في حلّة بالغة الدقة، ولها علاقة بـ«ماشن» أو بدائرة أصدقائه؛ وبين أولئك الأصدقاء يُدرج أحياناً اسم «غاوزوورث» دون أن تُذكر أية معلومة عن حياته:

علماً بأنّي لم أودّ يوماً أن أعرف هذه المعلومات حتى لو نُشرتْ، ولذلك لم أشترِ يوماً أياً من تلك الكتب الثمينة، وهي نادرة جداً، والمتعلقة بالملك من دون مملكة والتي رأيتُ مرة عناوينها مُدرَجَة في الكتيّبات المميّزة التي لا يزال يرسلها لي اصحابي بائعو الكتب العتيقة، على قلّتهم في أوكسفورد كما في لندن (علماً بأنّه لم يُذكر يوماً عنوان Above the river الذي كان نشره وهو في التاسعة عشرة وكان مهتماً به «ألان ماريوت»). أعتقد أن تلك المناشير عن الـ«ماشن كومباني» كان «ماريوت» هو الذي يضعها شخصياً في الغلاف ويرسلها، لكنّي لستُ متأكداً إذ لا يُضاف حرف أو كلمة على تلك الطرود التي تحمل طوابع فقط من مختلف المدن (تشيبنهام Chippenham، ليمنغتون Lymington، سكاربورو Scarborough؛ يبدو أنه رحّالة كبير). بعد زيارته لي، لم يعد «ماريوت» يطاردني كما كان يفعل سابقاً، الأمر الذي كان يجعلني ألتقيه في كل مكان؛ لم يعد يبحث عنّي، هذا أكيد. لم أرَه إلاّ من بعيد، يجرّ وراءه كلبه الاعرج، وذلك مرّتين فقط خلال سنتي الثانية في أوكسفورد، لكنّي لم أقترب لأسلّم عليه كذلك هو أيضاً لم يقترب منّي. فكل ما كان يودّه آنذاك، هو صيد عضو جديد لشركته، يساهم فيها مالياً عبر اشتراك دائم، دون أن يكون هذا العضو شخصية مرموقة.

غادرتُ وحدي أوكسفورد بمجرد المصادفة، وليس عندي أي شكوى: لم يستطع «كرومر–بلايك» مرافقتي في سيارته، وكان الوقت متأخراً جداً لكي أطلب هذه الخدمة من زميل آخر؛ وبالمناسبة كنت قد ودّعتُ زملائي قبل ثلاثة أيام في حفلة صغيرة. لأنني، إضافة

إلى ذلك، كنتُ سأغادر باكراً جداً في صباح اليوم التالي، طلبتُ سيارة أجرة، ثم نظرتُ إلى الكيس، وربطتُه، وحملتُه، كيس القمامة الأخير، عملي الأخير. خرجتُ وأقفلتُ بيتي الهرمي الشكل بطوابقه الثلاثة، ورميتُ المفاتيح داخل البيت عبر فتحة الباب التي تُستعمل للبريد (وقعت المفاتيح على السجّاد فلم أسمع رنينها)؛ وصعدتُ إلى القطار دون أن أومئ بيدي لأحدٍ. ولدى مروري بـ«ديدكوت»، وعندما توقّف القطار دقيقة، نظرتُ من خلال نافذة المقصورة، وكنتُ لا أزال نعساً أثناء تلك الدقيقة، لمحتُ على الرصيف المقابل (رصيف القطارات المتجهة إلى أوكسفورد) «إدوارد بايز» يضحك وهو بصحبة امرأة: كان يغمرها، ولأنّها غمرته بدورها، لم أستطع سوى أن أراها من الخلف. كانت شقراء، وكان شعرها قصيراً؛ كانت تمسك بيدها سيجارة؛ وبسبب وضعيّتها هذه، وضعيّة العشق، كانت ربّما قدماها غير مرتاحتين عند الكاحلين الرقيقين (وربما الجميلَين). لم تكن هذه المرأة «كلير بايز»، لكنّي لا أجرؤ من ناحية أخرى على القول بأنها فتاة محطة «ديدكوت»، حتى لو كانت هي نفسها الآن في محطة «ديدكوت». ولا أظّن أنّني كنتُ سأقولها حتى لو رأيتُ وجهها - هذا لو استدارت - الذي كان في ذلك الحين ضبابياً ومختلَطاً مع وجوه أخرى، كما هو الآن في ذاكرتي. ولم أُصَبْ بصدمة إذ شعرتُ بأن هذه الاشياء لم تعد تعنيني (فلم أراقب المشهد باهتمام: وضعتُ حاجباً بيني وبينه)، وفقط خطر في بالي عندئذٍ أنّ «تيري أرمسترونغ» كان ربّما أيضاً متزوجاً في الخمسينيات. لهذا السبب أعتقد أنّني لم أقلق على «كلير بايز»؛ لأنّني كنتُ دائماً واثقاً ولا أزال، أنّها ستعيش

دوماً مع زوجها. ثم وضعتُ نفسي، كما سبق أن فعلتُ في مرات أخرى، مكانه (مكان الزوج)، وفكرتُ فقط بهذا، وأنا أقاوم نعاسي الشديد: «آمل ألاّ يلتقيا «روك» لدى صعودهما إلى القطار، إذ سوف يقضيان وقتاً شاقاً وقلقاً وسيتوقّفان عن الضحك، إذ هذه ليست ساعة عادية للعودة إلى أوكسفورد». كانتِ الشمس قد أشرقت عند الساعة ٤,٤٦ ولن تغيب قبل الساعة ٢١,٢٦، ولستُ أدري إن كان القمر سيطلّ. في كل حال لن أشاهد بعد الآن ذلك النور المعلّق والفاتر، كما إنّني لن أسمع صلصلة الأجراس المزعجة عند هبوط المساء.

اما الآن فالنور يتحوّل تدريجاً، هنا في مدريد، وعليّ أنا أيضاً، بدوري، أن أدفع أمامي أو أن أجرّ ورائي، أحياناً، عربة طفل، طفلي، في حديقة «ريتيرو» العامة، عند هبوط المساء. لذلك أصبحتُ أشبه الآن أكثر «كلير بايز» التي كانت تمسك ابنها «إريك» بيدها، كما أشبه «ماريوت» الذي كان يجرّ كلبه الأعرج، وأشبه «جاين» بائعة الزهور الغجرية التي كانت تجرّ بضاعتها على الرصيف دون أن ينزل يوماً زوجها من سيارته ليساعدها، وأشبه أيضاً ذلك الشحاذ العجوز الذي كان يحمل أرغنه ويعزف عليه، هذا الأرغن الذي استطاع أن ينقذه من محرقةٍ في مرفأ «ليفربول». كذلك أشبه «غاوزوورث» الذي كان يجرّ عربة أطفال فيكتورية في جادة «شافتسبوري أفينيو»، عربته تلك المليئة جعةً، ويسير بخطىً هادئة نحو العتمة. لكن يمكنني القول ان الشبه بيني وبينه هو أقل من شبهي بالآخرين، لأنّ الحياة في النهاية كانت معي ألطف، فأحاطتني بهذا الطفل وحمّلتني مسؤوليته، هذا

الطفل الذي أنساه أحياناً والذي لا أعرف عنه شيئاً بعد، ولا أعرف حتى إن كان يشبهني أكثر مما يشبه أمّه أو العكس، أمّه التي أقبّلها كثيراً. أمّا «ديوار» فلا أشبهه، كذلك الأمر بالنسبة إلى «رايلندز» و«كرومر–بلايك» لأنّهم لم يكونوا يدفعون أو يجرّون شيئاً. إضافة إلى ذلك، فـ«كرومر–بلايك» و«رايلندز» ماتا، وهذا يجعل الشبه بيني وبينهما يضمحلّ: هما لا يحلمان أما أنا فلا أزال أحلم بالمستقبل: بالمتعهد «إستيفيث» وبزوجتي «لويسا» وبالطفل الجديد الذي سيبقى من بعدنا مبدئياً وسيعيش أكثر منّا جميعاً، أكثر من الطفل «إريك». كل من عرفت في أوكسفورد لا يزال على قيد الحياة. «كلير بايز» حيّة، وسيكون لها عشيق آخر ولا أتراسل معها. «دياناند» الطبيب الهندي حيّ، ولو أنّه لم يعد يبقى أمامه وقت كثير كما يبدو. «كافاناخ» حيّ، ويأتي من وقت لآخر إلى مدريد وهو الذي يزوّدني بأخبار المدينة الجامدة والمحفوظة في الماء والسكّر، ويخبرني عن الماء. «ديوار» حيٌّ ميّتٌ، وسيَتْلو قصائد في ثلاث لغات، في غرفته على إنفراد، حيث يختلط صوته برنين تلك الضجة البيضاء، وقد نسيني. «ويل» البوّاب العجوز لا يزال أيضاً حياً، وبنظرته الصافية (تلك التي لا نجدها في مدريد) سوف يظل يلقي تحيّته الصباحية ويرفع يده ويمزج الوقت العام بوقتي وربّما سينادي أحداً سواي باسمي (إذ بالنسبة له أنا لم أغادر، وفي رأيه، كل الأرواح حيّة)، هذا على الرغم من أنّني أعلم أنّ أي «مستر برانشو» لم يظهر بعد في الـ«تايلوريانا». وسوف تظل «موريل» تعيش، على ما أظنّ، في المنطقة التي كانت يوماً «ويتشوود فورست»، بين النهرين، في

الغابة التي كانت يوماً غابة. ولا تزال في حوزتي، وهي أمامي (أجعلها ترنّ، في علبة معدنية، مع حلقَتَيْ الأُذن)، بعض القطع النقدية المعدنية التي بقيت معي ولم أصرفها وقتها. كان بإمكاني أن أتركها للطفل «إريك» الذي قد يكون على وشك العودة من «بريستول»، في هذه الفترة من السنة، لقضاء العطلة. لكن قد يرغب طفلي أيضاً في الاحتفاظ بها يوماً ما. لا يزال الطفل «إريك» حيّاً ولا يزال ينمو.

كانون الأول ١٩٨٨



رواية أوكسفورد

في هذه الرواية الحافلة بالسخرية وبروح فكاهية مُجدَّدة، يسبر مُحاضر إسبانيّ أعماق الجامعة الشهيرة ومجتمعها بفنّ روائي مذهل في سردٍ يتألق بألف وشاحٍ ووشاح على خلفيّة قصّة حُبّ.

بعيداً فكرياً عن الجامعة التي تحتضنه، يجول الرّاوي، محاضرٌ إسبانيّ زائر، جولات فكريّة متقلّبة ويعيش مواقف منوّعة تنقله بين التساؤل والتعجّب والتمرّد والقرف والسرور والصدمة والحبور. ففي سأمه يلقي نظرات عميقة على قلب مدينة جامعيّة باتت ذائعة الصيت، حيث لا أحد يعمل حقاً، وحيث الوجود فيها هو المغزى الأعلى. وهكذا يطلعنا مارياس، عبر أشخاصه الغريبي الأطوار (كما اعتاد الناس أن يعتبروا عامة البريطانيّين) على كنه النفس البشرية في كل تألقاتها ومشاكلها. رواية فريدة حقاً لكاتب يُعتبر من أهمّ روائيّي العالم اليوم.

ISBN 978-9953-26-100-8